

أحسن تفسير للقرآن الكريم في تاريخ الإسلام بحمد الله وبفضله تعالى

مَعَالِمُ الْإِيمَانِ

وَتَفْسِيرُ الْقُرْآنِ

الجزء الثاني

سورة البقرة للدنيا (١-١٢)

المرجع الديني للمسلمين
الشيخ صالح الطائي
استاذ الفقه والاصول والتفسير والاحكام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي قهر سلطانه الخلائق، ووسعت الجميع رحمته، وعجزت العقول عن درك صفته، وانطق اللسان بشكره وحمده، وملأت الافاق بالآيات الدالة على توحيده، احدث المخلوقات بمشيئته، سبحانه لا ثاني له في إلهيته وربوبيته. وصلى الله على سيد خلقه النبي الاكرم محمد وآله الذين أذهب عنهم الرجس.

ان من آياته تعالى تخلف العقول عن سبر أغوار القرآن، وان اجتهد أولوا الألباب والأفهام، وهو عجز مبارك لا يمنع من السعي الجاد والمخلص لإستخراج العلوم المكنونة في آياته، وكشف الأسرار الخفية في ثنایا كلماته والفاظه، وبسط معاني وإستظهار بركاته وإتصال إفاضاته وإستنباط الأدلة والبراهين من درره.

لذا أقدم العلماء على خوض غمار التفسير والسياسة في عالم التأويل، وأناروا للأمة دروب الحكمة، وأضاءوا للأجيال طرق التفكير في عالم الملكوت وأعانوهم على سلامة العمل في باب الفرائض والمعاملات، والتدبر والتذكر والعبرة في آياته وقصصه.

ولا زال ميدان التفسير وإبراز وجوه كل علم من علوم القرآن مفتوحاً ويتسع بتقدم وتطور الحياة وعلومها ليكون القرآن فيها دليلاً وعوناً وحجة وشاهداً وهادياً.

وبفضله وإحسانه ولطفه وإنعامه سبحانه وتعالى جاءت موضوعات الجزء الثاني هذا وما فيه من التفسير لشطر من آيات سورة البقرة متجاوزة حد الإيجاز ولكنها لم تصل الى الإكثار والاطناب، مع الحرص على بيان ما يتطلبه المقام ذكره من النكت والدلالات لكي لا يتعد عن متانة القول وضرورة وضوح الحججة ومخاطبة ذوي البصائر وأولي النهى، والانتفاع

معالم الايمان / الجزء الثاني _____ ٣

الاكثر من علوم تفسير القرآن وايجاد قواعد جديدة في التأويل تساعد على الغوص في أعماق لججه وإظهار كنوزه وما فيه من الذخائر وتكون نموذجاً ومثالاً في تحقيق وتنقيح ما يدون في باب علوم القرآن ومدارس تفسيره، وشاهداً على تخلف علوم التفسير عن سبر أغوار القرآن، ودليلاً على الخزائن القرآني التي لم تكتشف بعد في مضامينها ودلالاتها.

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ .

٢٣ ربيع الثاني ١٤١٨ هـ

سورة البقرة

عدد آياتها مائتان وست وثمانون آية حسب العدد الكوفي المروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، ويزاد العدد واحدة حسب العدد البصري وباستثناء البسمة، وينقص واحدة حسب المدني.

والسورة مدنية أي أنها نزلت بالمدينة المنورة عدا آية واحدة منها وهي قوله تعالى ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(١)، فإنها نزلت في حجة الوداع بمنى، وتعد مدنية بلحاظ التقسيم الذي يعتبر كل آية نزلت بعد الهجرة النبوية المباركة مدنية وهو الأقرب.

في نظم القرآن

بعد ان افتتح القرآن بسورة الفاتحة وما فيها من المضامين القدسية جاءت سورة البقرة لتتبع من بين ثناياها عيون نهر جار من الأحكام الشرعية الثابتة الى يوم القيامة. ومن تكامل النظم القرآني ان يبدأ بسورة مكية فيها تحميد ودعاء واثبات لمطلق الربوبية له تعالى وان تأتي اكبر سورة مدنية بعدها مباشرة لتدل على موضوعية الأحكام في القرآن وتعدد موضوع آياتها واهمية العدد والكثرة فيه واجلال وتقديس كثرة الكلمات فيها ايضاً بعد التساوي في الشرف بين كلماته من جهة اتصاف كل منها بالقرآنية.

اعجاز السورة

من اعجاز السورة موضعها من القرآن وتعدد موضوعاتها واتصاف سورة من القرآن بهذا العدد من الآيات، مع انه يتضمن سوراً قصاراً فقد

(١) سورة البقرة ٢٨١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

تعاذل آفة (الدين) من سورة البقرة ستاً من قصار السور بحسب عدد الكلمات، من غير ان يؤثر على شرف كل سورة واستقلالها وإزائها بالقراءة في الصلاة بعد الفاتحة.

ومن اعجازها افتتاحها بثبيت سماوية القرآن وانه من عند الله لإثبات اصل الرسالة ولتأتي الأحكام الشرعية دعوة للإسلام وحجة على القارئ والسامع كما تضمنت الآية الإنذار والوعيد والتخويف للكافرين لتؤكد بان مراحل الإنذار لم تنته بالسور المكية بل ان اكبر سور القرآن وهي مدنية تضمنته وانه حاجة مستديمة وباقية في كل زمان، ومن إعجازها انها تتضمن آيات خلق آدم وتفصيله مع بيان أحكام القبلة وجهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بخصوصها وغيرها من الأحكام. ومن إعجازها تسميتها وما لها من دلالات عقائدية وفقهية وتأريخية وكلامية، وتعتبر هذه السورة مدرسة متكاملة في العقيدة ومنهجاً ونظماً دائماً في احكام العبادات والمعاملات.

إسم السورة

سميت هذه السورة المباركة بسورة البقرة لورود موضوع البقرة في السورة وكيف ان مضامينه كانت آفة اعجازية في الخلق والبعث او الموت والحياة والمستلزمات القطعية في الحكم، وجاءت سبع آيات منها بقصة البقرة فكانت مدرسة لبني اسرائيل وعبرة للأمم. وقد وردت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وباسانيد عديدة يسميها فيها سورة البقرة منها ما ورد بالإسناد عن بريدة^(١) قال:

(١) بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحرث بن الأعرج الأسلمي، اسلم بعد منصرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بدر وقيل قبل ذلك، وفي الصحيحين انه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ست عشرة غزوة، وفي ايام عثمان غزا خراسان ثم تحول الى مرو فسكنها الى ان مات، وقد ذكره الصدوق في كتاب الخصال في ابواب الأئني عشر، الحديث الرابع.

٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

"قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعلموا سورة البقرة فان اخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة" ثم سكت ساعة ثم قال: "تعلموا سورة البقرة وآل عمران فانهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان او غيابتان او فرقان من طير صواف"^(١).

وجاء قريباً منه ايضاً عن ابي امامة الباهلي ونواس بن سلمان وكل منهما يرفعه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام انه قال: "من قرأ البقرة وآل عمران جاء يوم القيامة تظلائه على رأسه مثل الغمامتين او مثل الغيابتين"^(٢).

وقد ذكر نفر من الصحابة هذا الإسم للسورة منهم عبد الله بن مسعود وجابر بن عبد الله وابو الدرداء وحذيفة وعثمان بن العاص وعبد الله بن عباس وابو امامة الباهلي وغيرهم واطلقت تلك التسمية اطلاق المسلمات الا انه وردت بعض الروايات تفيد النهي عنها والتسمية ب(السورة التي فيها البقرة).

فقد اخرج بسند ضعيف عن انس قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة النساء وكذلك القرآن كله ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة والسورة التي يذكر فيها آل عمران وكذلك القرآن كله"^(٣)، كما ورد عن ابن عمر انه قال: "لا تقولوا سورة البقرة ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة".

ويمكن النظر في هذا الأمر من وجوه:

١- الترجيح بالشهرة وهي وان لم تكن حجة في نفسها الا انها مرجحة للرواية وقد تحصل في علم الأصول ان العمل بالخبر عند المشهور من القدماء يوجب الوثوق بصدوره.

(١) السيوطي / الدر المنثور ١/١٨٠.

(٢) الطبرسي / مجمع البيان في تفسير القرآن ١/٣٢.

(٣) الدر المنثور ١/١٨٠.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٢- اجماع المسلمين ومن أيام التنزيل على تسميتها بسورة البقرة اقتداء بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الذي سماها بهذا الإسم وهو الذي لا ينطق بالهوى.

٣- قيل ان الشهرة ونحوها تجعل الخبر مقطوع الصدور او على الأقل تؤكد الوثوق بصدوره، وما دامت تسمية السورة بسورة البقرة مشهورة آنذاك ومتسالم عليها فيمكن طرح المعارض لها ان لم يمكن اعتباره في باب العدم بالإضافة الى القطع بتخلفه عن ادلة حجية الخبر، وبذا تساهم الشهرة في اقرار الحجة وتمييزها عن غيرها.

٤- وتسمية الصحابة والأئمة عليهم السلام للسورة بالبقرة ونسبتها الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي المرجحة في المقام، وورد عن أنس نفسه وباسناد اوثق واصح من السند المتقدم انه سماها سورة البقرة وانه قال: "كان الرجل اذا قرأ سورة البقرة وآل عمران جد فينا يعني عظم".

ولفظ (كان) يفيد الزمن الماضي ويشير اليه فلا يمكن ان يتلقى انس النهي في التسمية عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا يعمل بضمونه او انه يخالفه.

والخبر بهذه التسمية لا يستطيع معارضة النصوص الواردة بتسميتها بسورة البقرة وشياعها والتسالم عليها بالإضافة الى ضعف سنده، ويمكن مناقشته دلالة لما تعارف على اختيار تسمية قصيرة ومناسبة ومنها لحرف واحد كما في سورة (ق).

اما حديث عبدالله بن عمر فلم يرفعه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولعله اجتهاد منه او احتياط خاصة وان الناس لم يعرفوا بعد دلالة اسم السورة على المسمى الا بمزيد من البيان، ويمكن حمله على التنزيه والتوقي والتأدب، وقد ورد عنه انه قال: تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة

٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

سنة فلما ختمها نحر جزوراً) أي انه سماها البقرة ، وفي زمان متأخر لعله في السنين الأخيرة من حياته.

وروي عن عروة انه قال: "كان شعار اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم مسيلمة يا اصحاب سورة البقرة".

مما يؤكد على عظيم منزلتها في العقيدة والشريعة الإسلامية وان نزولها ساهم في ترسيخ الإيمان.

ان النصوص المستفيضة بتسمية السورة بسورة البقرة تؤكد انها تسمية سماوية ذات مدلولات مباركة جديرة بالبحث والدراسة لإستنباط وجوه الحكمة فيها.

ان ضعف رواية النهي عن التسمية ومرجوحيتها يجعل التسمية المشهورة للسورة وهي سورة البقرة جائزة من غير كراهة ولعل رواية النهي في حال ثبوت سندها خاصة بواقع ومناسبة محددة ومقيدة في ظرف يخص نقرأ من المسلمين في بداية اسلامهم، او ان تلك التسمية كانت للتعريف بالسورة بزيادة بيان وتقريب من الأذهان ولتكون مدخلاً في التفسير، كما ورد عن ابي سعيد الخدري انه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السورة التي يذكر فيها البقرة فسظاط القرآن فتعلموها فان تعلمها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة".

ومثل هذه التسمية وما تتضمنه من التفصيل من عمومات قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "انا معاشر الأنبياء امرنا ان نكلم الناس على قدر عقولهم".

كما روي عن سهل بن سعد انه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ان لكل شيء سنام، وسنام القرآن سورة البقرة من قرأها في بيته نهراً لم يدخل بيته شيطان ثلاثة ايام، ومن قرأها في بيته ليلاً لم يدخله شيطان ثلاث ليال"، ويمكن اعتبار هذه الصفات للسورة عناوين تعظيم واجلال ودلالة على المعنى الذي تتلبس به الذات، بينما يدل الإسم

معالم الإيمان / الجزء الثاني

على الذات مأخوذة بعنوان الوصف، وليس من مانع ان تكون اسماء اخرى للسورة خاصة مع تعدد اسماء السور الأخرى كما تقدم في سورة الفاتحة مثلاً وبلحاظ شرف سورة البقرة.

ان تسمية اهم سورة في القرآن بموضوع من موضوعاتها يتعلق بتاريخ احدى اهم الملل السابقة في قضية في واقعة باعجاز ظاهر يعطي اعتباراً لموضوع (اسماء السور) ويفتح باب البحث والإستنباط فيه وتأسيس علم جديد باسم (علم اسماء السور) يدرس كل اسم على نحو مستقل وصلته بالسورة ومدى ضعف القول بان اسم السورة مما انعدم فيها مثلاً كما ذكر في سورة الفاتحة وانها سُميت (السبع) لخلوها من سبعة حروف الاعم الدليل على الخلاف، مع اجراء دراسة مقارنة بين الاسماء وقسمة متعددة للأسماء بحسب اللحاظ والحيثية.

فضل السورة

لكل سورة في القرآن اهمية ومنزلة ووظائف تتعلق بميادين العبادة والصلاح والوحي ونحوها، ولكن سورة البقرة تمتاز بافاضات عديدة يجسدها طول السورة وعدد آياتها الذي يفوق عدد أي سورة قرآنية اخرى، اذ ان اتصافها بكثرة عدد الآيات والكلمات بالمقارنة مع السور القرآنية الأخرى يضيفي عليها اهمية خاصة بالإضافة لما فيه من دلالات واسرار البية تملي على علماء التفسير التوقف عندها واستنباط وجوه الحكمة منها وما تتضمنه من دروس وعبر وآيات قرآنية ومسائل اعجاز، وما يتفرع عليها من العلوم.

وحتى الآيات التي تخص بني اسرائيل وهي كثيرة في هذه السورة تتناول موضوعاً اساسياً في بناء الإسلام وتشيد اركانه من خلال التعامل مع اهل الكتاب الموجودين في المدينة ودعوتهم الى الاسلام والرخصة في تعميم كيفية التعامل معهم.

١٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وتؤكد السورة ما في قصصهم من عبرة للمسلمين وموعظة لأهل الإيمان ووقاية واحتراز يمكن تلمس بعض جوانبها من خلال دراسة الوضع القائم في المدينة آنذاك.

لقد اسهمت سورة البقرة في تثبيت دعائم الإسلام ووضع اسس التشريع بالإضافة لما تضمنته من تشريع الصوم وأحكامه في آياتها ١٨٣- ١٨٧، وبيان أهمية وأحكام الصلاة كما انها تشتمل على معرفة واجب الوجود وابواب من الأحكام والمعارف لم تذكر في غيرها.

روي ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "أي القرآن افضل؟ فقالوا: الله ورسوله اعلم.

قال: سورة البقرة.

ثم قال: وايها افضل؟

قالوا: الله ورسوله اعلم.

قال: آية الكرسي^(١).

"وورد في خبر آخر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الجواب عن أي سور القرآن افضل فأجاب بذلك"^(٢)، الأمر الذي يدل على عظيم هذه السورة ووجوب التدبر في آياتها ومضامينها وما فيها من المعارف الإلهية والثواب الجسيم وان أفضليتها عامة وخاصة.

ولقد وردت في بعض الكتب المعتمدة احاديث ضعيفة في فضل السورة مع احتمال مطابقتها للواقع وجواز روايتها تسامحاً في ادلة السنن في مثل هذا الباب وما فيها من الترغيب في قراءة القرآن والزجر عن تركها.

ولا تصل النوبة للحديث الموضوع كالحديث الطويل المروي عن ابي بن كعب فقد ذكر ان مؤمل بن اسماعيل تتبع رواته في المدائن وواسط

(١) الألويسي / روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ١/٩٤.

(٢) انظر الطبرسي / مجمع البيان في تفسير القرآن ١/٣٢.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

والبصرة وعبادان حتى وصل الى قائله فقال: يا شيخ من حدثك فقال له: لم يحدثني احد ولكننا رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهم الى القرآن، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات^(١) ، ولكن هذا التتبع ونتيجته تحتاج الى توثيق رجالي .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحث المسلمين على قراءة القرآن لما فيها من الفضل العظيم وسيأتي بيانه ان شاء الله، بالإضافة لما في القراءة من تعاهد للقرآن وحفظه في الصدور، وامتازت سورة البقرة بالتخصيص عليها في وصايا القراءة، اخرج عن ابن مسعود انه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما خيب الله امرأً قام في جوف الليل فافتتح سورة البقرة وسورة آل عمران".

وورد في الخبر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث بعثاً وهم ذو عدد فاستقرأهم، كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من احدهم سناً، فقال ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة.

قال: امعك سورة البقرة؟ فقال: نعم.

قال: فاذهب فأنت اميرهم، فقال رجل من اشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني ان اتعلم سورة البقرة الا خشية الا اقوم بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: تعلموا القرآن فاقرأوه واقرئوه.

وروي قريب منه عن عثمان بن العاص قال: استعملني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانا اصغر الستة الذين وفدوا عليه من ثقيف وذلك اني كنت قرأت سورة البقرة^(٢)، مما يدل على عظيم منزلة سورة البقرة والخصائص الكريمة التي تترشح على من حفظها.

(١) انظر ابن الجوزي ٥١٠ - ٥٩٧ للهجرة / الموضوعات ٢٤١/١.

(٢) الدر المنثور ٢١/١.

١٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وفيه دلالة على الإرتقاء في منازل الدين والدنيا بحفظ سورة البقرة وقراءتها وانها مؤهل مستقل، كما ان منافع قراءتها لا تنحصر بالحياة بل تمتد الى عالم ما بعد الموت وانها تنفع صاحبها في البرزخ وتخفف عنه احوال القبر ووحشته.

فقد روي عن ابي الدرداء انه قال: "ان رجلاً ممن قرأ القرآن اغار على جار له فقتله وانه اعيد منه فقتل، فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت سورة البقرة وآل عمران جمعة أي اسبوعاً، ثم ان آل عمران انسلت منه فاقامت البقرة جمعة، فقيل لها ﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيْ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾^(١) قال: فخرجت كأنها السحابة العظيمة"^(٢).

ولقد ادرك المسلمون المنزلة العظيمة لسورة البقرة فاحاطوها بهالة من التقديس واقبلوا على حفظها واستيعاب ما تتضمنه من احكام في الشريعة واخذوا يتلمسون وجوه الإعجاز في آياتها.

روي ان لبيد بن ربيعة^(٣) من شعراء الجاهلية ادرك الإسلام فحسن اسلامه وترك قول الشعر في الإسلام، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشدته فقرأ سورة البقرة فقال: "انما سألتك عن شعرك، فقال: ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد ان علمني الله عز وجل سورة البقرة وآل عمران"^(٤).

(١) سورة ق ٢٩.

(٢) الدر المنثور ١٩/١.

(٣) لبيد بن ربيعة بن مالك العامري يتصف مع جودة شعره في الجاهلية بالفروسية والشرف والكرم، وكان قد نذر ما تهب ريح الصبا الانحر واطعم، وهو من اصحاب المعلقات الشعرية ومطلع معلقته:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

ادرك الإسلام واقام في الكوفة وتوفي في سنة احدى واربعين للهجرة.

(٤) جامع الاحكام ١٣٢.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٣

واخرج عن ابن مسعود "ان امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله رأيي في رأيك، فقال رسول الله عليه وآله وسلم للذي خطبها: هل تقرأ من القرآن شيئاً؟ قال: نعم سورة البقرة وسورة من المفصل، فقال: قد انكحتها على ان تقرأها وتعلمها"^(١)، ومن هذا كان جواز جعل المهر منفعة الحر كتعليم صنعة وغيرها من الأعمال المحللة باعتبار ان الرواية مثال لتعليم المباحات الوضعية بالإضافة الى الراجح الشرعي.

وقد ورد قريباً منه بالإسناد عن محمد بن مسلم عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: "قال جاءت امرأة الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: زوجني، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من لهذه، فقام رجل فقال: انا يا رسول الله زوجنيها، فقال صلى الله عليه وآله وسلم ما تعطيتها؟ فقال: ما لي شيء، قال: لا، فاعادت، فاعاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكلام فلم يقم احد غير الرجل، ثم اعادت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المرة الثالثة: اتحسن من القرآن شيئاً؟ قال: نعم، قال قد زوجتكها على ما تحسن من القرآن فعلمها اياه"^(٢).

وصحيح ان المهر ما يتراضى عليه الزوجان سواء كان مقداره كثيراً او قليلاً، أي ليس له حد من طرف الكثرة او القلة الا ان قلته يجب ان لا تخرجه عن المالية، لذا فان تعليم القرآن له قيمة مالية تؤهله لأن يكون مهراً بالإضافة الى القيمة المعنوية والملاك الاعتباري فهو بديل للمال مع الحاجة في المناسبة للمال والمهر عيناً واعتباراً، وهذا لا يمنع من أن يكون المهر كثيراً وافراً كما سيأتي ان شاء الله في الآية الكريمة من سورة النساء ﴿

(١) جامع الاحكام ١٣٢.

(٢) الوسائل ١٥١/٣ طبعة حجرية.

وَأَنْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَتَلْتُمُوهُنَّ... ﴿١﴾.

لما فتحت مكة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعشرة آلاف مسلم كانوا معه، لم يبق في مكة كثيراً مع أنها بلد البيت الحرام، ومحل صباه وبدايا نزول الوحي عليه، فأقام فيها خمسة عشر يوماً أسس فيها لقواعد الحكم الإسلامي وإدارة شؤون البيت الحرام والقرى التي حول مكة، وإقامة الصلاة، وقهر الشرك فيها إلى يوم القيامة، وخرج المسلمون إلى حنين لقتال هوازن وثقيف في آخر شهر رمضان أو في شوال من سنة ثمان من الهجرة وخرج معه من مسلمة الفتح ألفان فكان مجموع المسلمين الذين معه اثني عشر ألفاً، لذا قال بعضهم يومئذ (لن نُغلب اليوم من قلة) ^(٢)، لبيان السلامة من الضعف والوهن الذي تسببه قلة عدد المسلمين في القتال، ولكنهم فروا في ساعة لولا المدد الإلهي بنزول الملائكة بصفة الجنود قال تعالى ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ^(٣)، إذ باغت هوازن وثقيف المسلمين وخرجت لهم من كل ناحية من الوادي فانهزمت مقدمة المسلمين وهم بنو سليم فانهزم الذين خلفهم من المسلمين ومروا برسول الله من غير أن يوقفوا ولم يبق معه صلى الله عليه وآله وسلم إلا نفر من بني هاشم، فلما رأى هزيمة أصحابه قال للعباس وكان جهورياً صيتاً إصعد هذا الظرب ^(٤) فنادى يا معشر المهاجرين والأنصار يا أصحاب سورة البقرة يا أهل بيعة الشجرة إلى أين تفرون هذا رسول الله فلما سمع المسلمون صوت العباس

(١) سورة النساء ٢٠.

(٢) الكشف والبيان ٦ / ١٠٧.

(٣) سورة التوبة ٢٦.

(٤) الضرب التل الصغير.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

تراجعوا و قالوا لبيك لبيك و تبادر الأنصار خاصة و قاتلوا المشركين حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الآن حمي الوطيس: أنا النبي لا كذب ♦ أنا ابن عبد المطلب^(١) ، وإنهزمت هوازن شر هزيمة مقرونة بترك نسائهم وذرارهم وأموالهم خلفهم، وكان مع هوازن دريد بن الصمة في القوم وقد كبر وذهب بصره، فلما سمع رغاء البعير ونهيق الحمير وحوار البقر وثغاء الشاء وبكاء الصبيان سأل عن الأمر، فقيل له أن مالك بن عوف وهو رئيسهم أمرهم بحمل الذراري والأموال والدواب معهم ليقاتلوا دونهم فقال: راعي ضأن ورب الكعبة، ثم طلب مالاً وطلب منه رد النساء والصبيان، فلم يرض .

وتظهر هذ الواقعة وما قاله دريد بن الصمة كأن مالكا أخطأ تقدير الحال، ولكن الأمر أكبر وأعظم إذ أن نصر المسلمين جاء بنزول الملائكة وبآية من عند الله، كما سيأتي بيانه^(٢)، بدليل أن القائمين من المشركين أخرجوا أهليهم وأموالهم معهم، ولم يحتجوا على مالك فيما طلب منهم، وليس له القوة بحيث بغيرهم على إخراج أهليهم كما أن بداية المعركة تدل على صلته في القتال ودقة التخطيط وسرعة المباغته، وقد أدركت الجيوش وقيادات الأركان في هذا الزمان موضوعية المباغته في الحرب وما يسمى (خطة الحمامة) لتأتي هزيمة هوازن بمعجزة حسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه بعد تعيينهم ووصفهم بالمهاجرين والأنصار بأنهم أصحاب سورة البقرة، وفيه أمور:

الأول: توكيد فضل سورة البقرة، وما فيها من الإعجاز الذاتي والغيري.

(١) مجمع البيان ٢٩/٥.

(٢) أنظر الجزء السابع والسبعين صلة آية (كنتم خير أمة) بالآية (٧٤) من سورة آل عمران.

١٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الثاني: التذكير بما تتضمنه سورة البقرة من آيات الجهاد والقتال في سبيل

الله ، قال تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

الثالث: الإشارة إلى تأسيس صرح الإسلام وجهاد الصحابة الأوائل في

تثبيت أحكام الشريعة، ودولة الإسلام، وما يجب عليهم من لزوم تعاهدها.

الرابع: سورة البقرة دعوة للصبر والتحمل في ذات الله، قال

تعالى ﴿ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ (٢).

وقد يقول قائل المراد من نداء النبي (يا أصحاب سورة البقرة) كل

المسلمين بما فيهم الذين أسلموا يوم فتح مكة، خصوصاً وأن العباس ينادي

عليهم وهو كان أسيراً يوم بدر، والجواب نعم ، يلحق كل هؤلاء بأهل

النداء إلا أن المقصود بالذات المهاجرون والأمصار الأوائل بدليل أن

النداء الذي بعده جاء بالتذكير ببيعة الشجرة .

ومن الآيات أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يناد يا أهل

بدر ويا أهل أحد، لوحدة الموضوع في تنقيح المناط ولأن الميدان ميدان قتال

ودفاع عن بعثة الإسلام، بل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسورة

البقرة لموضوعيتها في القتال والدفاع عن الإسلام.

الخامس: نعت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بأنهم

أصحاب سورة البقرة للدلالة على حسن الصحبة بينهم وبينها، وأنهم

تعاهدوها بالحفظ، وعملوا بأحكامها وسننها وأقاموا الفرائض التي جاءت

(١) سورة البقرة ٢٤٤.

(٢) سورة البقرة ١٧٧.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

فيها وهي الصلاة والزكاة والصيام، وإستقبال القبلة وتعاهد الحج ، قال تعالى ﴿وَأَتُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾^(١).

ومن الآيات أن لفظ(العمرة) لم يرد في القرآن إلا مرتين وفي سورة البقرة خاصة^(٢).

السادس: جاء نداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لبعث المسلمين على القتال والعودة إلى ميادين القتال، فلا بد أن نسبتهم إلى سورة البقرة سبب لطرد الخوف من العدو وقتاله عن نفوسهم، وباعث لنزول السكينة عليهم، وإستحضارهم لحقيقة وهي أن العمل بمضامين آيات سورة البقرة من حين نزولها إلى يوم حنين أعظم وأشد من القتال يومئذ.

السابع: في نداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين(يا أصحاب سورة البقرة) بشارة النصر والظفر على الأعداء يوم حنين كما إنتصروا في معارك الإسلام التي خاضوها، وكانت سورة البقرة وآياتها سلاحاً، وواقية من الهزيمة.



(١) سورة البقرة ١٩٦ .

(٢) أنظر سورة البقرة ١٩٦.

قوله تعالى

﴿الم﴾ الآية ١.

الإعراب

قال النحويون بان هذه الحروف مبنية على الوقف كحال حروف الهجاء التي لا تعرب وحكي عن عاصم في الشواذ (الم الله) بقطع الهمزة، وقرأ الباقون بفتح الميم، وقيل فتحت لإلتقاء ساكنين.

اختلف في اعرابها بسبب عدم الإتفاق على نسبتها الى أي من اقسام الكلام، فبعض وقف عليها لتقصانها على السكون، وقال الفراء: انما لم تعرب لأنه لم ترد ان تخبر عنها بشيء.

وقيل انها ليست اسماء متمكنة ولا افعالاً مضارعة وانما هي حروف بمنزلة حروف التهجي وهي محكية، ولو اعربت ذهب معنى الحكاية، وبه قال الخليل وسيبويه.

وهناك من احتج على قول الخليل، وان التلفظ بالحروف وفق صيغ الهجاء وقال: الف، لام، ميم، فيه زيادة على الحروف في هيئتها الأصلية ولعل هذا الرد لا يكون وافياً.

اما من قال ان هذه الحروف اسماء للسورة فهي عنده مرفوعة وانها خبر مبتدأ مضمرة أي هذه الم، وقد تكون مبتدأ مرفوعاً وخبره ذلك الكتاب.

وقال ابن كيسان النحوي: الم في موضع نصب كما تقول: اقرأ الم، وقيل في موضع جر بالقسم لقول ابن عباس: انها اقسام اقسام الله بها، وموضوع القسم في المقام يحتاج الى قرينة او اشارة تدل عليه.
وقال الكوفيون ان الفواتح آية اينما وقعت.

معالم الإيمان / الجزء الثاني
19
و(آلم) في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذه آلم.

في سياق الآيات

يدل إبتداء هذه السورة مع عظيم منزلتها بهذه الحروف المقطعة على وجود اسرار عظيمة في هذه الحروف، وليس من مانع من استقراء بعضها من موضعها ومن سياق الآيات، وفيها ترغيب لمعرفة ما بعدها من الآيات، ومضامينها القدسية .

وهذه الآية مدخل كريم لأكبر سورة في القرآن، فبعد سورة الفاتحة وما فيها من الحمد والثناء على الله تعالى، ولإقرار بروبيته والدعاء والتضرع له سبحانه، جاءت سورة البقرة لتدل في افتتاحها على تفقه المسلمين في المعارف الإلهية، وتلقيهم الحروف المقطعة بالتصديق بنزولها من عند الله، والتدبر في معانيها.

وبعد هذه الآية ابتدأت الآية التالية باسم الإشارة واردة القرآن والقطع بانه منزل من عند الله ليشمل هذا القطع والتوكيد هذه الآية بالذات، مع مدح المسلمين لتلقيهم القرآن بالتصديق والإقرار بانه نازل من عند الله ومنه هذه الأحرف المباركة.

إعجاز الآية

مع كثرة الدراسات والبحوث في هذه الحروف فانها ظلت عاجزة وقاصرة عن درك كنهها وبيان ما فيها من المضامين وما تشير اليه من المعارف الإلهية، وتبين في بساطة تركيبها عظمة القرآن وما فيه من الكنوز العلمية والذخائر المللكوتية سواء في مادتها وهيئة حروفها او في اسماء تلك الحروف وتجعل الآية العقول في دهشة وشعور بادراك النقص والتقصير ازاء عظمة آيات القرآن .

لقد اراد الله تعالى لسورة البقرة ان تبدأ بالحروف المقطعة، ليكون موضع هذه الحروف مدرسة عقائدية وعلمية، تحث اهل العلم على

٢٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الكسب والتحصيل، وان كانت سرّاً من اسرار الله، وغير معلومة الدلالة الخاصة، إلا انها قرآن وتنزيل.

ويمكن تسمية الآية بآية (الم)

الآية سلاح

تدعو الآية المسلمين الى اكرام القرآن والسعي في استظهار خزائنه وإستخراج ما فيه من العلوم، وهي سبيل الى التدبر فيه واجتناب تفسير آياته والقول فيه بغير علم.

والآية تحد لأهل الكتاب وبلغاء العرب، ودعوة للتدبر والتأمل في معانيها، ومن الاعجاز في المقام عدم إنحصار مضامين التحدي بالآية زماناً ومكاناً وعالمياً، فهو اعم من زمن التنزيل او حدود الجزيرة العربية او اهل الكتاب من اليهود والنصارى.

فهذه الآية وما تتضمنه من العلوم سر من اسرار القرآن، ودعوة الى الناس للتسليم بنزول القرآن من عند الله، والسعي المجموعي العام لاستنباط العلوم وإستقراء المسائل والاحكام من دلالات آياته، والإقرار برفعة وعظيم شأن المسلمين بين الناس في باب المعارف واكتساب العلوم.

موضوع النزول

ان الآية رموز واشارة الى بقاء هذه الأمة وفق حساب الجمل عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال: "مر ابو ياسر بن اخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتلو سورة البقرة ﴿الم﴾ * ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴿ فاتاه اخوه حيي بن اخطب في رجال من اليهود فقال تعلمون؟ والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما انزل عليه ﴿الم﴾ * ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴿ فقالوا أنت سمعته: قال: نعم.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٢١

فمشى اولئك النفر الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمد ألم تذكر انك تتلو فيما انزل عليك ﴿الم﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴿﴾ ، قال: نعم، قالوا: لقد بعث الله قبلك انبياء ما نعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه؟ وما اجل امته غيرك.

فقال حيي بن اخطب واقبل على من كان معه: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم اربعون، فهذه احدى وسبعون سنة افتدخلون في دين نبي انما مدة ملكه واجل امته احدى وسبعون سنة؟ ثم اقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: نعم قال: ماذا.

قال: المص، قال: هذا اثقل، واقوى الألف واحدة واللام ثلاثون والميم اربعون والصاد تسعون فهذه مائة وحدى وستون سنة هل مع هذا يا محمد غيره؟

قال: نعم، قال: ماذا؟

قال: الر قال: هذا اثقل واطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه احدى وثلاثون ومائتا سنة فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: ماذا؟ قال: المر، قال: فهذه اثقل واطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم اربعون والراء مائتان فهذه احدى وسبعون سنة ومائتان، ثم قال: لقد لبس علينا امرك يا محمد حتى ما ندري اقليلاً اعطيت ام كثيراً؟ ثم قاموا فقال ابو ياسر لأخيه حيي ومن معه من الأبحار ما يدريك لعله قد جمع لمحمد احدى وسبعون، وحدى وستون ومائة، وحدى وثلاثون ومائتان فذلك سبعمائة واربعة وثلاثون فقالوا: لقد تشابه علينا امره ونزلت هذه الآيات ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ

هٰنْ اُمُّ الْكِتَابِ وَاٰخِرُ مَثَابِهَاتٍ ... ﴿١﴾.

وروى مثله القمي في تفسيره عن ابيه عن ابن رثاب عن محمد بن قيس عن ابي جعفر الباقر عليه السلام، وليس في الرواية ما يدل على امضاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لدعواهم او تقريره لها. ولكن استماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحضوره الشريف يعتبر دلالة ذات اهمية خاصة في المقام وان لم ترق الى السنة التقريرية، وفيها توكيد لما للحروف المقطعة من المضامين القدسية وقيل ان حمل هذه الحروف على حساب الجمل عادة معلومة عند الناس، وهذه الآيات اعم في دلالتها من حساب الجمل، ومدة النبوة، خصوصاً وان الحساب لا ينحصر بالحروف المقطعة وحدها من القرآن، وجاءت شواهد الآيات تدل على بقاء الاسلام الى يوم القيامة.

مفهوم الآية

من فلسفة الحروف المقطعة في القرآن انها تتحدى اهل البلاغة والفصاحة وتبعث نسمات الجلالة والهيبة من آيات القرآن، وتدعو للانصات لها ولما بعدها من الآيات والتدبر في موضوعاتها وبلاغتها واعجازها.

ومن أسرار القرآن ان مفاهيم (الم) أعظم وأكثر من ان يحاط بها، لذا ترى قلوب المؤمنين تنجذب اليها لأنها من عنده تعالى، وللتسليم بانها من كنوز القرآن والمعارف السماوية النازلة للأرض.

ان الانسان بغرائزه وتركيبه يبحث عن المجهول والغيب والغريب، فجاءت هذه الآية لتؤكد له عجزه عن درك أسرار وعلوم القرآن من غير ان تحول دون سعيه واجتهاده وتحصيله في استظهار علوم القرآن، ومع الاقرار بان العلماء لم يتوصلوا الى معرفة كنه (الم) وما فيها من الدلالات

(١) سورة آل عمران ٧.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٢٣

والرموز والاشارات فلم يتوجه لهم اللوم او الذم على ذلك، لعدم وجود تقصير في المقام ولكن أكثر أسرار هذه الحروف ممتعة بالذات عن أوهام البشر، وما ظهر من تفسيرها يكفي لان يعتبر ثروة عقائدية وعلمية وشاهداً على عظمة القرآن وتحقيق المنافع وأسباب نزول هذه الحروف. وتدعو الآية للبحث العلمي والغوص في اعماق الآيات بالتحليل والإستنتاج والإستنباط المبني على الدليل الشرعي والعقلي.

إفادات الآية

مما لا يختلف فيه اثنان ان الحروف المقطعة سر من أسرار القرآن، وهي كنز سماوي لم تستخرج أكثر علومه ، ويضفي على القرآن حسناً زائداً يتجلى بالإقرار بعظمته والتسليم بما فيه من الأحكام، وفيها دعوة لإستنباط معان اضافية لهذه الحروف من خلال آيات القرآن الأخرى، كما انها باب للثواب عند التلاوة ففي قراءة كل حرف منها عشر حسنات.

الآية لطف

جاءت الآية بلغة الحروف الهجائية وأفتتحت بها أكبر سورة من القرآن لتكون آية إعجازية، ودعوة للتدبر في أسرار القرآن ومضامينه القدسية . ومن اللطف الإلهي ان تأتي بداية سورة البقرة بهذه الحروف وما فيها من سهولة النطق، وتعلق معناها بذات الحروف التي تكونت منها وفيه إشارة الى يسر الأحكام، وقربها من الناس، وعذوبة التلاوة، وخلوها من المشقة، ومن ثم سهولة أداء التكاليف .

ومن الإعجاز في الآية تعدد اقوال العلماء في الحروف المقطعة دون ان يبلغوا حقيقة كنهها، لذا ورد عن عدد من الصحابة انها غير معلومة، وقال

٢٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

اكثر المتكلمين انها معلومة ومفهومة للخلق ، واحتجوا بآيات عديدة منها قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١).

لقد أمر الله الناس التدبر في القرآن، ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه، ولكن النزاع صغروي لان الحروف المقطعة جزء قليل جداً من مجموع كلمات وآيات القرآن التي هي ظاهرة المعنى والدلالة، وفيها بيان لكل شئ وانها معلومة على نحو جهتي، لتكون هذه الحروف مدرسة أخرى تخاطب العقول وتخبر الناس عن عجزهم عن بلوغ معانيها وتدعو الناس للسياحة في عالم الملكوت ، لذا ورد عن ابن عباس انه قال: عجزت العلماء عن إدراكها) وفيه دلالة على ان الحروف المقطعة كنز ينال المسلمون الثواب فيها بأمور:

الأول: التسليم بنزولها من عند الله عزوجل.

الثاني: تعاهد هذه الحروف وحفظها والعناية بها، فلم يترك المسلمون رسمها وموضوعيتها في القرآن او تلاوتها لأنها غير مفهومة، فجاءت عنايتهم بها لأنها تنزيل.

الثالث: تلاوة المسلمين لهذه الحروف بقصد القرآنية.

الرابع: الإقرار بالإعجاز فيها.

الخامس: شكر المسلمين لله تعالى على نعمة الحروف المقطعة، وانفراد المسلمين بنزولها على نبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وفيه دلالة على أهلية المسلمين لحفظ الكتاب المنزل من غير تحريف ولا تغيير لذا وردت الآية التالية بقوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لتبسط معنى الآية على الحروف المقطعة باعتبارها من الكتاب وانه لاشك في نزولها من عند الله.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٢٥

وهذا المعنى سور الموجبة الكلية الذي يلتقي عنده المسلمون العلماء والمتكلمين منهم والفقهاء والحكماء ، وهو عون لهم في تأويل هذه الحروف

لقد أسهب جماعة من العلماء بذكر الآيات والأخبار في ابطال القول بان الحروف المقطعة في أوائل السور علم مستور إستأثر به الله تعالى ، كما إحتجوا بالمعقول من وجوه:

الأول: نفي ورود شئ في القرآن لاسبيل الى معرفته وعلمه ، لانه يكون من مخاطبة الإنسان بلغة لايفقهاها.

الثاني: الغاية من الكلام والخطاب تحصيل الفهم عند المخاطب ، وإذا كان الكلام غير مفهوم فانه عبث ، والحكيم منزه من العبث.

الثالث: جاء التحدي بالقرآن ولايصح التحدي الا بما هو معلوم ولكن الخلاف في أصل المبني ، فكون هذه الحروف من خزائن القرآن لايعني انها غير معلومة ، كما ان لها دلالات تترتب عليها آثار عقائدية لقراءتها في التلاوة والإقرار بجزئيتها من القرآن الى جانب المنافع الواقعية منها في إسكات الكفار ، ودعوة الناس للتدبر فيها ، فكون جزء من حروف القرآن جاء مقطعاً هو موضوع مستقل للتدبر ، وشاهد على حاجة الإنسان الى الله تعالى ، وعجزه عن تأويل كل ما في القرآن من الحروف والذخائر والأسرار ، وجاءت باللغة العربية كتابة ونطقاً ، فالفهم حاصل معها الا انها باب للتأويل والتحصيل.

لقد أراد الله عزوجل بهذه الحروف من الإنسان التسليم بالتنزيل ، وعجز الناس وان اجتمعوا عن تأويل حروف مقطعة في القرآن كما في تحديهم في الخلق قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾^(١) ، فحتى على القول بان هذه الحروف غير

(١) سورة الحجر ٧٣.

٢٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

مفهومة فان منافعها اكثر من ان تحصى، وهي نعمة قرآنية، ودرس عقائدي يتضمن تأديب المسلمين وهدايتهم الى سبل الفلاح والرشاد.

من غايات الآية

تجذب الآية الأبصار، وتلفت الإنتباه وفيها إشارة الى كنوز القرآن، ودرر خزائنه، ومن إعجاز القرآن انحصار الحروف الهجائية في هذه الآية من بين آيات السورة، ثم تتوالى مائتان وخمس وثمانون آية خالية من مثل هيئة هذه الحروف المقطعة، وكل كلمة لها دلالتها والمعنى الذي تدل عليه، لتبقى هذه الحروف مدرسة لها أصولها، وخاصة ببداية السورة دون غيرها من الآيات وان كان اسماً وكأنها فاتحة ومقدمة للسورة الى جانب البسملة. وفي الآية دعوة للناس جميعاً للتدبر في الفاظ القرآن وما لها من المعاني واسكات للكفار، وتعجيز لفصحاء العرب، خصوصاً وان معنى هذه الألفاظ لا ينحصر بذاتها بل بقبول المسلمين لها باعتبارها تنزيلاً من عند الله وسراً من أسرار الكتاب.

التفسير

اختلف في معنى الحروف المقطعة اختلافاً كثيراً مع القول بان المراد منها معلوم، ومما قيل فيها من وجوه المعاني والتأويل:

- ١- انها اسماء الله تعالى، واستدلوا عليه بما نسب الى الإمام علي عليه السلام بانه كان يقول: "يا كهيعص يا حم عسق".
- ٢- انها ابعاض اسماء الله تعالى، قال سعيد بن جبير قوله (الر، حم، ن) مجموعها هو اسم الرحمن ولكن لا تقدر على كيفية تركيبها في البواقي.
- ٣- وقال ابن عباس الم: الألف اشارة الى انه تعالى أحد، أول آخر أزلي أبدي، واللام اشارة الى انه لطيف، والميم اشارة الى انه ملك مجيد منان.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٢٧

وقال في ﴿ كهيعص ﴾ انه ثناء من الله تعالى على نفسه، والكاف يدل على كونه كافياً، والهاء يدل على كونه هادياً، والعين يدل على العالم، والصاد يدل على الصادق.

وذكر ابن جرير عن ابن عباس انه حمل الكاف على الكبير والكريم، والياء على انه يجير، والعين على العزيز والعدل، والفرق بين الوجهين انه في الأول خصص كل واحد من هذه الحروف باسم معين، بخلاف الثاني. ولكن ابن عباس لم يرفع هذا التأويل الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وان كان تأويله لا يخلو من الأهمية في المقام لما له من صحبة وقربة ولقرب عهده والذين يحيطون به من الناس بايام النبوة بل ان بعض الصحابة كانوا معاصرين له ايضاً وربما يصلهم تأويله، وذلك كله لا يمنع من البحث والتحقيق.

٤- بعض الحروف المقطعة يدل على اسماء الذات وبعضها يدل على اسماء الصفات، قال ابن عباس: "في ﴿ الم ﴾ انا الله اعلم، وفي ﴿ المص ﴾ انا الله افصل، وفي ﴿ الر ﴾ انا الله ارى" وهذه رواية ابي صالح وسعيد بن جبير عنه، وكل صفة يصح اثبات تقيضها ايضاً لله عز وجل فهي من صفات الفعل والافهي من صفات الذات.

٥- ذكر ان كل واحد منها دال على اسم من اسماء الله تعالى وصفه من صفاته.

٦- ان كهيعص الكاف من الكافي، والهاء من الهادي، والياء من الحكيم، والعين من العليم، والصاد من الصادق، وهو مروى عن ابن عباس، والحروف المأخوذة من الأسماء مختلفة في اخذها منها ما هو مأخوذ من اول الإسم كالكاف في الكافي، ومنها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم، ومنها ما هو مأخوذ من آخر كالميم من اعلم.

٢٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وصحيح ان الله عز وجل هو الكافي الحكيم وهو الذي احاط علمه بكل شيء الا ان هذا التفكيك للحروف المقطعة واعادة بنائها بمسالك غير واضحة المعالم يحتاج الى بيان ودليل خاصة وانه لم يرد عن المعصوم ونسبته الى ابن عباس بحاجة الى تحقيق رجالي وبيان ما فيها من الإرسال وهو امارة على ضعف الخبر، ثم ان هذه الأسماء لله عز وجل قد وردت صريحة وواضحة في آيات اخرى من القرآن.

٧- روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "في الألف ست صفات من صفات الله تعالى الأبتداء والله تعالى هو الأول، والإستواء والله تعالى هو العدل الذي لا يجور، والإنفراد والله تعالى هو الفرد، وعدم الإتصال بحرف وهو سبحانه بائن عن خلقه، وحاجة الحروف والمخلوقات اليه مع عدم حاجته، وانتم الفقراء الى الله، والله هو الغني^(١).

وفي المعاني باسناده عن جويرية عن سفيان الثوري قال: "قلت لجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب: يا ابن رسول ما معنى قول الله عز وجل ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ و﴿الر﴾ و﴿المر﴾ و﴿كهيعص﴾ و﴿طه﴾ و﴿طس﴾ و﴿طسم﴾ و﴿يس﴾ و﴿ص﴾ و﴿حم﴾ و﴿جمعسق﴾ و﴿ق﴾ و﴿ن﴾.

قال عليه السلام: اما الم في اول البقرة فمعناه انا الله الملك، واما ﴿الم﴾ في اول آل عمران فمعناه انا الله المجيد، و﴿المص﴾ فمعناه انا الله المقتدر الصادق، و﴿الر﴾ فمعناه انا الله الرؤوف، و﴿المر﴾ فمعناه انا الله المحيي المميت الرازق، و﴿كهيعص﴾ معناه انا الكافي الهادي الولي

(١) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ٩٤/١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٢٩

العالم الصادق الوعد.

فاما ﴿ طه ﴾ فاسم من اسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعناه
يا طالب الحق الهادي اليه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد به.
واما ﴿ طس ﴾ فمعناه انا الطالب السميع، واما ﴿ طسم ﴾ فمعناه انا
الطالب السميع المبدي المعيد.

واما ﴿ يس ﴾ فاسم من اسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعناه
يا ايها السامع للوحي والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط
مستقيم.

واما ﴿ ص ﴾ فعين تنبع من تحت العرش وهي التي توضع منها النبي
صلى الله عليه وآله وسلم لما عرج به ويدخلها جبرئيل كل يوم دخلة
فيغتمس فيها ثم يخرج منها فينفض اجنحته فليس من قطرة من اجنحته الا
خلق الله تبارك وتعالى منها ملكاً يسبح الله ويقدهه ويكبره ويمجده الى يوم
القيامة.

واما ﴿ حم ﴾ فمعناه الحميد المجيد، واما ﴿ حمسق ﴾ فمعناه الحليم
المثيب العالم السميع القادر القوي، واما ﴿ ق ﴾ فهو الجبل المحيط
بالأرض وخضرة السماء منه وبه يمسك الله الأرض ان تميد باهلها، واما
﴿ ز ﴾ فهو نهر في الجنة قال الله عز وجل اجمد فجمد فصار مداداً،
ثم قال الله عز وجل للقلم: اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ما كان وما
هو كائن الى يوم القيامة، فالمداد مداد من نور، والقلم قلم من نور،
واللوح لوح من نور.

قال سفيان فقلت له: يا ابن رسول الله بين لي اللوح والقلم والمداد
فضل بيان وعلمي مما علمك الله فقال: يا ابن سعيد لولا انك اهل

٣٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

للجواب ما اجبتك، فنون ملك يؤدي الى القلم وهو ملك، والقلم يؤدي الى اللوح وهو ملك.

واللوح يؤدي الى اسرافيل، واسرافيل يؤدي الى ميكائيل، وميكائيل يؤدي الى جبرائيل: وجبرائيل يؤدي الى الأنبياء والرسول صلوات الله عليهم قال: ثم قال لي: قم يا سفيان فلا آمن عليك".

وذكر الشيخ الطوسي في رجاله ان سفيان بن سعيد بن مسروق ابو عبد الله الثوري من اصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام وورد في رجال الكشي خبر طويل عن ميمون بن عبد الله يضعف روايته عنه، ولكن ما جاء في الرواية اعلاه مذكور في اسانيد وكتب اخرى معتبرة كما في (واما ﴿ص﴾ فعين تتبع من تحت العرش...) (١).

٨- وجود الإسم الأعظم في الحروف المقطعة لو احسن الناس تأليفها وقيل انه مروى عن الإمام علي عليه السلام وابن عباس (٢) وفي المعاني باسناده عن ابي بصير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "الم حرف من حروف اسم الله الأعظم المقطع في القرآن الذي يؤلفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام فاذا دعا به اجيب".

٩- انها ثلاثة عشر حرفاً وان فيها اسم الله الأعظم.

١٠- هي اسم الله الأعظم، روي عن إسماعيل السدي ، وعن

الشعبي (٣).

١١- انها رموز واشارات بين الله سبحانه وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم اخفيت معانيها الحقيقية عن الناس لحكمة الية، ومما يستدل عليه ان الناس والصحابة لم يسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) بحار الأنوار ٣٧٤/٨٩.

(٢) جامع الأحكام/١٣٤.

(٣) التبيان في تفسير القرآن ٤٧/١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٣١

، ولكنهم يولون مضامينها وما فيها من الأسرار الإهتمام المناسب.

١٢- ورد في بعض الكتب منسوباً الى الإمام علي عليه السلام:
"ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا القرآن حروف التهجي"^(١)، مما يدل
على خصوصية تمتاز بها الحروف المقطعة وان لها معاني قدسية.

١٣- انها من التشابهات التي لا يعلم تأويلها الا الله عز وجل
والمعروف انه اذا تردد كون الآية الكريمة من المحكم او المتشابه يلحقها حكم
المتشابه ويرجع في تأويلها الى السنة المباركة، وقد رد هذا القول بانعدام
الدلالة اللفظية فيها وانها ليست من التشابهات ومعانيها ليست تأويلات
لها.

وقال الشيخ الطوسي: وروي في اخبارنا ان ذلك من المتشابه الذي لا
يعلم تأويله الا الله واختاره الحسين بن علي المغربي^(٢).

١٤- انها اقسام اقسام الله بها في كتابه المجيد وأن القرآن كلامه
تعالى ليظهر شرفها وفضلها، والقرآن نزل بلغة العرب الذين دأبوا على
توكيد كلامهم بالقسم.

١٥- ﴿الم﴾ أي انزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ،
ولكن ليس في الكلام ما يدل على القسم خاصة وان القسم يعقد على
حروف معينة غائبة في المقام وبها تترتب احكام القسم.

١٦- قد روي عن ابن عباس والكليني ان الحروف المقطعة من
اسماء الله تعالى وانه اقسام بها لذا قيل ان موضع القسم لا ريب فيه وورد
جر في باب اعرابها.

قال الأخفش: ان الله تعالى اقسام بالحروف المعجمة لشرفها وفضلها
ولأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومباني اسماء الله تعالى الحسنی

(١) مفاتيح الغيب ٣/٢.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ٤٩/١.

٣٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وصفاته العليا واصول كلام الأمم، بها يتعارفون ويذكرون الله ويوحدونه ، واقتصر الله على بعض منها.

والمراد: اقسام بهذه الحروف ان هذا الكتاب هو الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ.

١٧- ان الألف في الم اشارة لله تعالى، واللام الى جبرئيل، والميم الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونسب الى ابن عباس والضحاك، ولا دليل في البين يشير الى هذا التأويل ووجوه الحكمة فيه، خاصة وان القرآن نزل بلسان عربي مبين.

١٨- الحروف المقطعة في اوائل السور اشارة الى الغرض المبين فيها كأن يقول ان ﴿ ز ﴾ اشارة الى ما تشتمل عليه السورة من النصر الموعود للنبي و﴿ ق ﴾ اشارة الى القرآن.

١٩- انها أسماء للقرآن، قاله قتادة ومجاهد وابن جريج، ومن ذهب الى هذا القول لم يبين ان الحروف ذاتها هي الأسماء او انها رموز لأسمائه، وان كان اطلاق الكلام يفيد المعنى الأول وهو رأي يحتاج الى دليل.

٢٠- ان كلاً منها اسم للسورة التي وقعت في مفتحتها، واختار هذا القول الخليل وسيبويه وعدد من المتكلمين، واستشهد بعضهم باسم لام بن حارثة بن لام الطائي، وقولهم للنقد عين وللنحاس صاد والسحاب غين وان الحوت اسمه نون، أي ان الإكتفاء بحرف واحد من الإسم طريقة اعتادها العرب، ويرد إشكال على هذا القول بان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لم يسموا باكثر من اسمين مثل بعلبك وانها لو كانت اسماء لأشتهرت بها دون سائر اسماء السور ذاتها الأخرى، كما قيل ان هذه الألفاظ داخله في السورة وجزء منها، وجزء الشيء مقدم على الشيء بالرتبة واسم الشيء متأخر عنه بالرتبة، فلو جعلناها اسماً للسورة لزم

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٣٣

التقدم والتأخر معاً وهو محال.

٢١- ان الله عز وجل ذكر هذه الحروف احتجاجاً على الكفار وتحدياً لهم لأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم اخبرهم بحقيقة عجزهم عن الإتيان بعشر سور منه او بسورة واحدة.

ذهب الى هذا القول المبرد واختاره نفر من المحققين وقالوا بان هذه الحروف نزلت تنبيهاً على ان القرآن ليس الا من هذه الحروف وانتم في الواقع قادرون عليها وتعرفون اصول الفصاحة، ويمكن القول بان موضوع التحدي جاء بعدة سور كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورٍ مِّثْلَهُ مُقْتِرَاتٍ... ﴾ (١)، او بسورة واحدة ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَيَّ عَبْدَانَا فَاتُوا سُورَةَ مِثْلِهِ... ﴾ (٢).

وفيها تنبيه بالإضافة الى احتمال نزول بعض الحروف المقطعة قبل آيات التحدي هذه بلحاظ التقدم الزمني.

٢٢- انها تسكيت للكفار بعد ان توأصى المشركون بعدم الإنصات للقرآن واثارة الصخب ساعة التلاوة كما انبأ القرآن عنهم ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ... ﴾ (٣) فربما صفروا او قام بعضهم بالتصفيق واللغظ ليغلطوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليضعوا الحواجز في مسار الدعوة الى الله، فانزل الله عز وجل هذه الحروف التي تثير استغرابهم وتملي عليهم التدبر في رموزها والتفكر في اشاراتها وما تتضمنه من اسرار، ولكي يشتغلوا في الحكمة وإشراقات نزولها وما فيها من المعاني فتنفذ بذلك آيات القرآن الى صدورهم وتلقاها نفوسهم بالخضوع الذي يكون من

(١) سورة هود ١٣.

(٢) سورة البقرة ٢٣.

(٣) سورة فصلت ٢٦.

٣٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

أسبابه إدراك ضعفها عن الصمود أمام هذه الحروف من التنزيل وعجزها عن الإحاطة بالمقاصد منها، ويتطلعون الى الآيات التي تليها والأنوار التي تنبعث من معانيها فيحسون بالإعجاز الظاهر في تلك الآيات ويتابعون أنباء الوحي باستمرار من خلال تلك الإفتتاحية للسورة بفهم وطمع وتعلم وسعي لبلوغ المنافع وإدراك الغايات.

٢٣- قال ابن روق وقطرب ان الله أحب إصلاح الكفار ونعتهم بعد ان تواصلوا بالإعراض وقولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾^(١)، اراد سبحانه ان يورد عليهم ما لا يعرفونه ليكون سبباً لإسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن فانزل عليهم هذه الحروف فكانوا اذا سمعوا قالوا كالمتعجبين: اسمعوا الى ما يجيء به محمد فاذا اصغوا هجم عليهم القرآن فكان علة لإستماعهم وطريقاً لإنتفاعهم.

٢٤- ربما كان بين تسمية السورة بسورة البقرة وبين ما تتخذه احدى امم الأرض من عبادة البقر وتقديسها صلة وتأويل، خاصة وانهم على اختلاط دائم بالمسلمين لتكون التسمية سبباً لتوجههم لقراءة القرآن والتدبر في آياته والإلتفات الى حقيقة فعلهم من خلال مبادئ الإسلام، وينصتون للقرآن وينظرون الى إكبار المسلمين له وتقديسه نظرة تفهم وتبصر.

٢٥- انها رموز وعلامات تشير الى آياته تعالى وبلائه وأيام الدول ومدد الأقسام وآجالهم.

٢٦- لكل كتاب سر، وسر القرآن أوائل السور التي هي علم مستور وسر محجوب استأثر الله عز وجل به، ولما سئل الشعبي عن هذه الحروف قال: سر الله فلا تطلبوه^(٢)، وانكر المتكلمون هذا القول باعتبار ان القرآن تبيان لكل شيء وحجة وبرهان فلا يكون فيه أمر خفي، واستدلوا

(١) سورة فصلت ٢٦.

(٢) روح المعاني ١/٨٨.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٣٥

بآيات ونصوص وحكم العقل، ولكن الخفاء ليس مطلقاً وان شطراً من معاني الحروف المقطعة يستقرأ من الظاهر والاخبار ومن مضامين الآيات الاخرى وتأويلها، والإخفاء هو نوع اعجاز وتوكيد لعجز العقول وهو الحق بشرط ان يتم الطلب والبحث وفق الصيغ الشرعية والرجوع الى قاعدة تفسير القرآن بالقرآن والسنة النبوية وعلوم اللغة.

وفي الوقت الذي تنعدم فيه أي أمانة خاصة تفيد ان الحروف المقطعة سر الله في القرآن او انها سر القرآن فان في كل آية من آيات القرآن اسراراً وكنوزاً من المعرفة والعلوم الإلهية بما فيها الحروف المقطعة نفسها، لذا فانه يبدو صحيحاً ومناسباً ما رواه ابو ظبيان عن ابن عباس قال: عجزت العلماء عن إدراكها.

ان إعتبارها سرّاً الهياً لا بد وان يلقي قبولاً وصدى للأمارات الظاهرية ولعجز العلماء عن بيان تمام حقيقتها ودرك كنهها لتبقى آية اعجازية في ألفاظ القرآن ودعوة للجوء الى السنة النبوية القولية والفعلية والى آيات القرآن نفسها لبلوغ المرام في فهم تأويلها ولو على نحو الموجبة الجزئية، قال ابو بكر الصديق : لله في كل كتاب سر وسره في القرآن اوائل السور^(١).

٢٧- من الإعجاز في الحروف المقطعة انها تطل على كل جيل وزمان بلسان التحدي وفيها اثاره للهمم والبحث والإستنباط والإستنتاج في اسرارها وعلوم القرآن عامة، من غير ان يظهر تقدم ملموس في اكتشاف شطر مستحدث من كنوزها المباركة.

٢٨- ربما يأتي من يستدل بانها سر الله في القرآن بامتناع المسلمين والصحابة خاصة عن سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن تفسيرها ومعانيها وان الإمتناع كان قهرياً وبالإضافة الى عجز المفسرين عن الوصول الى حقيقة كنهها وتعذر اتفاهم على حد ادنى من نقاط الإلتقاء في تفسيرها

(١) مفاتيح الغيب ٣/٢.

٣٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

خاصة وان القول بعدم معرفة اسرار فواتح السور منسوب الى عدد من اكابر الصحابة.

ولعل الصحابة لم يسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها لإنشغالهم بالفتح وتثبيت دعائم الإسلام وامهات الأحكام وترسيخ اسس الإيمان في ربوع الأرض وفي البناء الروحي لمعاشر المسلمين، فقد كانوا ينظرون اليها بعناوينها الخارجية المجردة ولم يتفرغوا لهذا العمق في ابواب التفسير وليس فيه تقصير منهم ولكن الله عز وجل يفتح على كل حقبة من المسلمين ابواباً من العلم والمعرفة وتظهر لهم بعض الآفاق الجديدة في علوم القرآن بالنظر الثاقب في تأويل آياته.

لقد تقدم عدداً من الأقوال في تفسير الحروف المقطعة منسوبة الى ابن عباس والذي يظهر انه لم يرفعها الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والظاهر انها على قسمين، قسم من عنده ووجوه من إستنباطه، والآخر منسوب اليه ويبدو ضعف سنده لا أقل بالإرسال.

٢٩- المراد بها حروف المعجم وجاءت افرادها كنماذج إجمالية واكتفي بايرادها عن ذكر الحروف الأخرى، وقيل انها من قبيل تعداد حروف التهجي وإشارة الى معنى ومفهوم محدد وهو ان هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته من تركيبية هذه الحروف التي تستعملونها في لغة المخاطبة والكلام بينكم وكررت في مواضع وفواتح السور، روي عن قطرب واختاره ابو مسلم الإصفهاني وبعض المتأخرين.

ورد في المعاني باسناده عن محمد بن زياد ومحمد بن سيار عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام انه قال: "كذبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا: سحر مبین، فقال الله: الم ذلك الكتاب أي يا محمد هذا الكتاب الذي انزلناه عليك هو الحروف المقطعة التي منها الف لام ميم وهو بلغتكم وحروف هجائكم فاتوا بمثله ان كنتم صادقين واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم".

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٣٧

- ٣٠- كل واحد من هذه الحروف يدل على فعل من الأفعال فالألف معناه ألف الله محمداً فبعثه نبياً، واللام أي لأمه الجاحدون، والميم أي ميم الكافرون غيظوا وكتبوا بظهور الحق، وقال بعض الصوفية: الألف انا، واللام معناه لي، والميم معناه مني.
- ٣١- ان الله تعالى ذكرها في القرآن لدلالات تعني تقديراً اسمعوها مقطعة حتى اذا مددت عليكم مؤلفة كنتم قد عرفتموها قبل ذلك، كما ان الصبيان يتعلمون هذه الحروف اولاً مفردة ثم يتعلمون المركبات، قاله العزيز بن يحيى.
- ٣٢- تدل هذه الحروف على انقطاع كلام واستئناف كلام آخر، قال احمد بن يحيى بن ثعلب: ان العرب اذا استأنفت كلاماً فمن شأنهم ان يأتوا بشيء غير الكلام الذي يريدون إستئنافه، فيجعلونه تنبيهاً للمخاطبين على قطع الكلام الأول واستئناف الكلام الجديد.
- ٣٣- روى ابن الجوزي عن ابن عباس ان هذه الحروف ثناء اثني الله عز وجل بها على نفسه^(١).
- ٣٤- التكلم بهذه الحروف وان كان معتاداً لكل احد الا ان كونها مسماة بهذه الأسماء أمر يجعل معرفتها متعذرة على الناس الا من إشتغل بالتعلم والإستفادة، فاخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنها من غير سبق تعلم وإستفادة حجة وبرهان واخبار عن الغيب.
- ٣٥- ان الله تعالى علم ان طائفة من هذه الأمة تقول بقدم القرآن فذكر هذه الحروف تنبيهاً على ان كلامه مؤلف من هذه الحروف فيجب ان لا يكون قديماً، قاله ابو بكر التبريزي.
- ٣٦- المراد من ﴿الم﴾ انه ألم بكم ذلك الكتاب أي نزل عليكم، والإمام: الزيارة، لأن نزول جبريل به كان كنزول الزائر، قاله القاضي

(١) مفاتيح الغيب ٦/٢.

٣٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

المأوردي.

ولكن هذا القول يفيد المعنى اللفظي في الوحدة الكلامية للحروف
فينظر لها كفعل، وسياق الآية الشريف لا يؤيده بالإضافة الى القرائن
الأخرى لثبوت القراءة بالتقطيع لبقية الحروف في السور الأخرى مثل ﴿
المص﴾ و ﴿الر﴾ وغيرها، وإتفاق المسلمين واجماعهم على انها حروف
مقطعة يحول دون البحث عن احتمالات ظنية لمثل هذا التأويل.

٣٧- الالف اشارة الى ما لا بد منه من الإستقامة في أول الامر،
وهو رعاية الشريعة، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
...﴾^(١)، واللام اشارة الى الانحاء الحاصل عند المجاهدات وهو رعاية
الطريقة، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾^(٢)، والميم
اشارة الى صيرورة العبد في مقام المحبة كالدائرة التي تكون نهايتها عين
بدايتها، وبدايتها عين نهايتها، ويتحصل بالفناء بالله تعالى بالكلية، ان
الالف من اقصى الخلق وهو اول مخارج الحروف، واللام من طرف اللسان
وهو وسط المخارج، والميم من الشفة وهو احد المخارج فهو اشارة الى ان
أول ذكر العبد ووسطه وآخره ليس الا الله تعالى، على ما قال ﴿فَقَرُّوا
إِلَى اللَّهِ﴾^(٣)^(٤).

٣٨- طرح بعضهم إختلاف أعداد الحروف اذ جاءت ﴿ص. ق. ن.

ن﴾ على حرف واحد، و ﴿طه وطس ويس وحم﴾ على حرفين، و ﴿الم

(١) سورة فصلت ٣٠.

(٢) سورة العنكبوت ٦٩.

(٣) سورة الذاريات ٥١.

(٤) مفاتيح الغيب ٦/٢.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٣٩

والرؤسم ﴿ على ثلاثة أحرف، و﴿ المر ﴿ على أربعة أحرف، و﴿ كهيعص وجمعسق ﴿ على خمسة حروف، وفق أبنية الكلام العربي على حرفين والى خمسة أحرف فقط.

٣٩- هي فواتح يفتح بها القرآن لتكون صيغة في الكلام يعرف من خلالها ابتداء السورة وانتهاء التي قبلها، روي عن مجاهد وإختره البلخي، وقيل أنه معروف في كلام العرب.

٤٠- لقد ورد في هذه الفواتح من حروف المعجم نصفها أي أربعة عشر حرفاً وهي: الالف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون وفي تسع وعشرين سورة، ولعل هذا التناسق العددي يتضمن إعجازاً في المقام وضوء مباركاً في تأويلها.

عند دراسة الحروف المقطعة في القرآن لا بد من الوقوف عند منزل مبارك يعتبر المحور الاساسي في عالم التفسير والمدخل الرئيسي لمعرفة الوجوه الحقيقية الظاهرة للعباد منها ألا وهو ما ورد في المأثور عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المقام.

وصحيح انه صلى الله عليه وآله وسلم لم يفسر آيات القرآن كلها لوضوح معانيها ومعرفة العرب بمضمونها او مقدار حاجتهم انذاك وادراك الصحابة لتأويلها والتجائهم المباشر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذ كانت سنته بياناً وتفسيراً للقرآن، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم فسر الكثير من آيات القرآن وأرسى الأسس الموضوعية الحكيمة لمناهج التفسير وفق أحكام الشريعة وصحائف ميثاق النبوة.

والظاهر أن ما في أيدينا وما توارثته اجيال المسلمين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خصوص الحروف المقطعة قليل، ولعل شطراً مما ورد عن الصحابة والتابعين هو في الاصل من تراث النبوة ولكن إستحضار

٤٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الدليل عليه أمر غير يسير.

وروي عن معاوية بن قررة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم:
"بان الحروف المقطعة من أسماء الله".

والرواية منقطعة فقد وردت في تفسير التبيان^(١) من غير ذكر الإسناد،
ومع هذا فهي ذات أهمية في المقام وتشير إلى جانب أساسي في هيكل
أسرار الحروف المقطعة وترسخ تاريخياً منطق الاهتمام بها والبحث في
سبر أغوارها.

وورود حديث في بيان جانب من التفسير والتأويل لها لا يعني
بالضرورة انعدام وجوه أخرى من التفسير ولا يغلق الباب في مسالك
الدراسات العلمية في تحقيق معاني الحروف المقطعة وأسرارها واستنباط
المضامين العقائدية لها وفلسفة وجودها المتميز في افتتاح بعض سور القرآن
خصوصاً مع التسليم الواجب بأهمية كل حرف موجود في القرآن وتعدد
مدلولاته ووظائفه.

ان أهمية الحروف المقطعة تتعدى إشارات الرموز التي كانت شائعة
عند العرب لترشد الناس إلى المضامين المدخرة في بواطن الآيات القرآنية
واستقراء دقائقها وما تتضمنه من لطائف وتؤكد من حقائق كونية أو
وضعية واستنباط وجوه المصالح وأسرار الحكمة فيها.

إن لغة القرآن وما تحويه من عظيم الحكمة تؤكد القول بأن لكل حرف
من هذه الحروف المقطعة معنى ومفهوماً وخصوصية ودلالات خاصة
ومغايرة لما تحويه الحروف الأخرى منها، فقد يكون بعضها سراً من أسرار
الله عز وجل، وبعضها عاماً خصّ الله عز وجل به نبيه الكريم صلى الله
عليه وآله وسلم إكراماً وإقامة للحجة ولتكون عنده مفاتيح لعلوم مستحدثة

(١) الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي ٣٨٥ - ٤٦٠ هجرية / تفسير
التبيان ١ / ٥١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٤١

ومتجددة ورموز يتعذر فهمها ومعرفة مختلف وجوها إلا من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والراسخين في العلم وربما بعض من صفوة خلقه تعالى كالملائكة أو شطر من الجن كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ (١).

أو انه من السر المكنون الذي لم يحن أو ان تأويله وبيان مضمونه الأمر الذي يستلزم مواصلة البحث والدراسة في حقيقة وخفايا الحروف المقطعة ومن غير الخروج عن لغة القرآن أو الابتعاد عن السنة النبوية الشريفة وأحكام الشريعة ومعايير الحكمة وموازين العقل.

ولعل تفسيراً قريباً يطل عليك عند الإمعان في الإستقصاء والدراسة والبحث فتتعدد دلالاته وتسكن اليه النفس من غير ان يتعارض مع الأقوال الأخرى في تفسيرها كالذي روى مسنداً عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: "سئل جعفر بن محمد الصادق عن قول ﴿ الم ﴾ فقال: في الألف ستة صفات من صفات الله تعالى (الابتداء) فان الله ابتداء جميع الخلق، والألف ابتداء الحروف، و(الاستواء) فهو عادل غير جائر، والألف مستو في ذاته، و(الانفراد) فالله عز وجل فرد والألف فرد، واتصال الخلق بالله، والله لا يتصل بالخلق وكلهم محتاجون إلى الله والله غني عنهم، وكذلك الألف لا يتصل بالحروف والحروف متصلة به وهو منقطع من غيره والله عز وجل بجميع صفاته منقطع من خلقه ومعناه من الألفة، كما أن الله تعالى سبب ألفة الخلق فكذلك الألف عليه تألفت الحروف وهو سبب الفتها" (٢).

انها ألفاظ تعكس وجوداً حقيقياً واعتبارياً، وتظهر العلاقة بين الوجود

(١) سورة الجن ١.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ١ / ٣٢.

٤٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الخارجي والوجود الذهني للمعاني والمفاهيم وحضورها في عالم الكتابة بصورة أوسع وأكثر شمولاً خاصة مع الإقرار بتعدد وجوه التأويل والتفسير لكل آية من آيات القرآن.

ان وجوه الدلالة تلتقي بالحروف المقطعة وما ترمز اليه من المعاني كالدلالة اللفظية بفروعها المطابقة والتضمنية والإلتزامية، بالإضافة إلى الدلالة العقلية ذات الملازمة الذاتية لتوجه الذهن نحو سبر أغوار القرآن والتسليم بإعجازه حتى في مراحل إستثمار المعاني والتأويلات التي تم الوصول اليها في فهم آياته المباركة، سواء على القول بان الخط العربي توقيف من الله عز وجل قال تعالى ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾^(١)، أو انه من العلوم الوضعية الكسبية.

وقد ورد عن كعب الأحبار أن أول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر الكتب آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في الطين ثم طبخه، فلما انقضى ما كان أصاب الأرض من الغرق، وجد كل قوم كتبهم فكتبوا به، فكان إسماعيل عليه السلام وجد كتاب الأربع، كما ورد أن إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم، وهناك روايات أخرى في المقام، وقد أكدت الدراسات الحديثة في علم اللغات على الالتقاء والتقارب في ترتيب الحروف بين اللغات القديمة.

كما ان الكتابات العربية القديمة التي عثر عليها الباحثون على الصخور والتي تعود إلى فترة ما قبل الإسلام تؤكد وجود روابط بينها وبين الخط النبطي القديم مع تطور ظاهر في الخط العربي كما في نقش أم الجمال الأول والذي يعود تاريخه إلى سنة ٢٥٠ بعد الميلاد أو نحوها، علماً بان تلك النقوش وما تستخرجه الإكتشافات الأثرية لا تستوفي الحقيقة التي تؤكد الروايات.

(١) سورة العلق ٣ - ٤.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٤٣

ان الاسرار القدسية التي تشع أنوارها من الحروف المقطعة من القرآن تبعث على الإعتقاد بإمكانية حملها لعدة وجوه من المعاني كما ثبت في علم الأصول بوقوع الاشتراك اللفظي في اللغة العربية وهو عبارة عن وضع لفظ واحد يتعلق بمعنيين متباينين أو أكثر ومن غير منافاة بين لحاظ المرئي منها وآخر غيره، وجواز استعمال اللفظ في الأكثر ممكن نقلاً وعقلاً ولغة وعرفاً. ان ابتداء اكبر سورة من القرآن وأكثرها أهمية بالحروف المقطعة له دلالات إسلامية خالدة، وتعتبر النصوص الواردة بخصوص الحروف المقطعة مفاتيح لمعرفة شطر من أسرارها، ولا تعارض بينها لتعدد معاني ومضامين الحروف المقطعة القدسية خصوصاً وان ظاهر النصوص يدل على ان هذا التعدد من اهم اسرارها، وان العقول لا تدرك الشطر الأكبر والأهم من مفاهيمها.

وهذا لا يمنع من الإنتفاع الأمثل منها لقرآنيته وافتتاح السور بها والتصدي لدراستها والتحقيق في مضامينها، ولا يعتبر عدم التوسع بتأويلها نقصاً أو تأويلاً لأن ملاكه اجتناب القول في القرآن بالرأي وللهالة القدسية المباركة التي تحيط بها وما جعله الله لها في النفوس من الهيبة والإجلال، وفيها إخبار للناس عن عجزهم عن اكتشاف واستظهار علوم القرآن فاذا كانت الحروف المقطعة تتضمن الدقيق واللفظ من المعاني، وهي بعض القرآن فمن باب اولى ان الآيات الأخرى لا بد وان تحمل دلالات واشارات غير التي تم التوصل اليها وان كانت متعددة.

ان الحروف المقطعة عنوان التحدي وشاهد على إعجاز القرآن وفق النظرية التي أسسناها وهي ان الحرف والكلمة القرآنية تتضمن معاني ومفاهيم تفوق كثيراً ما يتضمنه الحرف والكلمة من كلام المخلوقين وما وضع له أصل اللفظ، وهذا التحدي رحمة ولطف بالمسلمين فهم يعتبرونه حرزاً وكنزاً وسلاحاً عقائدياً ومادة للإيمان وسبيلاً للمعرفة، وموضوعاً للدراسة والتحقيق وإستقصاء لخزائن آيات القرآن.

قوله تعالى

﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لِارْبَابِهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ الآية ٢.

القراءة والإعراب واللغة

على القول بان (الم) اسم يعتبر (ذلك) مبتدأ ثانياً وخبره (الكتاب) للإشارة إلى حقيقة أن القرآن كتاب منزل من عند الله عزو جل وانه هو الكتاب الكامل الموعود، وقال ابن النحاس (ت ٣٣٨ هـ) أن (ذلك) فيه ستة اوجه^(١).

و(ذلك) اسم إشارة للبعيد، إذ أن اللام للبعد، وقال البصريون أنها للتوكيد والكاف حرف خطاب أي أنها ليست بضمير. واختلف في الاسم منها فقال الكوفيون أن الدال وحدها هي الاسم، وقال البصريون أن (ذا) هو الإسم لضرورة الإبتداء بحرف والوقوف على حرف.

وعن نافع^(٢) وعاصم^(٣) انهما وقفا على (لا ريب) كما في قوله تعالى ﴿

(١) إعراب القرآن ٢٧/١.

(٢) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أحد جماعة القراء السبعة، اصله من اصبهان، اخذ القراءة عرضاً عن جماعة من تابعي أهل المدينة، قال ابو طالب عن احمد: كان يؤخذ عنه القراءة، وليس في الحديث بشيء، وله راويان بلا واسطة هما قالون وورش.

(٣) هو عاصم بن بهدلة الكوفي الا سدي مولا هم. اخذ القراءة عرضاً عن زر بن حبيش، وابي عبد الرحمن السلمي وأبي عمر الشيباني، قال ابن سعد: كان ثقة إلا انه كان كثير الخطأ في حديثه. مات سنة ١٢٧ هجرية. وله راويان بغير واسطة هما

قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴿١﴾.

وفي رواية أبي الشعثاء: (لا ريبُ فيه) بالرفع.

وفي الحديث المشهور المروي عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" (٢)، ووردت الرواية بفتح الباء وضمها. الكتاب: اسم لما كتب مجموعاً محصوراً بين دفتين يقال: كتب الشيء يكتبه كتباً وكتابة، والكتاب ما كتب فيه.

وقد يرد الكتاب بمعنى اللوح المحفوظ كما في قوله تعالى ﴿إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (٣) ويرد تفسيره هنا في القرآن كما في قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (٤)، وفي قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ (٥) عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "الاسم الأكبر هو الكتاب الذي يعلم به علم كل شئ الذي كان مع الأنبياء عليهم السلام" (٦).

وقد يرد اصطلاح أهل الكتاب ليشمل جميع المليين من اتباع الأنبياء أصحاب الرسالات والكتب المنزلة من السماء كما في قوله تعالى ﴿إِنْ

حفص وكان ربيبه وأبو بكر شعبة بن عياش.

(١) سورة الشعراء ٥٠.

(٢) صحيح الترمذي ٧٧/٤.

(٣) سورة التوبة ٣٦.

(٤) سورة الجمعة ٢.

(٥) سورة الحديد ٢٥.

(٦) شرح أصول الكافي ٥٨/١٢.

٤٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿١﴾، ويأتي الكتاب اسماً للقرآن ، وقد يأتي عنواناً جامعاً للكتب السماوية المنزلة مطلقاً أو خاصاً بالكتب التي سبقت في تأريخ نزولها القرآن كما هو ظاهر قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ.. ﴾ (٢).

ولفظ الكتاب المتكرر في الآية لا يعني الإشتراك اللفظي ولكن اسم الكتاب النازل من عنده تعالى يصدق على كل منها، وللإخبار عن الصلة الواقعية القهرية بين الملل السماوية وترشحت هذه الصلة على كيفية معاملة اهل الكتاب وشمولهم دون غيرهم باحكام الذمة لانتسابهم لما جاء به الإنجيل والتوراة، والمراد من الكتاب هو القرآن وتنبعث من ابتداء السورة بهذا التوكيد أضواء نورانية مباركة تدل على عظمة القرآن ورفعة شأنه في ديانات بني آدم باعتبارها الموضوع الأساسي لخلق الإنسان ووجوده على سطح الأرض.

والريب: مصدر، يقال رابه الشيء يروبه إذا صار منه مرتاباً، والريبة قلق النفس واضطرابها، وقد تأتي الريبة اسماً من الريب وتعني التهمة والظنة، وفي حديث فاطمة عليها السلام: "يريني ما أرابها" (٣) أي ما يسوئها وارتاب مما ترتاب أو تشك به.

والهدى مصدر كالسرى يقال: هداه يهديه هدياً وهداية، ويراد بالهدى الإرشاد والدلالة ووضوح البيان وضد الضلال، وقيل بالتفصيل في القصد من الهداية إذا تعدت إلى مفعول واحد أو إلى مفعولين ولم يثبت.

(١) سورة البينة ٦.

(٢) سورة العنكبوت ٤٧.

(٣) المغني ٦٦/١٢.

معالم الإيمان / الجزء الثاني ٤٧

ومن اسمائه تعالى (الهادي) وهو الذي ارشد عباده إلى سبل النجاة ومسالك الفوز ودلهم على طريق معرفته ليقروا له بالربوبية مدعنين، أما الهدي فهو السميت والطريقة والسيره، وفي الحديث: "الهدي الصالح والسميت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة"^(١).

والمثقون: جمع مثق وهو اسم فاعل يقال وقاه فاتقى، والتقوى: طاعة الله والإحتراز بها من العقاب الأخروي وهي على مراتب ودرجات كما أن لها منزلة، فتارة تكون بالقلب وشعبة من الإيمان، وتارة تظهر على الجوارح وتنعكس على الأفعال بالإقبال على الطاعات وإجتنب السيئات، وتتجسد بالخوف المقرون بالهيبه والإجلال لمقام الربوبية.

في سياق الآيات

بعد الحروف المقطعة وما تحمله معها من الأسرار والعلوم جاءت هذه الآية لتكون شاهداً حاضراً على صدق نبوة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإعلاناً عن إفتتاح نزول الأحكام وإقامة للحجة ودعوة لتلقي كل آية بالقبول والإمثال ومن الأقوال المشهورة في الحروف المقطعة انها نزلت لتسكيت الكفار، ويمكن اعتبار نزولها في أول أكبر سورة من القرآن قرينة عليه وان لم يكن من باب الحصر به فبعد الإسكات وبعث الذهول في نفوس الكفار جاءت هذه الآية التي هي من الحقائق الكلية الثابتة.

ومن الإعجاز ان هذه الآية تبقي حالة الكفار كما هي من السكون وتزيدهم انقطاعاً ، وتجعلهم والناس جميعاً يتطلعون الى ما بعدها من الآيات وما تتضمنه من الأسرار والأوامر والنواهي .

(١) ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري (٦٣٠ - ٧١١) هجرية / لسان العرب ١٥ / ٣٦٥ .

٤٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

واذ جاءت هذه الآية في مدح المتقين الذين يهتدون بضياء الكتاب ومافيه من الأحكام التكليفية، جاءت الآيات الثلاثة التالية ببيان صفات المتقين بلغة المدح والثناء لتأتي الآية الخامسة من سورة البقرة في مدح المسلمين والثناء عليهم بقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وفيه ترغيب بالإسلام، وحث للمسلمين على الثبات على الإيمان والصبر في جنب الله، ودعوة الناس جميعاً لدخول الإسلام.

إعجاز الآية

تتصف الآية بلغة القطع والجزم والإيجاز في الإخبار عن القرآن ونزوله من عند الله تعالى، وتنفي الشك والريب عنه وتؤكد انه هدى للمتقين ومدرسة جامعة وعنوان اجمالي يخبر عما يؤطر آيات القرآن من الوظائف الإيمانية، وفي الآية مع قلة كلماتها عدة مقدمات:
الأولى: انها وثيقة تخبر بان القرآن من عند الله وانه الجامع للكتب المنزلة.

الثانية: بيان وظيفته وهي أشرف وأقدس وأعظم الوظائف لقيامه باصلاح النفوس والمجتمعات وقيادة أهله وحملته الى دار النعيم الخالد.
الثالثة: تعتبر الآية من أمهات (آيات التحدي) لتوجه التحدي فيها لأهل الكتاب بالإخبار عن حقيقة القرآن وانه الكتاب السماوي الجامع الموجه للناس جميعاً في لزوم الإصغاء للخطاب القرآني وما فيه من المضامين التي هي هبة من عند الله لهم .

ومن وجوه الإعجاز في الآية وما تدل عليه من زيادة هدى المتقين بالقرآن وآياته وتلاوتها والعمل باحكامها، فليس من منزلة اعلى من منزلة المتقين ومع هذا جاءت هذه الآية لتخبر ان القرآن يزيدهم هدى ويجعلهم يرتقون في منازل التقوى، وفيه بعث لليأس في قلوب الكفار من إرتداد جماعة من المسلمين .

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٤٩

فمع نزول آيات القرآن يزداد المسلمون إيماناً، ومادام القرآن بين ظهرانيهم فانهم في سلامة وأمن من الفتن والضلالة، وهذه الآية من مصاديق افضلية القرآن على الكتب السماوية الأخرى، وافضلية المسلمين على غيرهم من اهل الملل والنحل لان المسلمين هم المتقون ويزدادون تقوى وصلاًحاً بآيات القرآن فلاغرابة ان تكون قراءة القرآن واجبة في الصلاة اليومية، لانها مصدر للهداية، وباب لإكتساب العلوم والمعارف. إن اخبار الآية عن القرآن باسم الإشارة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ شاهد على بقاء القرآن الى يوم القيامة خالياً من التحريف والتغيير، وانه وحده الكتاب السماوي الجامع للأحكام.

ويمكن تسمية الآية بآية (**ذِكُّ الْكِتَابِ**) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن الا في

هذه الآية، وكذا لفظ (**هدى للمتقين**).

الآية سلاح

الآية توطئة ومقدمة علمية لإكرام القرآن وادراك المسلمين للزوم تعاهده وحفظه وتقديسه والأخذ بما فيه من الأحكام والسنن ومسائل الحلال والحرام.

وتثبت الآية أصل وماهية التقوى عند المسلمين لأن الله عز وجل جعل آياته منبئة في جميع مخلوقاته على نحو الإطلاق الشمولي لتؤكد صدق النبوة وما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الشواهد والآيات الحسية الى جانب القرآن .

لقد واجهت البعثة النبوية الشريفة العناد والاصرار والتكذيب من اكثر اهل الملل الأخرى، حتى الذين كانت بين أيديهم بشارات بنبوته، ويتطلعون اليها، ويتوعدون الكفار بقرب بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والظهور عليهم، تنكروا لدعوته عند بعثته.

٥٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

فجاءت هذه الآية لتخبر عن حقيقة وهي ان القرآن أعظم سلاح في تاريخ الانسانية، فليس من قوة او سلاح للكفار يستطيع مواجهته فمن خصائص القرآن انه يجذب المسلمين الى منازل التقوى ولا يتركهم وشأنهم او يتخلى عنهم، بل يأخذ بأيديهم على نحو مستمر ومتصل في منازل التقوى والفلاح، وهو دعوة سماوية دائمة موجهة للناس جميعاً لدخول الإسلام.

الآية لطف

يتفضل الله تعالى ويشير الى القرآن بما يؤكد موضوعيته وقديسيته والعناية الإلهية به، لقد تفضل الله سبحانه وجعل القرآن وثيقة سماوية وقانوناً يحكم بين الناس الى يوم القيامة، وإماماً يقود أهل الإيمان الى الجنة، ويسوق الكافرين الى النار، والآية شهادة من عند الله للقرآن بأنه الكتاب الجامع للأحكام الشرعية، والدليل الهادي الى سواء السبيل وفي الآية مسائل:

الأولى: الإشارة الى عظمة القرآن وعلو منزلته بين الكتب السماوية.
الثانية: نفي الشك والريب بالقرآن، وفيه دلالة على خلو القرآن من التحريف والتغيير والتبديل بقريظة مجيء الآيات القرآنية التي تؤكد حفظه وسلامته وعصمته من التحريف.

الثالثة: توكيد خصوصية في القرآن وهي هدايته لأهل الإيمان فوظيفته الملكوتية لا تنحصر ببيان الأحكام بل أنه يجذب المسلمين الى سبل التقوى والهداية والصلاح، ويهذب النفوس ويصلح المجتمعات، وهو ميزان تتقوم بواسطته الأعمال بقصد القربة، وتبين الآية موضوعية القربة وقصد رضا الله تعالى، وتبين الآية موضوعية القرآن وأثره ونفعه للناس جميعاً، أما نفعه لغير المسلمين فهو دفع الشك والريب عنه، ولا أحد يعلم أهمية هذا الموضوع الا الله عز وجل لذا تفضل سبحانه بذكره في بداية سورة

معالم الإيمان / الجزء الثاني

البقرة إذ تبدأ به سورة البقرة بعد الفاتحة ومن الآيات ان نفي الريب عن القرآن جاء قبل الهداية للتقوى وفيه وجوه:

الأول: نفي الريب أمر عام ينفع الناس جميعاً المسلمين وغيرهم فهو حجة للمسلمين، وإعانة لغيرهم على قبول الآيات.

الثاني: والتفكر في إعجاز القرآن أما الهداية لنيل مراتب التقوى فهي خاصة بالمسلمين، وكأن مجيء موضوع الهداية بعد نفي الريب من عطف الخاص على العام.

مفهوم الآية

تطرد الآية الشك والوهم في اصل نزول القرآن، وفيها تويخ لأولئك الذين اتخذوا سبيل الجحود، وفي مفهومها ذم لهم لانها تقسم الناس الى قسمين:

الأول: أهل التقوى الذين سلموا بان القرآن نازل من عنده تعالى ولم يرتابوا او يشكوا في صدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: الذين ضلوا وحجبا عن أنفسهم الهداية.

ان مضامين التفخيم في اسم الاشارة ﴿ذَلِكَ﴾ ولغة التعريف في ﴿الْكِتَابِ﴾ تفيد عدم بلوغ أي كتاب الى منزلة القرآن السامية، وان الكتب السماوية الأخرى أدنى رتبة منه وتلك حقيقة يدل عليها العقل والسمع والوجدان.

كما تدعو الآية في مفهومها الى التوجه الى القرآن ونبذ ما هو مخالف له في الغايات والمقاصد، انها لغة سماوية في إكرام القرآن وتثبيت مفاهيمه وترسيخ أحكامه بين الناس.

ومفهوم الآية يدل على بقائه الى يوم القيامة رائداً وإماماً وقائداً ومنفرداً بخصوصيات تنعدم في غيره، فمن شاء ان يعرف الكتاب والحق

٥٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

والصدق والحكم الإلهي فعليه ان يتوجه الى القرآن بقلبه وجوارحه وحواسه.

وتنفي الآية عن القرآن كل قبح وضلالة لانها تخبر عن صفة الهداية التي جاءت على نحو الإطلاق والشمول لآياته ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفي مفهومها ذم لمن لا ينهل منه، فيناييع الهدى وكنوز المعرفة مدخرة في القرآن وتدعو أولي الأبواب وأرباب العقول للاقتباس والأخذ منها .
وفي الآية مسائل:

الأولى: ابتداء الآية باسم الإشارة (ذلك) لإرادة التفضيم والتعظيم من شأن الكتاب.

الثانية: وصف القرآن بانه الكتاب، وفيه دعو لأهل الكتاب للإنصات الى القرآن واخذ الأحكام منه ، إذ تفيد الألف واللام في الكتاب العهد والدلالة على انه الجامع للأحكام وأخبار السماء.

الثالثة: ترغيب الناس بالرجوع الى القرآن والصدور عنه وهو سر الله في الأرض ومائدة السماء التي انعم الله بها عليهم، وفاز بالعمل بأحكامه المسلمون دون غيرهم فاستحقوا المدح والثناء في هذه الآيات، وخصهم في سورة آل عمران بانهم خير الأمم بقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

الرابعة: دفع الشك وطرد الوهم الذي قد يتسرب الى النفس بخصوص القرآن وتنزيله، إذ جاءت الآية لتؤكد صدق نزوله من عند الله وان الذي بين أيدي المسلمين هو الكتاب الذي أنزله الله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من غير تحريف او تغيير.

الخامسة: بعث السكينة في نفوس المسلمين بان الذي يتلونه هو الكتاب المنزل، ومن الآيات ان صدق نزول القرآن لاينحصر بالإخبار الوارد في هذه الآية بل ان آيات القرآن وما فيها من الإعجاز والدلالة والكنوز والأسرار حجة وبرهان على نزولها من عند الله تعالى، فالقرآن بذاته ينفي

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٥٣

عن نفسه التحريف والوضع، ويجعل العقول تقر مذعنة بأنه نازل من عند الله تعالى.

السادسة: بيان حاجة المتقين الى الهدى، وعدم انقطاع تزود المسلمين بالمعارف والعلوم.

وفي الآية نهي عن الظن ببلوغ درجة العلم المطلق والإيمان التام، فيبقى المسلم محتاجاً الى القرآن إذ يجد فيه الهداية والرشاد والفلاح.

السابعة: مدح المسلمين ووصفهم بالمتقين لخشيتهم من الله تعالى بالسر والعلانية.

الثامنة: بيان فضل الله تعالى على المسلمين والناس جميعاً بالقرآن، وما في آياته ومضامينه من الهداية وينابيع الرشاد وأسباب الصلاح والفوز في النشاطين.

التاسعة: جاء لفظ المتقين بصيغة الجمع في إشارة الى تغطي الفضل الإلهي بالقرآن لجميع المسلمين على نحو العموم الإستغراقي.

إفاضة الآية

الآية دعوة للمسلمين لتلقي الكتاب كهبة من السماء ورحمة لأهل الأرض، فاز المسلمون بالتصديق به لتتنزل البركات على الناس ويكون واقية من حلول الهلاك والدمار والخراب .

وتبين الآية إنفراد القرآن بنفع عظيم فهو يزيد المتقين هدى وليس هو من تحصيل ما هو حاصل انما هو إرتقاء متصل في سلم المعارف الإلهية، فتظهر الآية الحاجة الى القرآن والسلامة في إتباع أحكامه وإجتنا ما ورد فيه من النواهي.

لقد جاءت الآية بذكر المتقين في إشارة مدح وثناء على المسلمين، وفيه دلالة على علو منزلة المسلمين بين الأمم ورسوخ الإيمان في قلوبهم، وظهوره على جوارحهم وجوانحهم والتقوى ذاتها من أهم مراتب الهدى،

٥٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

ومع هذا فان القرآن يأتي على نحو دائم بمصاديق من الهداية والرشاد للمسلمين على نحو الإتحاد والإنفراد، ليكونوا في علو وعزة وسمو في منازل العمل والكسب ورسوخ في الإيمان.

وهذه الآية من مصاديق رحمة الله بالناس إذ انها تخبر عما في القرآن من الهدى والرشاد وتدعوهم للتصديق به وإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ونعت المسلمين بالمتقين شاهد على تفضيلهم على الأمم الأخرى وعنوان لتفقههم في الدين وسمو منزلتهم بين الناس، والإخبار عن رضا تعالى عنهم وحبه لهم ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وليس للكافر ان يقول لماذا لم يهدن القرآن الى سواء السبيل، لأنه أعرض باختياره عن الهدى، ولم تكن عنده خشية ولاخوف من الله عزوجل، ومع هذا فان وصف القرآن بأنه هاد للمسلمين لايمنع من كونه هداية لغيرهم من الناس، فهو المائدة العلمية والإعجازية النازلة من السماء والتي تدعو الناس بكرة وعشية للتقوى والصلاح.

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية بإسم الإشارة للبعيد الذي يفيد التفخيم والإكرام والدعوة الى إجلال شأن القرآن ، ومعرفة قدسيته وما فيه من الآيات الباهرات، فالآية تؤشر وتدعو إليه، وهو يدعو ويقود المسلمين الى الجنة والمغفرة، فاسم الإشارة (ذلك) رحمة بالمسلمين، وحث لإتباع القرآن في أحكامه وسننه.

وجاءت الالف واللام في (الكتاب) للعهد في دلالة على انه الجامع للأحكام الشرعية، والمتضمن لمسائل الدنيا والآخرة وسبل النجاة فيها، والاورام والنواهي الإلهية التي تتغشى ميادين الحياة كلها.

(١) سورة التوبة ٤ .

معالم الإيمان / الجزء الثاني

ثم جاء قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لدفع الشك ، وطرده الوهم والتردد في القرآن ، وإفادة نزوله من عند الله تعالى ، وتتضمن الآية التحدي والتوبيخ للجاحدين والكافرين ، ولا بد من دلالات عقلية وشرعية تكون مصاديق لنفي الريب عن القرآن ، ونزوله من عند الله منها ما هو تنزيل من قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾^(١) . ومنها ما هو بلاغي يقهر أساطين البلاغة ، ويجعلهم صاغرين أمام الفاظ القرآن ، ومنها ما هو عقلي يجعل عقول الناس مبهورة ومتحيرة أمام آيات القرآن ومافيه من مضامين قدسية واسرار من علوم الغيب ينفرد بها من بين الكتب السماوية .

ومن الإعجاز مجئ الآية بصيغة الجملة الخبرية ، لأنها خطاب ونداء جميعاً لمفرد الشك من النفوس حول القرآن ، لأن الشك في تنزيله نوع حجاب وبرزخ دون الإنتفاع منه ومن آياته ، ان التسليم بنزول القرآن واجب عيني على كل مكلف ومكلفة .

ولذا فان طرد الشك من النفوس في تنزيله حاجة خاصة وعامة ، وجاء قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ رحمة بالمسلمين والناس جميعاً ، وجاءت خاتمة الآية لبيان صفة كريمة أخرى للقرآن وهي أنه سبيل هداية للذين يخشون الله بالغيب .

لقد أراد الله تعالى للقرآن أن يكون طريقاً للفوز في الدنيا والآخرة لمن يأتي بما يأمره الله ، ويتجنب ما ينهاه عنه ، وروي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: جماع التقوى في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ

(١) سورة البقرة ٢٣ .

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ .

وهل تفيد الآية حصر منافع وهداية القرآن بالمتقين الجواب لا، لأن أثبات شئ لا يدل على نفيه عن غيره، ففي القرآن آيات البشارة والإنذار، والوعد والوعيد، وهو مدرسة وسبيل هداية للناس جميعاً، وكونه هدى للمتقين، والإنصات لآيات القرآن، والتدبر في معانيها وما فيها من المضامين القدسية وعلوم الغيب وقصص الأمم السالفة، ولزوم الإعتبار والإتعاظ منها.

التفسير الذاتي

إبتدأت السورة بالحروف المقطعة ثم بإسم الإشارة للبعيد، وما فيه من إفادة التفضيم والتعظيم، وقيل (إن الله وعد نبيه أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ولا يخلق على كثرة الرد فلما أنزل القرآن قال هذا القرآن ذلك الكتاب)^(٢).

ولكن دلالات الآية أعم، ومن إعجاز القرآن أن تأتي بعد سورة الفاتحة الإشارة إلى القرآن بلغة الإكرام، والحث على الإصغاء إليه، والتدبر في معانيه، وإتخاذه إماماً.

والآية شهادة من عند الله بأن القرآن هو الكتاب الجامع للأحكام الشرعية، وهو الدليل السماوي الباقي بين الناس إلى يوم القيامة، لقد تفضل الله عز وجل ونفخ في آدم من روحه وعلمه الأسماء كلها، وأسكنه وحواء الجنة، ثم **أهبطهما** منها بعد غواية إبليس، فجاء القرآن حصناً للناس، وعصمة من الزلل ووسوسة إبليس لذا تصف هذه الآية القرآن بأنه هدى.

لقد جاءت آيات قرآنية أخرى ببيان ما يتضمنه القرآن وما فيه من

(١) سورة النحل ٩٠.

(٢) مجمع البيان ١/١٣٦.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

الأسرار والمنافع العظيمة ، قال تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾^(١) ، وجاء في القرآن أحسن القصص في الأمم **السالفة** ، وسنن الأنبياء ، وما لاقوه من الأذى ، وجعل الله عز وجل الكتاب فيصلاً بين الناس ، ووسيلة سماوية لمنع الخصومة والإقتتال وحجة وبرهاناً ، قال تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِيبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٢) .

لقد أراد الله عز وجل للناس الهداية والإرتقاء إلى منازل التقوى والصلاح قال تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارِكًا فَاتَّبِعُوهُ﴾^(٣) ، ومن وجوه الهداية في الكتاب أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يعلمه للمسلمين ، بتلاوته بعد تلقي الوحي ، وبتعليمهم مضامينه وما فيه من السنن والأحكام ، قال تعالى ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٤) .

وجعل الله عز وجل تلاوة الآيات باباً للثواب وإكتساب الحسنات ففي كل حرف من حروف كلماته عشر حسنات ، وتلك نعمة ينفرد بها المسلمون ، وهو من خصائص ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٥) .

أن نعت الكتاب بأنه (هدى للمتقين) دعوة للناس جميعاً لمعرفة إعجاز القرآن من خلال آثار آيات القرآن في الناس قولاً وفعلاً وإعتقاداً ، وشاهد على أن تلاوة القرآن والتدبر فيها وسيلة للصلاح ، وسبيل إلى الهدى .

(١) سورة القصص ٢ .

(٢) سورة النحل ٦٣ .

(٣) سورة الأنعام ١٥٥ .

(٤) سورة البقرة ١٥١ .

(٥) سورة آل عمران ١١٠ .

٥٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

ومن وجوه الهدى فيه ما يأتي بالواسطة أي ليس بالتلاوة وحدها، بل بالسنة النبوية التي هي بيان للقرآن، وبإقامة وتعاهد الفرائض والعبادات التي جاء بها القرآن، وسعي المسلمين على نحو العموم الإستغراقي في أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والقرآن هدى وسبيل رشاد للناس جميعاً ، قال سبحانه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(١) .

ويفيد الجمع بين الآية أعلاه والآية محل البحث، بأن هداية القرآن لا **تنحصر** بالمتقين الذين يخشون الله عز وجل بالغيب، بل تشمل الناس جميعاً، وأن القرآن واسطة مباركة لنقل الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن منازل الجحود إلى منازل التقوى، فيقود القرآن الإنسان إلى الإسلام، ويجعله ينطق بالشهادتين عند سماع آياته والتدبر في معانيها، ويأخذ بيد المسلم للإرتقاء في منازل الإيمان والتقوى، ويجعله يخاف الله بالغيب.

ومن إعجاز القرآن أن كل آية ذكر فيها القرآن تتضمن إشارة إلى منافعه في الدنيا والآخرة، ومع قلة كلمات هذه الآية فإنها تتضمن مسائل:

الأولى: توكيد صدق نزول القرآن من عند الله.

الثانية: الإخبار عن سلامته من التحريف والتغيير.

الثالثة: الشهادة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأمانة والصدق، وأنه يقوم بنقل الوحي الذي يأتيه من الله من غير تبديل أو تغيير أو تحريف.

الرابعة: القرآن هو الكتاب الجامع للأحكام الشرعية.

الخامسة: في القرآن تبيان لكل شئ ، قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

(١) سورة البقرة ١٨٤ .

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٥٩

تُبَيِّنَانَا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿١﴾.

السادسة: دعوة الناس للإسلام بالقرآن، وهو من مصاديق وعمومات قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (٢).

السابعة: حاجة الناس للقرآن مطلقة من وجوه:

الأول: الإطلاق في المواضيع فلا تنحصر في موضوع دون آخر.

الثاني: **في القرآن بيان للملل والنحل وعلى نحو الإجمال العقائدي.**

الثالث: شهادة القرآن لأهل الكتاب، ولم يكتف القرآن بالشهادة للتوراة والإنجيل ككتابين من عند الله نزلا على موسى وعيسى، بل جاء بفرض الجزية على أهل الكتاب، وتركهم على ملتهم.

الرابع: يحتاج المسلم والكتابي والكافر القرآن.

الخامس: القرآن ضياء وحكم متكامل يرسخ أقدام المسلم في منازل التقوى.

الثامنة: من خصائص القرآن أنه يهدي الناس إلى مقامات الخلود في النعيم يوم القيامة.

التاسعة: القرآن سلاح سماوي ووسيلة مباركة للأخوة بين المسلمين، ومانع من الفرقة والخصومة بينهم، قال تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (٣)، فان قيل قد حصل قتال بين فرق وجماعات من المسلمين،

والجواب من وجهين:

الأول: **إن الخطأ من أشخاص ورياسات بالإبتعاد عن القرآن**

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة النحل ١١٢٥.

(٣) سورة آل عمران ١٠٣، أنظر تفسير هذه الآية من هذا الكتاب وقد جاء جزء خاص بها.

٦٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وأحكامه.

الثاني: القرآن لا يتعد عن المسلمين وان تخصصوا وتقاتلوا.
فيبقى معهم يهديهم إلى سبل الصلاح ويدعوهم إلى مفاهيم الأخوة
الإيمانية ويجذبهم إلى سننها، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لذا لا ترى خلافاً بين المسلمين يستمر ويطول بل لا بد أن يزول
لتبقى إشراقات هذه الآية تطل على المسلمين جميعاً وإلى يوم القيامة.
وجاء لفظ (المتقين) ثلاثاً وأربعين مرة في القرآن، تبين خشيتهم من الله
وإعازتهم من الآيات، وما أعد الله عز وجل لهم من المقام الرفيع يوم
القيامة، وجاء قوله تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١)،
للإخبار بأن النفع من القرآن عام وشامل للناس جميعاً، وليس من أمة أو
أفراد إلا وينهلون من القرآن وعلومه، فهو الضياء السماوي المصاحب
للعقول والأبصار في الليل والنهار، والذخيرة والحرز المبارك في المسائل
الإبتلائية.

ومن إعجاز القرآن أن يأتي لفظ (المتقين) كأول وصف جامع في نظم
القرآن، وفيه مسائل :

الأولى: فيه حث للمسلمين والناس جميعاً لبلوغ مراتب التقوى.

الثانية: إنه دعوة للتقيد بأداب وأحكام التقوى .

الثالثة: ندب للفوز بثواب التقوى ، وما أعد الله عز وجل للمتقين من
النعيم الدائم.

وجاءت الآية التالية لبيان صفاتهم وإعانة المسلمين على التفقه في الدين
ومعرفة الواجبات، وإجتنب المحرمات.

من غايات الآية

(١) سورة آل عمران ١٣٨ .

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٦١

في الآية مسائل:

الأولى: إكرام القرآن وبيان شأنه وعظيم منزلته باعتباره الكتاب السماوي الناسخ والجامع للأحكام، وفي الإشارة بلغة التفخيم "ذلك الكتاب" حث على تعاهده وحفظه والعمل بأحكامه، ويتجلى هذا في سيرة المسلمين من أول أيام التنزيل بكتابتهم وحفظهم له، وتعلم مضامين آياته والتفقه في الدين، ولم يحدثنا التاريخ ان أمة توارثت حفظ كتابها مثل حفظ المسلمين للقرآن نصاً وكماً وموضوعاً وآيات، وفي حفظ وتعاهد القرآن تشریف للمسلمين، وهو شاهد على أنهم أفضل الأمم كما قال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، وإن كان حفظ القرآن في الأصل بفضل الله

الثانية: تعليم المسلمين حب القرآن، والعناية به، وضرورة عدم التفريط بآياته ومالها من الدلالات.

الثالثة: القرآن هو الكنز السماوي المدخر، وقد أنعم الله به على المسلمين اذ انزله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليبقى في الأرض ولا يغادرها سواء في كلماته أو أحكامه.

الرابعة: دعوة المسلمين للأخذ والإقتباس من القرآن، والإنتفاع من علومه في أمور الدين والدنيا.

التفسير

قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

انها بداية مباركة تحمل دلالات خاصة بافتتاح أعظم سور القرآن وأكبرها بهذا القانون السماوي الذي يضي مضامين قدسية على عالم

(١) سورة آل عمران ١١٠.

٦٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

التنزيل ويساهم في الترسخ الأبدي للقرآن بين أهل الأرض ، فالآية إعلان سماوي صريح بان ما بين الدفتين هو الكتاب الكامل الذي تفضل الله به دستوراً لأهل الأرض وانه هو الموجود في اللوح المحفوظ، وهو القرآن الذي بشر به الأنبياء وتطلع إلى سماع آياته وحلول زمانه أولياء الله فهو البشارة والأمل والفتح الموعود، الأمر الذي يعني الحث على التسليم والتصديق به، والعمل الدؤوب من قبل المؤمنين على تعاهده وحفظه واتباع ما فيه من الأوامر الإلهية وإجتنب المعاصي التي نهى عنها ومن غير تردد أو تلكؤ أو اثر لوجود الشك وسوء الظن.

ان التصديق القلبي والإيماني والعقائدي يشكل الركيزة الأساسية للنجاح في أي مشروع، والفلاح في أي فكرة تترجل إلى الواقع التطبيقي ولقد كان القرآن سلاح المسلمين الأول ، وآياته تخترق شغاف القلوب وتباشر وظيفتها في النفوس فتجعلها تتدبر بإمعان وجوه الإعجاز في القرآن لتنتقل بالضرورة إلى مرحلة دراسة الواقع الشخصي الذي يتناسب مع هذه الحقائق.

لقد ورد لفظ (الْكِتَابُ) بالرفع مائتين وثلاثين مرة في القرآن، ولم يرد قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الا في هذه الآية مما يدل على موضوعية هذه الآية والأسرار المملكوئية جملة في أول آيات القرآن ليبتدأ معها رحلة الثقة وعدم الشك في التنزيل ، وهو من مقومات التلاوة للزوم التسليم بنزوله من عند الله وهذا التسليم مقدمة واجبة بالذات وبالعرض لفهم معاني الآيات والتدبر في مضامينها والإمتثال لما فيها من الأوامر والنواهي.

ومع ما في إسم الإشارة من التفضيم فانه يدل على عمق علوم القرآن والحاجة الى الإجتهد في سبر أغوار آياته والغوص في بحار ألفاظه لإستخراج درره، وفيها إخبار عن عدم نزول كتاب آخر بعده.

وقد ورد في القرآن لفظ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ و ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أربع عشرة

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٦٣

مرة، اثنتين منها في خصوص القرآن إحداهما الآية موضع التفسير،
والأخرى قوله سبحانه ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأُرَبِّبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١)،
أما الإثنتا عشرة الباقية فتتعلق كلها بيوم القيامة وان والنشور حق،
فهل هناك صلة بين الأمرين خصوصاً وان القرآن نزل من عند العزيز
الحكيم وبمحكمة وإعجاز يعجز البشر عن سبر أغواره الجواب نعم،.

فكما كان قيام الساعة حقاً وحتماً فان نزول القرآن حق وصدق وانه
لابد لأهل الأرض من كتاب سماوي كامل يكون هادياً لهم وإماماً
حاضراً ذا سلطان روحي متشعب، ويمكن إعتبار الإلتقاء بين نزول القرآن
ويوم القيامة من جهة الحتم ولزوم الوقوع موضوعاً لدراسة أوجه التشابه
الأخرى بين ما هو مطلوب من العباد بخصوص الإعتقاد بيوم القيامة
والإستعداد له بالعمل الصالح، ووجوب إتخاذهم القرآن دليلاً وعيناً
وإماماً بأن العمل بأحكامه سبيل للنجاة يوم القيامة.

وفي الآية تخفيف عن الناس جميعاً باعانتهم وحثهم على إجتنب
الشك والتردد، وهذا الحث لم يكن لفظياً مجرداً بل انه مقرون بالآيات
والشواهد والإعجاز الذاتي والغيري للقرآن.

فمن حكمة الله تعالى ان يأتي الوحي بالمصاديق العقلية والشرعية التي
تؤيد حقيقة نزول القرآن من عنده، وتبدأ هذه المصاديق بالإخبار الإجمالي
عن نزوله من عند الله الذي يعني السعي لإثبات هذه الحقيقة بالتحقيق
والإستنباط وتدبر الآيات، فهذه الآية تمنع من النظر للتنزيل بعين الشك
والريب التي لا تضر الا صاحبها لأنها تجعل غشاوة ظلمانية على بصره
تحول دون رؤيته للحقائق عناداً واستكباراً .

وإنتفاء الريب في القرآن من وجوه:

١- عدم الشك في نزوله من عند الله.

(١) سورة السجدة ٢.

٦٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

- ٢- يطرد القرآن بذاته وآياته الشك والريب.
- ٣- الآية بشارة لتسليم الناس بنزول القرآن ولو بعد حين لحمل نفي الريب على الإطلاق، ولأنها جاءت بصيغة الحكم والقطع.

من فضل القرآن

لقد جاءت الآية بثلاثة أمور متداخلة ومترابطة وهي:

- الأولى: الإشارة الى القرآن بلغة التفخيم والإكرام ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ولم تأت تسمية القرآن في الآية بالقرآن، بل سمته الكتاب بالألف واللام التي تفيد العهد والحصر والتعيين لتضمن الإشارة اليه وجوهاً:
- الأول: البشارة بنزول القرآن من عند الله تعالى ، والتقدير ذلك الكتاب النازل من الله والذي بشر به الأنبياء لاريب فيه.
- الثانية: ذلك الكتاب الذي هو هدى ورحمة للمؤمنين.
- الثالثة: ذلك الكتاب الذي يدل على فضل الله تعالى على الناس بنزول ما يحتاجون اليه.

الرابعة: إنه الكتاب الذي يبقى الى يوم القيامة إماماً للناس.

الخامسة: القرآن فيه صلاح النفوس والمجتمعات.

السادسة: ذلك الكتاب الذي هو الصراط المستقيم.

السابعة: يقود القرآن الناس نحو منازل الخلود في دار النعيم.

الثامنة: ذلك الكتاب المهيم على الكتب كلها.

التاسعة: أنه الكتاب الذي يعلم اهل الكتاب انه الحق ، قال تعالى

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١).

العاشرة: القرآن هو الكتاب الذي جاءت التوراة والإنجيل بالبشارة به.

الحادية عشرة: هو الكتاب الذي يتلوه المسلمون، وتكون لمن يتلوه عشر

(١)سورة البقرة ١٤٤.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٦٥

حسنت بكل حرف منه.

الثانية عشرة: القرآن هو الخير المحض الذي تفضل الله تعالى وانزله للمسلمين.

الثالثة عشرة: انه الكتاب الذي أنزله الله تعالى على سيد الأنبياء والمرسلين.

الرابعة عشرة: انه الكتاب الذي يعرف الملائكة والناس من خلاله المنزلة الرفيعة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين الخلائق.

الخامسة عشرة: انه الكتاب الذي يتألف من سور وآيات، وكل آية معجزة.

السادسة عشرة: ذلك الكتاب الذي إدخره الله تعالى لخير أمة أخرجت للناس.

السابعة عشرة: هو الكتاب الذي قرن طاعة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم بطاعة الله تعالى ، قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

الثامنة عشرة: ذلك الكتاب الذي يتضمن الأخلاق الحميدة ، والسنن الرشيدة.

التاسعة عشرة: ذلك الكتاب الذي يؤكد عالم الآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء.

العشرون: القرآن هو الكتاب المبارك الذي يجب على الناس إتباعه قال تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾^(١).

الحادية والعشرون: ذلك الكتاب النازل من الله تعالى بواسطة جبرئيل وهو من اعظم الملائكة.

الثانية والعشرون: ذلك الكتاب الذي جعله الله تبيانا لكل شئ.

الثالثة والعشرون: القرآن هو الكتاب المعجز في كلماته وآياته.

(١) سورة الانعام ١٥٥.

٦٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الرابعة والعشرون: ذلك الكتاب الذي فيه قوانين الحكم بين الناس بالحق والعدل.

الخامسة والعشرون: ذلك الكتاب الذي يفرح بنزوله وأحكامه أهل الكتاب ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِدَوْنِ الْأَحْزَابِ مِنْ يُنْكِرُ بَعْضُهُ﴾^(١).

السادسة والعشرون: ذلك الكتاب الذي تقرن تلاوته بالخشوع والخضوع والتذلل لله تعالى.

الثامنة والعشرون: في القرآن نبأ وقصص الأمم السالفة ، قال تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾^(٢).

التاسعة والعشرون: في القرآن أخبار الوقائع والحوادث.
العشرون: ذلك الكتاب الذي يضل من إتبع غيره فلا يطلب الهدى إلا به.

الثلاثون: القرآن هو جبل الله المتين الذي جعله نعمة نازلة الى الناس جميعاً ، والطريق المستقيم الذي يهدي الى سبل الرشاد والفلاح.
الحادية والثلاثون: ذلك الكتاب الذي لا يخلق على كثرة التلاوة والعمل بأحكامه وسنته.

الثانية والثلاثون: القرآن هو مائدة السماء ، وجعله الله تعالى قريباً من الناس جميعاً ، ويقدر كل واحد منهم ذكراً أو أنثى أن ينهل منه ، ويتزود من علومه.

الثالثة والثلاثون: ذلك الكتاب الخالي من التزاحم والتعارض والتضاد.

(١) سورة الرعد ٣٦.

(٢) سورة يوسف ٣.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

الرابعة والثلاثون: ذلك الكتاب الذي يتضمن الوعد والوعيد، الوعد باللبث الدائم في النعيم والوعيد بالموث في الجحيم.

الخامسة والثلاثون: انه الكتاب الذي يفسر بعضه بعضاً ، فتجد الآيات العديدة تفسر الآية الواحدة، بما يمنع من اللبس والشك.

السادسة والثلاثون: ذلك الكتاب الذي يتضمن الوعد والوعيد، الوعد باللبث الدائم في النعيم والوعيد بالموث في الجحيم.

الخامسة والثلاثون: انه الكتاب الذي يفسر بعضه بعضاً ، فتجد الآيات العديدة تفسر الآية الواحدة، بما يمنع من اللبس والشك.

السادسة والثلاثون: ذلك الكتاب الذي بشر به الإنبياء لاريب ولاشك فيه، فليس لأحد أو أهل ملة ان ينكره.

السابعة والثلاثون: ذلك الكتاب الممتنع بذاته عن التحريف والتغيير في كلماته وتأويله، فقد نزلت كتب سماوية قبله على الأنبياء، ومع تقادم الآيات والسنين طراً عليها التحريف، الا القرآن فقد تفضل الله تعالى وجعله معصوماً من التحريف الى يوم القيامة ، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١).

الثامنة والثلاثون: ذلك الكتاب الذي لاتنقضي غرائبه، ولاتنتهي علومه.

التاسعة والثلاثون: القرآن هو الكتاب الذي تكون كل آية منه خزينة وكذا فتلاوة الآية منه فتح لخزينة من العلوم، ومدخل كريم للكسب المادي والمعنوي.

الأربعون: ذلك الكتاب الذي يتلى كل يوم في عموم الأرض، إذ يتلوه المسلمون في صلاتهم على نحو الوجوب.

الحادية والأربعون: ذلك الكتاب يتعاهده المسلمون بالتقديس والإقرار

(١) سورة الحجر ٩.

٦٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

بانه كتاب الله تعالى النازل على نبيه الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم

الثانية والأربعون: ذلك الكتاب الذي يحفظ وحدة المسلمين، ويمنع من الفرقة والتشتت او انقسامهم الى شيع ومذاهب، وان حصلت فرقة او خلاف او تباين ، فانه سرعان ما يزول ولا يبقى طويلاً.

الثالثة والأربعون: ذلك الكتاب الذي يتضمن الأحكام السماوية التي تكون فرقاناً للتمييز بين المؤمنين والكفار، قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾^(١).

الرابعة والأربعون: ذلك الكتاب الذي يكون شافعاً يوم القيامة وفي الحديث المرفوع: ما من شفيع من ملك ولا نبي ولا غيرهما أفضل من القرآن^(٢).

الخامسة والأربعون: هو الكتاب الذي يتفكر بواسطته الناس في أمور الدين والدنيا ، قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣)، فبالقرآن يجعل الناس الغلبة للعقل في الاختيار والفعل، ويكون سبباً لتنمية المدارك العلمية، قال تعالى ﴿كِتَابٌ فَضَّلْتُمُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٤).

السادسة والأربعون: لقد نزلت كتب سماوية عديدة، ويطلق عليها

(١) سورة البقرة ٢٦ .

(٢) شرح نهج البلاغة ١٠/٢٣ .

(٣) سورة النحل ٤٢

(٤) سورة فصلت ٣ .

معالم الإيمان / الجزء الثاني

صحف وكتب والمفرد كتاب، ولم يطلق على كتاب إسم "كلام الله" الا القرآن ، قال تعالى ﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾^(١)، نعم ورد في موسى عليه السلام قوله تعالى ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾^(٢)، والمراد من لفظ "كلامي" تكليم الله لموسى عليه السلام بقريئة رسالاتي أي انه رسول الله من بين الناس من أهل زمانه، والافان عدد الرسل هم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً.

السابعة والأربعون: ذلك الكتاب الذي له أسماء توقيفية عديدة من عند الله، وكل إسم له معان ومضامين قدسية ، ومن أسمائه القرآن، وبه يعرف عند أمم الأرض جميعاً، وهو أم أسماء القرآن ، وورد ذكره في القرآن نحو سبعين مرة، كما ان لفظ القرآن يطلق على الصلاة، لوجوب التلاوة فيها، ويطلق على سورة الفاتحة تشريفاً لها، ويطلق على الآية ، وجزء الآية من القرآن.

ومن أسمائه الفرقان ، وقد تقدمت الإشارة اليه في هذا الفصل، ومن أسمائه في القرآن "الذكر" و"الروح" قال تعالى ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا أَمْرًا﴾^(٣)، وسيأتي في الجزء السابع عشر باب خاص في فلسفة أسماء القرآن.

الثامنة والأربعون: ذلك الكتاب الذي يتضمن الأحكام التكليفية الخمسة، الوجوب والندب، والإباحة ، والكراهة، والحرمة.

التاسعة والأربعون: ذلك الكتاب الذي يترشح الفضل الإلهي من كلماته وآياته وسوره ليتغشى ميادين الحياة كلها.

(١) سورة التوبة ٦.

(٢) سورة الأعراف ١٤٤.

(٣) سورة الشورى ٥٢.

٧٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الخمسون: ذلك الكتاب الذي لسوره وآياته فضل بلحاظ الجزئية من القرآن، وبلحاظ ما لها من الخصوصية والمعاني القدسية.
الحادية والخمسون: ذلك الكتاب الذي فيه شفاء الأمراض البدنية والنفسية، وهو السبب لزيادة مرض الكفار، قال تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾^(١).

الثانية والخمسون: القرآن هو ذلك الكتاب الذي يحتاجه الإنسان ذكراً أو أنثى عند دخوله القبر وفي عالم البرزخ ففي سورة الملك ورد عن ابن مسعود وعن الإمام الباقر: انها هي المانعة من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، ومن قرأها في ليلة فقد أكثر وأطاب^(٢).

الثالثة والخمسون: ذلك الكتاب الموافق للفطرة الإنسانية والتي تتصف بصبغة الإيمان.

الرابعة والخمسون: ذلك الكتاب الذي يكون علة إنتشار الإسلام في ربوع الأرض، ومختلف الأمصار.

الخامسة والخمسون: ذلك الكتاب الذي يتضمن مسائل الخلق والبعث، والجنة والنار، وبيان الصفات التي تجعل الإنسان ذكراً أو أنثى من أهل الجنة، أو الصفات التي تجعله من أهل النار ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنَّا بَيْنَةً وَيُحْيَا مَنْ حَيَّ عَنَّا بَيْنَةً﴾^(٣).

السادسة والخمسون: ذلك الكتاب الذي يلبس المعقول لباس المحسوس من غير ان يخرجه عن لغة الإحتجاج والبرهان.

السابعة والخمسون: ذلك الكتاب الذي يتضمن الشريعة الناسخة لما

(١) سورة البقرة ١٠.

(٢) مجمع البيان ٣٥/٩

(٣) سورة الأنفال ٤٢.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٧١

قبلها، وليس من كتاب بعده ناسخ له.

الثامنة والخمسون: لقد جعل الله تعالى الإنسان كائناً محتاجاً، تلازمه الحاجة في ليله ونهاره، وجعله القرآن سلاحاً لقضاء حوائج الدنيا والآخرة، ويكون له سلطان على الأركان والجوارح، ويمنع من التيه والضلالة.

التاسعة والخمسون: تلاوة القرآن سؤال وتوسل وتضرع الى الله تعالى، سواء كانت التلاوة في الصلاة أو في غيرها، وفي الحديث القدسي: من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي مسألتي.

الستون: تلاوة القرآن سياحة في عالم الملكوت، وإرتقاء في المعارف الإلهية.

الحادية والستون: لقد جعل الله تعالى القرآن خزينة من خزائن علم الغيب، تستقرأ منه علوم كثيرة، وتستبين بواسطته آيات من أحوال الأمم السابقة واللاحقة، والوقائع والحوادث، وهو زاد العالم وعدة المؤرخ، وسلاح المتكلم والفقيه، والبرزخ دون إستحواذ الأساطير والخرافات على الناس وفي المنتديات، وهذه البرزخية وسيلة لجذب الناس للإيمان وممانع من إنشغالهم بغير ذكر الله، وإنصراف أذهانهم الى الأوهام وما ليس له أصل.

الثانية والستون: كل آية من آيات القرآن روضة من رياض الجنة، وبستان مملوء بالأشجار المثمرة ويتصف ثمرها بالتنوع والحسن وطيب النكهة لدى القارئ والسامع، ويغيب طيب ثمار الدنيا بعد أكلها، أما ثمار القرآن فهي باقية في الدنيا والآخرة، وتلك خصوصية فاز بها المسلمون، وهي من الشواهد على تفضيلهم وكونهم خير أمة أخرجت للناس.

الثالثة والستون: من فضل القرآن انه داع سماوي الى التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونصرته فقد بعثه الله تعالى بين قوم مشركين يعبدون الأوثان، فكان القرآن ظهيراً ونصيراً له، ومحامياً عنه، لا يكف عن الدعوة اليه، والتحذير والإنذار من الجحود بنبوته، ومن الشواهد هذه الآية والتي قبلها

٧٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

والتي بعدها.

ومن معاني الحروف المقطعة التي تبدأ بها هذه السورة انها تسكيت للكفار، ومانع من صخبهم وضجيجهم عند تلاوة الآيات القرآنية.

الرابعة والستون: القرآن برهان للذي يحتج به، وحجة على الذي يجحد بمبادئ التوحيد والنبوة، وهو الحق الذي يدفع المغالطات، ويفضح الشبهات الباطلة.

الخامسة والستون: لقد أراد الله تعالى للقرآن ان يكون سفيراً له عند خلقه.

وتنفرد سفارة القرآن بخصوصيات لا توجد في غيره من الكتب السماوية، ومن الإعجاز في سفارته انه يصل الى كل إنسان، ويترك باب قلبه، وينفذ الى جوانحه، كما انه بإمكان أي إنسان ان يصل الى السفير الإلهي ويتزود منه، فليس من حاجب بين الله تعالى وبين خلقه، إذ جعل الله القرآن سفيراً ينهلون من علومه، ويتزودون من كنوزه ويتخذونه زاداً في الدنيا والآخرة.

السادسة والستون: القرآن ثروة وغنى، ولا ينحصر غناه ومعاني الثروة فيه بالأموال الروحية وغنى النفس، بل هو مصدر للرزق الكريم، وجلب المنافع، ودرء المفاسد ﴿وَمَنْ يُقِمْ لِلَّهِ لُحْمًا يُخْرَجًا * وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(١).

وجاءت هذه الآية بتسمية القرآن بالكتاب، ورد هذا الإسم للتوراة قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾^(٢)، ولكن جاءت آية أخرى بوصف التوراة بوصفين:

(١) سورة الطلاق ٢-٣.

(٢) سورة المؤمنون ٤٩

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٧٣

الأول: إنه كتاب نازل من قبل.

الثاني: نسبة وإضافة التوراة ككتاب سماوي الى موسى عليه السلام قال تعالى ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾^(١)، للإشارة الى النسخ في في الكتاب إسماً ومسمى ، وان القرآن ناسخ لما قبله من الكتب السماوية، فهو آخر الكتب السماوية نزولاً .

وجاء لفظ الكتاب وإرادة القرآن معروفاً بالألف واللام التي تفيد العهد فتقدير الآية ان هذا الكتاب الموعود والذي لا يأتي بعده كتاب، وهو الجامع لمضامين الكتب السماوية، والكتاب هو المكتوب والجامع لمسائل متحدة في الجنس مختلفة في النوع، وبين الكتاب والمصحف عموم وخصوص مطلق، فقد يكون الكتاب ورقة واحدة، وقد يكون أوراقاً متعددة، وقد يكون مجموعاً بين دفتين، أما المصحف فلا يكون الا بين دفتين.

والقرآن كتاب مجموع بين دفتين، فيصدق عليه إسم المصحف، وقد يكون الكتاب مصدراً بمعنى الكتابة، تقول كتبت كتاباً، وعلمته الكتاب، قال تعالى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾^(٢)، وبينما يفيد الكتاب الكتابة وانه مكتوب، فلا يفيد الدفتر هذا المعنى، لأن الدفتر قد يكون بياضاً، لم يكتب فيه شيء وسمي القرآن بالكتاب لوجوه منها:

الأول: لأنه آخر الكتب السماوية نزولاً.

الثاني: الكتاب هو الكتاب الذي يحفظه الله تعالى من التحريف

والتغيير.

الثالث: القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ.

الرابع: لأن آياته تكتب عند تنزيلها، وقد أمر النبي محمد صلى الله عليه

(١) سورة الأحقاف ١٢.

(٢) سورة الأنعام ٧.

٧٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وأله وسلم الصحابة بكتابتته، وقد إتخذ صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً يكتبون ما أنزل من القرآن.

الخامس: حفظ المسلمين للقرآن في صدورهم، وكأنه مكتوب ومنقوش فيها، وقد ورد وصف المسلمين في الإنجيل بأن أناجيلهم في صدورهم^(١).

السادس: تأتي الكتابة بمعنى اللزوم والوجوب، لوجوب ما فيه من الواجبات، وهي كل فعل أو ترك تعلق به البعث الأكيد.

لقد جاءت الأحكام التكليفية في القرآن ليكون القانون الشامل للموضوعات وما يتعلق بها من الأحكام.

السابع: في تسمية القرآن ب"الكتاب" بشارة ووعد كريم ببقاء آيات وأحكام القرآن الى يوم القيامة.

الثامن: فيه دعوة للإستغناء والإكتفاء بالقرآن وآياته، ومضامينه القدسية.

التاسع: في تسمية القرآن بالكتاب ، حث للمسلمين على اللجوء الى القرآن في الشدة والرخاء.

قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

أي في القرآن الرشاد إلى النجاة في الدارين والفوز بجنان الخلد ثواباً وجزاءً لأنه عنوان الإلتزام بمناهج الطاعة لله عز وجل.

وقد يطرح سؤال في المقام وهو لماذا خص الله المتقين بالهداية في الآية الكريمة، ان قراءة في آيات القرآن تظهر أن القرآن هدى لغير المتقين

للمسلمين والناس جميعاً فمثلاً ورد في أول سورة النمل قوله تعالى ﴿طَس

تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)،

(١) قصص الأنبياء ٢/١٢٨.

(٢) سورة النمل ١ - ٢.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

وأن القرآن هدى للمسلمين جميعاً وباب رحمة لهم وسبيل صلاح لعامتهم
والقرآن رحمة من عند الله في إعجازه واحكامه وسننه وتأويله، وسبيل
للهداية والسلامة في النشاطين، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ﴾^(١).

وقد تكون الهداية سبيلاً لنيل مرتبة التقوى وطريقاً كريماً لخلق
الإستعداد لتقبل الهداية ذاتها، وفي التنزيل ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ
مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

والظاهر ان موضوع الهدى في القرآن من الكليات المشككة وله مراتب
متفاوتة يستطيع كل مسلم أن يجد فيه ضالته ويأخذ حاجته ليساهم القرآن
في إرتقائه الى درجة أعلى في سلم الإيمان والتقوى.
وللهدى وجوه متعددة منها ما يتعلق بالنفس والإعتقاد ، ومنها ما
يتعلق بسبل الحق والرشاد في أنماط السلوك، ومنها ما يتعلق بالموضوع
ونوع السبيل.

ويمكن أن يكون هناك تقسيم آخر للهدى من جهة السبب والعلة، فتارة
يكون الإهتمام بفضلته تعالى ومشيئته سواء كان بتيسير الموضوع أو بإرشاد
العبد نحو المطلوب والدلالة الموصلة إلى البغية، وتارة يكون باختيار العبد
بما جعل الله عنده من العقل والقدرة على التمييز في دار الإمتحان
والإختبار، وكلا الأمرين يجتمعان في القرآن باعتباره رحمة إلهية جعلها
الله في الوقت نفسه حجة وموعظة وبرهاناً.

والتقوى خشية الله عز وجل والمبادرة إلى طاعته وإجتنابه معصيته
وتعني في جوهرها إستحضار ذكره تعالى عند كل فعل وفي كل آن من

(١) سورة التوبة ٣٣.

(٢) سورة الزمر ٥٧.

٧٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الزمان وليكون وقاية من السيئات وحرزاً من الذنوب وجزء من وظيفة العبودية وتجسيدا عملياً للإيمان.

لذا ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: "الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسم في الناس شيء اقل من اليقين"^(١).

ويفسر هذا الحديث جانباً من الآية الكريمة وهو أن المتقين محتاجون إلى إتصال الهدى والرشاد للإرتقاء إلى منازل اليقين ورسوخ ملكة البصيرة الراسخة وتتجلى معاني هذه الحاجة بالصدور عن القرآن وأحكامه.

والتقوى مقام رفيع يرتقي اليه من جعل الدنيا دار اقتناء للصالحات ومناسبة لفعل للخيرات بسعي دؤوب في مرضاة الله، لذا ورد عن الإمام علي عليه السلام انه قال: "التقوى رأس الأخلاق"، فالتقوى مدرسة جامعة في مكارم الأخلاق، ووسيلة مباركة في الوقاية من غضب الرحمن وعنصر أمان لصاحبها وللناس اذ يأمنون جانبه ولا ينالهم منه مكروه ويكون أسوة لهم.

انها باب سداد وطريق صلاح للمجتمعات وسلامة من رق الشهوات وتبعات الذنوب ومن مطلق السيئات، وبالتقوى تدرك الآمال الرشيدة بالإضافة إلى أنها عز من غير عشيرة وتمنح صاحبها هيبة بين الناس وجاهاً ووقاراً، والتقوى صفة ملازمة لأولياء الله فكانت رداءً لهم كما أن إشعاعاتها تنطلق من سيرتهم وأفعالهم المحمودة.

ومن بديع ما وصفت به التقوى وأهلها بصورة جامعة متكاملة ما جاء عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام استجابة لسؤال أحد أصحابه يقال له همام وكان رجلاً عابداً وبعد أن عزم^(٢) عليه بوصف المتقين، وقال

(١) الكافي ٥١/٢.

(٢) يقال: عزمتم عزمًا وعزيمة إذا أردت فعله وقطعت عليه.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٧٧

ﷺ بعد حمد الله والثناء عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وآله وذكر
عظيم إحسانه تعالى قال عليه السلام:

"فالمتمتقون فيها^(١) هم أهل الفضائل، منطلقهم الصواب، وملبسهم
الاقتصاد^(٢)، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم،
ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء
كالتى نزلت من الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقر أرواحهم
في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب، عظم
الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها فهم
فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون، قلوبهم محزونة،
وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة".

ان التقوى عبارة عن المجاهدة في الله واكراه النفس على اختيار الصبر
الحيلولة بينها وبين الميل إلى زينة الدنيا ومباهجها، الأمر الذي يستلزم
حضور الهدى لخلق هذه الملكة في النفس ولتعاهدتها ومنع النفس من الملل
والكسل والقنوط والركون إلى الدنيا وما فيها من الشهوات واللذات.

ان الاستزادة من المعارف الإلهية، والتوجه إلى مناهل ووردها وطرق
كسبها يجعل المؤمن يرتقي في منازل التقوى ويضع أقدامه في مقامات
اليقين، ان قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بيان لحاجة المتقين وأولياء
الله إلى الهدى، لذا تفضل سبحانه بالقرآن ليهتدي المسلمون بآياته
ويستتروا بأحكامه، فالآية تؤكد عدم إستغناء المؤمنين - أفراداً وجماعات
- عن كتاب منزل من السماء يتضمن مسالك الهدى في أعلى مراتبه وأدق
تفاصيله وأحسن مواعظه ودروسه، فكان القرآن تلك النعمة المتجددة
والمعجزة الخالدة والسبيل الأوحى نحو مرضاة الله.

(١) أي في الدنيا.

(٢) لا يأخذون من متاع الدنيا إلا بقدر حاجتهم.

٧٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

والناس بلحاظ الهداية على أقسام:

- ١- المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله بقلوبهم وجوانحهم.
- ٢- المسلمون الذين نطقوا بالشهادتين.
- ٣- أهل الكتاب من الذين نبذوا الأنداد، ولكنهم لم يؤمنوا بالرسالة الخاتمة وما في القرآن من أحكام.
- ٤- أهل الشرك والضلالة.

وقد خصت الآية القسم الأول أعلاه واخبرت بان القرآن هدى لهم ولكنه لا يعني حصر الهداية بهم لأن اثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره فالقرآن هاد للمسلمين جميعاً وهو دستور عملهم وسبيل رشادهم، كما انه هاد للناس جميعاً مباشرة وبالواسطة كما لو اتبع الناس المسلمين في سمتهم وأخذوا الحكمة منهم ولو على نحو الموجبة الجزئية . والهداية من الكلبي المشكك ولها مراتب متفاوتة ، والكفار والمشركون وان تعلموا من القرآن والمسلمين الا انه لا يصدق على تعلمهم هداية او انهم مهتدون، فهذا التعلم حجة عليهم ولم يخرجهم من ظلمات الضلالة ليس لعدم المقتضي بل لوجود المانع وهو إصرارهم وعنادهم وجحودهم، ومع هذا فان الآية ترغيب بالتقوى لعامة الناس ودعوة للخشية منه سبحانه وإجتناّب معاصيه.

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ الآية ٣

الإعراب واللغة

قاعدة نحوية جديدة

الذين: اسم موصول في موضع جر باعتباره صفة المتقين، وقيل في إعرابه وجوه أخرى، كالنصب على المدح أي اعني الذين يؤمنون، والرفع على الابتداء فيكون ﴿أُولَئِكَ﴾: خبره، و﴿يُؤْمِنُونَ﴾: صلته.

ويمكن ان نؤسس قاعدة نحوية في اعراب القرآن وهي لو دار الأمر في تكامل اعراب الجملة بين ذات الآية وبين الجمع بينها وبين الآية التالية، فالأصح الأول.

و(يؤمنون) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون لانه من الافعال الخمسة والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية لاجل لها من الإعراب لإنها صلة الموصول.

بالغيب: جار ومجرور، ويطعمون: الواو حرف عطف، يطعمون معطوف على يؤمنون، والواو في يؤمنون وكذا في يطعمون: فاعل، الصلاة: مفعول به.

قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

ومما: مركبة من (من) وهو حرف جر أدغمت نونه في الميم، و(ما): اسم موصول في محل جر، ورزقناهم: جملة تتكون من فعل وفاعل ومفعول به، ينفقون: فعل مضارع مرفوع معطوف على يطعمون.

٨٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

والإيمان لغة: التصديق المطلق والتسليم الخالي من الشك ومنه قوله عليه السلام: (من صام إيماناً واحتساباً...) الحديث أي تصديقاً بوعد الله تعالى وانقياداً لأمره سبحانه.

واقامة الصلاة: اداؤها والإتيان بها صحيحة وبشرائها وأركانها مع تعاهدها والمواظبة عليها بأوقاتها وحفظها من التحريف، وعبر عن أدائها بالإقامة لاشتغالها على القيام خاصة وانه ركن فيها ، ولذا ورد فصل خاص في الإقامة للصلاة وهو (قد قامت الصلاة).

وقيل أنها مأخوذة من إقامة السوق إذا أنفقت فيكون معنى أقمتها: جعلتها نافقة أي مرغوب فيها في مقابل الكاسد المرغوب عنه، وقد تكون مأخوذة من القيام بالأمر أي الجد فيه وعدم التواني أو القعود عن أدائه. والصلاة عمل عبادي وفرض يومي دائم أوجبه الله على المسلمين بأركان مخصوصة وأجزاء واجبة كالقيام والركوع والسجود، والجمع صلوات واختلف في اشتقاق كلمة الصلاة على اقوال:

- ١- اصلها في اللغة الدعاء وهو المشهور فسميت ببعض أجزائها.
- ٢- اصلها التعظيم ، وسميت الصلاة لما فيها من تعظيم الباري عز وجل وتقديسه.
- ٣- قال الزجاج الأصل في الصلاة اللزوم يقال: قد صلي واصطلى إذا الزم، واليه مال الأزهري.
- ٤- قال بعض أهل اللغة: أنها من الصلّوين وهما مكتنفا الذنب من الناقة وغيرها وأول موصل الفخذين من الإنسان، والصلّا من الإنسان وسط الظهر، وقيل هو ما انحدر من الوركين، وربما عني به العظم الذي عليه الأليان لأن الإنسان يحرك صلويه في الركوع والسجود.
- ٥- قال ابو عبيدة: اصل هذا في الخيل من السابق الأول، والمصلي الثاني، سمي به لأنه يأتي ورأسه عند صلا الأول.
- ٦- إختيارها من الصلي وهي النار كما في قولهم، صليت العصا

معالم الإيمان / الجزء الثاني ^{٨١}

إذا قومتها بالصلي، لما في الصلاة من التقويم للأخلاق.

٧- قال ابن عباس: المصلي في كلام العرب السابق المتقدم وهو مشبه بالمصلي من الخيل.

٨- وعن ابن فارس: هي من صليت العود بالنار إذا ليتها^(١)، لأن المصلي يلين بالخشوع لله ساعة أداء الصلاة، والصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة دعاء واستغفار وترحم وكل داع مُصَلِّ.

والرزق في اللغة: الحظ والنصيب، وهو بالكسر اسم، واختلف الاشاعرة والمعتزلة في اصطلاح الرزق ومتعلقه، فقال الاشاعرة بأنه كل ما ينتفع به بغض النظر عن حلية طريق كسبه أو حرمة، ولكن المعتزلة رفضوا تسمية الحرام بالرزق لعدم صلاحيته لغة وشرعاً، ولأنه لا يجوز إسناده إلى الله تعالى لتنزهه عن القبائح، ولكل من الفريقين دليل.

فالاشاعرة تمسكوا بما ذكره صفوان بن أمية من جواب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر بن قرة الذي قال: "يا رسول الله أن الله كتب عليّ الشقوة فلا أراني أرزق إلا من دفي بكفي أتأذن لي في الغناء، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد كلام: يا عدو الله أن الله قد رزقك رزقاً طيباً فاخترت ما حرم الله عليك من الرزق مكان ما أحل الله لك من حلاله".

وطعن المعتزلة في الحديث سنداً ودلالة وقالوا أن الله أطلق عنوان الرزق على الحرام من باب المشاكلة، ثم انهم تمسكوا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أن الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً، بل واحتجوا بنفس الحديث لما فيه من الحرمة والمنع من الحرام. واحتج الأشاعرة أيضاً بمعنى الرزق في اللغة وهو الحظ والنصيب الذي

يفيد الإطلاق من غير حصر بالحلال ويقوله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي

(١) انظر لسان العرب ١٤ / ٤٦٥.

٨٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴿١﴾ وان الإنسان قد يعيش عمره كله من اكل الحرام، والكل قابل للمناقشة، والقائل بان الرزق هو الإنتفاع من الحلال احتج بآيات منها قوله تعالى في هذه الآية ﴿ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ .

والأرزاق قسمان منها ما يخص الأبدان كالأقوات وتسمى ظاهرة، ومنها باطنة تخص القلوب كالمعارف ومكارم الأخلاق والعلوم، كما يمكن تقسيمها الى المادي والمعنوي.

واصل الإنفاق: الإخراج، ويقال: نفقت الدابة من باب قعد تنفق نفوقاً، أي هلكت وخرجت روحها، ونفق الزاد نفقاً أي نفذ ولم يبق منه شيء.

والغيب: ما خفي عن العباد وغاب عن الإبصار وعجز الحس عن إدراكه وان كان قريباً، وفي الغيب ذكرت عدة أقوال أهمها:

١- ما اخبر به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من وقائع الحاضر والمستقبل وأحوال الآخرة ونحوها.

٢- ما جاء من عند الله، حكى عن ابن عباس (٢).

٣- مطلق ما خفي عن الناس معرفته من أمر الجنة والنار والبعث، وما كتب لهم من الرزق وما ينتظرهم من الأعمال في مستقبل الأيام، نسب هذا القول إلى جماعة من الصحابة مثل ابن مسعود، وقال الشيخ الطوسي: وهو الأولى لأنه عام (٣).

٤- سائر ما لا يدرك بحاسة البصر ويمكن معرفته بدلائل خاصة وبراهين يهتدي اليها العقل.

(١) سورة هود ٦.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ١ / ٥٦.

(٣) التبيان في تفسير القرآن ١ / ٥٦.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٨٣

٥- لقد ورد لفظ (الغيب) وبلغه المفرد في القرآن تسعاً وأربعين مرة منها ما يتعلق بالأحوال التي ذكرت أعلاه من مصاديق الغيب ووجوهه، وشطر من علوم الغيب اختص الله نفسه بها ولم يطلع عليه أحد من الخلائق، قال تعالى ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (١).

انه أمر يجسد عظم مقام الربوبية وتنزيه الباري والإقرار بعجز الخلائق عن إدراك كنه صفاته تعالى وتخلفهم مجتمعين عن الإحاطة بعلمه غير المتناهي، الأمر الذي يملئ على المؤمنين وظيفة التصديق المطلق لما جاء به الأنبياء من عند الله وما تضمنته الكتب السماوية النازلة، فكان القرآن البغية المقصودة والسبيل الأوحى لظهور هذه الوظيفة على صعيد الواقع والإعتقاد بصيغ التمام والكمال لما جعل فيه سبحانه من الأسرار ومضامين الحكمة والبيان.

ولو اشتغل رجال الفكر في كل جيل من المسلمين بتفسير القرآن بانماط وصيغ جديدة ورداء يتناسب مع روح العصر والزمان الذي هم فيه وباستثمار علوم من سبقهم في أبواب التفسير والتأويل ووجوه المعرفة الإلهية لكانوا عاجزين عن إدراك الأسرار الغيبية التي تتضمنها آيات القرآن وآفاق تأويلها، ولكن ثبوت تلك الحقيقة واقعاً وبعد عناء مثمر لا يخلو من منافع عظيمة ومتشعبة، وفيه توكيد لإعجاز القرآن وتخلف العقول مجتمعة ومنفردة عن إدراك كنه عظمتها.

قانون الإتفاق

قيل أن الكلمة في الأصل آرامية من صلا ومعناها ركع وانحنى، ووردت في التوراة ودخلت العربية عن طريق أهل الكتاب.

(١) سورة النمل ٥٦.

٨٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

ولكن الكلمة عربية بلحاظ الإشتقاق ومناسبته للموضوع، ويمكن ان نؤسس قانوناً في وضع اللغات وتداخلها اسمه (قانون الإتفاق) في علم اللغة واللسان اذ لا يمنع من توافق اكثر من لغة على لفظ واحد وانطباقه على معنى معين او معاني متقاربة من وجوه:

الأول: كان في الأصل عند هذه اللغة والأمة وانتقل الى الأخرى او بالعكس.

الثاني: حصل إتفاقاً ومن غير قصد، فكل أمة اختارت اللفظ المخصوص لذات المعنى من غير علم بإختيار الأمة الأخرى له.

الثالث: تم الالتفاء بالإختيار بفضل من الله، خصوصاً في الإسماء والمواضيع العبادية، والصلاة عمود الدين.

الرابع: تم الاتحاد في لفظ الصلاة بوحى من الله الى انبيائه.

الخامس: انه من عمومات قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(١).

وان اللغات تفرعت من آدم فانه يصدق عليه انه جزء من لغة كل امة وقوم، وليس هناك قاعدة شرعية او عقلية او عرفية تفيد عدم امكان اتحاد اللفظ والمعنى في لغتين او اكثر كما انه قد يحصل اتفاقاً وصدفة بالإضافة الى تعذر الدليل المركب في المقام أي الذي يثبت وجود كلمة معينة في لغة وينفي وجودها في لغة اخرى في نفس الزمان المتقدم.

وعلى فرض ثبوته فان اختيار قوم للفظ معين في لغتهم لا يعني حرمة وعدم جواز اختيار الغير ووجوده في لغة اخرى مع صدق الإبتداع فيه ايضاً على اللغة التي تختاره عقب اختيار الأولى، بل ان طبيعة الخلقة الإنسانية ونطق اللسان ومحدودية الالفاظ تساعد على احتمال اشتراك اكثر من لغة في لفظ واحد وعليه شواهد كثيرة في الجمع بين اللغات حتى مع انتفاء الإلتقاء والتقارب بينها في فترات نشأة استقرار اللغة.

(١) سورة البقرة ٣١ .

في سياق الآيات

بعد ان ذكرت الآية السابقة الوظائف السامية للكتاب السماوي جاءت هذه الآية لبيان صفات المتقين الذين ينتفعون من القرآن ويستثمرون نزوله، ونظم الآيات إعجاز مستقل لمنع اللبس والجهل، ودفع الوهم والغرر، وليبان سبل الجنة بلغة يفهمها كل إنسان لقبح العقاب بلا بيان.

بعد ان بينت الآية السابقة ان هذا الكتاب الذي بين الدفتين هو القرآن الجامع للأحكام النازل من عند الله وانه هدى ورشاد للذين يخشون الله عزوجل ويخافون من عقابه جاءت هذه الآية بيان ثلاث صفات من صفات المتقين وهي:

الأولى: الإيمان بالغيب وهو خلاف الحضور، ويدل في مفهومه على الإيمان بالآيات الحسية والعقلية الظاهرة.

الثانية: إتيان الصلاة والمواظبة عليها.

الثالثة: دفع الزكاة، وإعانة المحتاجين.

وتتعلق واحدة من هذه الصفات بالعقائد، واثنان بعالم الافعال وفروع الدين، لتأتي الآية بثلاث صفات أخرى للمتقين وكلها في العقائد وخصائص الإيمان، وفيه فصل وتمييز بين الناس بلحاظ التقوى وعدمها، وليس من برزخ بين الفريقين، فلا بد لأهل الإيمان والتقوى ان يتصفوا بالصفات الواردة في هذه الآية والآية التالية لينالوا مرتبة التقوى ويكونوا من أهل الفلاح والصلاح.

إعجاز الآية

بدأت الآية بالإيمان بالغيب كصفة للمتقين، لأن النزول من مصاديق الغيب، والإيمان بالغيب والوعد والوعيد، وحتمية يوم القيامة والجنة والنار من ضروريات الدين، ان تصدر صفات المتقين لآيات القرآن يدل

٨٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

على موضوعيتها في عالم المبادئ والأفعال ومجيتها واضحة بينة نوع إعجاز لما فيه من التسهيل والتيسير في مسالك الهدى والترتيب في أفراد الآيات وتقديم الإيمان بالغيب مدرسة قرآنية مستقلة .

ومن أسرار هذه الآية التداخل بين أطرافها الثلاثة فالمراد من الغيب الإيمان بآيات الله والإقرار بالبعث واليوم الآخر والحساب والجزاء، ويتجلى الإيمان بالغيب باداء الصلاة لأنها عمود الدين، وشاهد على إيمان المتقين بالله تعالى وتصديقهم بالأنبياء وإطاعتهم للأوامر الإلهية فجاءت هذه الآية بصيغة الجملة الخبرية ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾

وقد جاءت آيات عديدة بصيغة الجملة الإنشائية (واقموا الصلاة) وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(١)، وفي الآية إشارة الى اجتناب المسلمين الفواحش والمنكر لقوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٢).

ويمكن تسمية هذه الآية بآية (يؤمنون بالغيب) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية .

الآية سلاح

تعتبر الآية مدرسة في المعارف الإلهية، ورسالة تأديبية، وضيء الى سبل الرشاد وأسباب الهداية، وفيها بيان لصفات المتقين للحث عليها والدعوة الى التلبس بها كملكة مستقرة ظاهرة على الجوانح وفي السلوك النوعي والشخصي .

(١) سورة البقرة ٢٥٤ .

(٢) سورة العنكبوت ٤٥ .

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٨٧

وتبين الآية موضوعية الإيمان بما خفي عن الحواس مما لم يتضح ظاهراً للناس لما فيه من الإقرار بضعف وعجز الإنسان عن الإحاطة بالكون والخلائق، وهذا العجز من وجوه العبودية لله تعالى، فمن خصائص العباد التسليم بالحاجة الى الله تعالى ورحمته الواسعة. وتؤكد الآية على ان الصلاة والزكاة ليسا فرضين في العبادة فحسب بل هما سلاح بيد المسلمين في الدنيا والآخرة، اما في الدنيا فانهما وسيلة لتثبيت الإيمان في النفوس، والتجدد اليومي لمعاني الأخوة بين المسلمين، وحرز من إرتكاب السيئات، وواقية من مفاهيم الشك والريب، ودعوة متصلة للناس لدخول الإسلام، واما في الآخرة فانهما باب لنيل المغفرة والفوز بالمراتب العالية في الجنة العالية.

الآية لطف

ينحصر علم الغيب بالله تعالى، ومن لطفه تعالى ان يَمُن على الأنبياء بالأصالة والمسلمين بواسطتهم بشرط من علم الغيب قال تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ويأتي ايمان المسلمين بالغيب بالمعنى الأعم، فالألف واللام في قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ تفيد الجنس والإستغراق وليس العهد السابق وإرادة ما أخبر الله عز وجل به أنبياءه ، وما نزل عنه في الكتب السماوية، فالمسلمون يؤمنون بعلوم وأسرار الغيب ويفتخرون بإقرارهم بان الله عز وجل أحاط بكل شيء علماً.

مفهوم الآية

يعتبر القرآن مدرسة الأجيال في شتى العلوم وأبواب المعرفة وهو المؤدب المصاحب للناس على نحو العموم المجموعي والإستغراقي والشخصي.

ان ذكر الآية لصفات المتقين دعوة لتجليها على الجوارح وفي الأعمال

٨٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وهي عون على معرفتها وتحديدتها، وفيها منع من الإرباك والخلط وتداخل العناوين والإحباط.

وتعتبر الآية جامعة في كيفية منح الألقاب وتحديد الدرجات ومنازل الأفراد يجعل التقوى هي المدار والملاك، كما انها في مفهومها تنهى عن المدح والإطراء ومنح الالقاب بغير حق وتحذر من الابتعاد عن مفاهيم التقوى، وفي الخبر عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: "ان الله يغضب اذا مدح الفاسق"^(١).

وتؤسس الآية ملازمة بين التقوى والإحسان فمن صفات المتقين الإنفاق في سبيل الله وإعانة الضعفاء، ليكون الإنفاق في سبيله تعالى مفهوماً ثابتاً في العقيدة الإسلامية، وشعاراً للتقوى، وسجية راسخة عند كل مؤمن، ولغة الإطلاق الواردة في الآية تشمل حال الشدة والرخاء، والإنفاق الشخصي والأسري وإنفاق الجماعة والمنظمة والدولة.

وتحذر الآية في مفهومها من حجب الحقوق الشرعية من الزكاة والخمس ومن الامتناع عن أداء الحج كعبادة بدنية ومالية عند إجتماع شرائطه وتوفر الإستطاعة.

وفي الآية مسائل:

الأولى: بيان صفة المتقين، وفيه إعانة وتعليم وإرشاد للمسلمين لمصاديق التقوى.

الثانية: دعوة الناس الى رؤية الخصال الحميدة للمسلمين، والتي يجب ان يتحلى بها كل إنسان بإعتبار ان عبادة الله عز وجل هي علة خلق الإنسان.

الثالثة: ذكرت هذه الآية شرطاً من صفات المتقين، وجاءت الآية التالية بشرط منها ، وهذا التعدد وإختصاص آيتين بذكر صفات المتقين دليل على

(١) كنز العمال ٣/٥٧٥.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٨٩

أهميتها وقديسيتها وضرورة العناية بها والسعي لها، وإكرام أهلها.
الرابعة: من صفات المتقين عدم إنكار المغيبات التي جاء بها القرآن بل يتلقونها بالتصديق والتسليم، ويتضمن القرآن علوم الغيب وأسرار السماء، وأخبار الجنة والنار، وعالم ما بعد الموت، فجاءت الآية لمدحهم والثناء عليهم بإعتبار انهم لم ينكروا ما في القرآن من علوم الغيب بل صدقوها وعملوا بما يجب عليهم.

الخامسة: الصلاة عمود الدين، ومن صفات المتقين ذكوراً وإناثاً المحافظة عليها، وتعاهدتها وأداؤها في أوقاتها، ففي قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وجوه:

الأول: إقامة الصلاة وعدم تركها.

الثاني: توكيد أهمية الصلاة من بين الفرائض كالصيام والحج والزكاة.
الثالث: إقامة المسلمين للصلاة وتعاهدهم لها شاهد على نيلهم مرتبة التقوى بلحاظ الجمع بينها وبين مضامين هذه الآية والآية التالية.
السادسة: إخراج المسلمين للزكاة، وتقيدهم بأحكامها، وجاءت الآية بلفظ الإنفاق الشامل للزكاة الواجبة والمستحبة، ولم تذكر الآية جهة الإنفاق، ولكن تعيينها من وجوه:

الأول: تضمن الآية الكريمة الإخبار بان المسلمين ينفقون مما رزقهم الله، فيكون الإنفاق عن إقرار بالعبودية لله، وحباً له، وفي مرضاته.
الثاني: مجيء آيات قرآنية عديدة تؤكد ان الإنفاق بقيد في سبيل الله قال تعالى ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١)، ويتفرع عن الإنفاق الثواب العظيم في الآخرة، والنجاة من النار، لذا فان من صفات المتقين خشية الله والخوف من غضبه، فيأتي الإنفاق واقية من غضبه، وإستجارة به تعالى.

(١) سورة البقرة ١٩٥.

إفادات الآية

من صفات الممكن النقص والحاجة، والإنسان ممكن غير قادر على الإحاطة بما حوله من العوالم المادية والعقلية، والعالم مظهر لجمال وجلال واسماء وصفات الله عز وجل، ومن خصائص أهل الإيمان الإقرار بالعجز عن الإحاطة بالغيب وما خفي عن الحواس، وهذا الإقرار تسليم بالربوبية وإعتراف بالعبودية لله تعالى، كما انه سبحانه شاكر عليم، فمع الإقرار له بالربوبية المطلقة يتفضل سبحانه بفتح ابواب من علم الغيب على المسلمين بواسطة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾^(١)، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾^(٢)، ونحوهما من الآيات التي تدل على إكرام المسلمين باطلاعهم على جانب من علوم الغيب وأسرار الكون .

وتأتي الصلاة توكيداً لحاجة المخلوق الى الخالق، وهي سلاح الغلبة على الشيطان وطرده لداعيه، والعابد أفضل الموجودات في عالم الممكنات وبالصلاة يرتقي في منازل القرب، ويزيح الحجب عن قلبه، وفي الصلاة قهر للنفس الشهوية والغضبية، وانتصار لآثار الملكوت الإلبيه، وهي عنوان الحب، ومن حبه تعالى للمسلمين أن أمرهم بالصلاة وبصيغة الجمع والتعدد.

والآية شاهد على حسن إمتثالهم لأنها وردت بصيغة الخبر (ويقيمون الصلاة)، وهي عنوان الفوز في منازل الخلد في الآخرة، وجاء الإنفاق ملازماً للصلاة لأنه شاهد على طهارة النفس والتخلص من كدورات الدنيا، ودليل على حسن الإستجابة ووسيلة للتقرب اليه تعالى بالزهد في

(١)سورة ال عمران ٤٤ .

(٢)سورة هود ٤٩.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

الدين وإعانة المحتاجين، لقد جاء الإنفاق على نحو الإطلاق والإجمال،
والقدر المتيقن منه الزكاة ولكن في الآية دعوة إلى الإنفاق المستحب.

وتقسم الآية الوجود بلحاظ مدارك الإنسان إلى قسمين:

١- الأمور والأشياء الحاضرة والمحسوسة.

٢- الأمور الغائبة عن الإنسان.

وتمدح الآية أهل الإيمان والصلاح لإقرارهم بالغيب وما خفي عن
الحواس مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وكأن الإيمان بالغيب فرع الإيمان
بالله عز وجل، ونبذ للشرك والأنداد.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت هذه الآية ببيان صفة المتقين الذين ذكرتهم الآية السابقة
واخبرت عن كون القرآن هداية لهم، فوصفتهم بثلاث صفات هي:

الأولى: الإيمان بالغيب، والغيب موضوع شامل وعامة تقع تحته مسائل
ومواضيع ومضامين عديدة، وهو من اللامتتهي لذا جاءت الآية بمدح
المسلمين لايمانهم به بالذات والأصل والمصاديق الظاهرة منه والتي لا تظهر
للحواس، والتي تبقى خفية عن حواس ومدارك البشر، ومن الغيب أمور:
الأول: كيفية نزول القرآن وتلقيه يدل بأعجازه الذاتي والغيري على
نزوله من عند الله.

الثاني: الأسرار والمضامين القدسية والعلوم التي يتضمنها القرآن والتي
تساهم في هداية المتقين.

الثالث: قصص الأنبياء والمرسلين، وأخبار الأمم السابقة، قال تعالى
في قصة يوسف ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾^(١).

الرابع: أخبار الجنة والنار ومواطن الحساب ويوم القيامة.
الخامس: عالم البرزخ وهو الذي يكون بعد زهوق الروح ومغادرة

(١) سورة يوسف ١٠٢.

٩٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الانسان الدنيا الى حين البعث والنشور.

السادس: ماغاب عن العباد علمه.

السابع: ما يحدث للإنسان في مستقبل الأيام في نفسه ورزقه وسكنه
وشأنه وأمور حياته كلها.

الثامن: آيات الآفاق وما في السماوات والأرض من الأسرار والكنوز
والذخائر.

التاسع: ظهور الإسلام، وعز المسلمين وإتساع رقعة الإسلام، وذهاب
الفرع والخوف من نفوس المسلمين.

العاشر: هزيمة الكفار والمشركين، وعجزهم عن النيل من الإسلام
والمسلمين.

وتفيد الألف واللام في (الغيب) الجنس والعموم الاستغراقي، وذكرت
الآية الايمان بالغيب وليس العلم، لان العلم به منحصر بالله تعالى وفي
التنزيل ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾^(١)، وتظهر الآية
حسن أدب المسلمين، بالتسليم بالغيب، وتلقي الأحكام الشرعية بالإمثال
طاعة لله تعالى ورجاء الثواب لذا ذكرت الآية إقامة الصلاة بعد الإيمان
بالغيب، ليجتمع الإيمان مع الفعل العبادي، وهذا الاجتماع من خصائص
المتقين إذ يأتي فعلهم موافقاً لإيمانهم ويؤكد عدم تخلفهم عن وظائفهم
الشرعية في أداء التكاليف.

الثانية: إقامة المسلمين للصلاة، وهي أشرف وأسمى عمل للإنسان
على مر العصور، ومع تعدد وجوه وأفراد العبادات، فإنها لم تنافس
الصلاة في أولويتها في معالم الإيمان. وتعاهد المسلمين لها ولقواعدها
وسنتها شاهد على تفضيلهم على أهل الملل الأخرى.

الثالثة: أختتمت الآية بصفة ثالثة وهي الإنفاق مما يرزقون من المال

(١) سورة هود ٣١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٩٣

وإخراج الزكاة والحقوق الشرعية الى مستحقيها، ومنه صدقة التطوع ومنه نشر العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
ان الإيمان بالغيب مدخل كريم لأداء العبادات، لانه إقرار بالربوبية لله تعالى، وروي ان النبي محمداً صلى الله انه قال: الإيمان سر، وأشار الى صدره.

ومن إعجاز الآية تقدم الإيمان بالغيب على إقامة الصلاة، لتأتي الصلاة عن إيمان وتسليم ورضا.

ويكون أداؤها شاهداً على الإيمان بالغيب، والعمل بالأركان من مصاديق الإيمان، والصلاة عبادة بدنية، واعقتها في الآية العبادة المالية بدفع الزكاة، والإنفاق من المال، والعلم بقصد القربة والله والامتثال لأوامره، وفي خاتمة الآية مسائل إعجازية منها:

الأولى: مجئ الإنفاق على نحو التبويض، فلم تقل الآية (وما رزقناهم ينفقون) بل قالت ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، في إشارة إلى العناية بالنفس وتوظيف شطر من الرزق للحاجات الشخصية ومستلزمات المعيشة، وهو من مصاديق العز، ومقدمة للتوجه الى العبادة، وفيه تخفيف عن المتقين ومنع للتشديد على النفس في إنفاق ما في اليد قال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

الثانية: حصول الإنفاق من الرزق وليس من المال الخاص والملك الشخصي، في إشارة الى ان كل بأيدي الناس هو من عند الله تعالى، وهو الذي يتفضل به عليهم وفيه دعوة للمسلمين والناس جميعاً للإنفاق، والمبادرة الى الصدقات الواجبة والمندوبة.

الثالثة: الإقرار بان الإنفاق من رزقه الله من مصاديق الإيمان بالغيب لان الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو الذي يخلف على المسلمين ما ينفقون، ويأتيهم بالعوض والبدل من حيث لا يحتسبون، انه تجارة مع الله

٩٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وشاهد على إيمان المسلمين، وفيه دعوة للناس للإيمان والمشاركة في الخيرات طاعة لله ورجاء رفته وثوابه.

الرابعة: تنزه المؤمنين عن الكسب الحرام وقيل بدلالة هذه الآية على ان الحرام ليس برزق لان الله تعالى مدح المتقين على الإنفاق مما رزقهم الله عز وجل ، ولو كان الإنفاق من الحرام لما استحق المدح .

ولكن النوبة لاتصل الى هذا الإستدلال ، لأن الآية بصدد الثناء على المتقين على نحو الخصوص ، ومن وصاديق التقوى التنزه عن الحرام ومقدماته، والرزق عام وهو كل مايصح الإنتفاع منه.

التفسير الذاتي

مع قلة كلمات الآية السابقة فانها ذكرت القرآن بلغة التفضيم والتعظيم من جهات:

الأولى: صيغة الإشارة للبعيد (ذلك).

الثانية: القرآن هدى وخير محض.

الثالثة: القرآن هاد للمتقين الذين يخشون الله عز وجل.

ولا يعني هذا أن وظائف هداية القرآن تنحصر بالمتقين بل جاءت آيات عديدة تبين أنه بذاته هدى، وأنه هدى للناس جميعاً، فهو مدرسة الهداية والمواظبة والصلاح.

وتبين آيات القرآن أن الهدى مطلوب بذاته، كما أن الهدى الذي يأتي

به القرآن طريق لملكة الصلاح والرشاد، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ

آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

ومن إعجاز القرآن مجئ هذه الآية لبيان علامات المتقين وما يتصفون به من السمات الحسن لمنع اللبس وطرده الوهم، ولإعانة المسلمين على تلمس

(١) سورة الحج ٥٤.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٩٥

مسالك التقوى، إذ تبعث الآية السابقة الشوق في نفوس المسلمين للإرتقاء إلى منازل التقوى، والصيورة في جماعة المتقين، فجاءت هذه الآية لتبين حقيقة وهي بمقدور كل مسلم بلوغ منازل التقوى.

وإبتدأت الآية بذكر صفة من صفات المتقين، وهي الإقرار بما غاب عن الحواس من الشواهد على بديع صنع الله عز وجل، وهو نوع تفويض لله عز وجل في الأمور كلها.

لقد أنزل الله عز وجل القرآن سلاحاً وواقية من الشك والريب فيكون التصديق بالغيب شاهداً على التصديق بالقرآن، والإيمان بنزوله من عند الله دليلاً على التسليم بالغيب.

ترى ما هي النسبة بين التقوى التي ذكرتها الآية السابقة، وبين الإيمان بالغيب الذي ذكرته هذه الآية، الجواب هو العموم والخصوص المطلق، فمن شرائط التقوى التصديق بالغيب، وعجز الإنسان عن الإحاطة بالكائنات والتسليم بالقدرة المطلقة لله عز وجل، والعوالم الطولية المتعددة والخلود في الآخرة.

وجاءت هذه الآيات للإخبار عن منافع القرآن، وحاجة الناس له كنعمة عظيمة من عند الله من وجوه:

الأول: يهدي القرآن الناس للإسلام.

الثاني: القرآن إمام في الصالحات، وواقية وحرز من السيئات.

الثالث: نفع القرآن للمسلمين متصل ومتجدد، فهو يأخذ بأيديهم إلى منازل التقوى وينمي عندهم ملكة التقوى ويجعلهم يتعاهدونها بالعمل الصالح وإجتنب الذنوب والسيئات.

وجاءت الآية بقوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لبيان ما تؤدي إليه

تلاوة القرآن والعمل بأحكامه من قبل المتقين من زيادة هدايتهم وثباتهم في مقامات الإيمان، لذا جاء الأمر الإلهي بوجوب قراءة القرآن في الصلاة

٩٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

اليومية، وفيه دليل على أن هذه القراءة تزيد المسلمين متحدين ومتفرقين هداية ورشاداً، ونيل المقامات الرفيعة في الآخرة بالهداية والتقوى، قال تعالى ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (١).

وتبين الآية عدم إنقطاع حاجة الناس لله عز وجل وما أنزله من الكتب السماوية ويمكن تسمية الحياة الدنيا بأنها (دار هدى) لأن الهداية فيها متصلة في زمانها وأفرادها، **ولا يستغني** عنها حتى الذين بلغوا مراتب اليقين، وأن الله عز وجل هو الكريم الذي يتفضل بهدايتهم والناس جميعاً بآيات التنزيل والنبوة.

وسياتي في باب تفسير هذه الآية ذكر خمسة أقوال في الغيب، لبيان المسؤوليات العقائدية التي يتحملها المسلمون في إمامة الناس بالإيمان بالغيب، الذي هو فرع الإقرار بالعبودية لله عز وجل وأنه سبحانه قادر على كل شئ.

وتبين هذه الصفة ومناسبة ذكرها في بداية القرآن أن الكتاب نزل لمدح المسلمين والثناء عليهم، وأنهم أهل لتلقي الكتاب وتعاهده، لقد أراد الله عز وجل بهذه الآية أن يكون الإيمان بالغيب على وجوه مباركة منها:

الأول: إنه مائز للمسلمين، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢).

الثاني: إنه فرقان بين الإيمان والضلالة، ومانع من أسباب الشك والريب.

الثالث: التصديق بالغيب واقية للمسلمين من أهل الجدل

(١) سورة آل عمران ١٥ .

(٢) سور آل عمران ١١٠ .

والخصومة.

والله سبحانه هو عالم الغيب، وأحاط بكل شئ علماً، وخلق الإنسان ونفخ فيه من روحه ليعمر الأرض بالعبادة والصلاح.

ومن وجوه العبادة التصديق بالغيب، والإقرار الشخصي والنوعي بالعجز عن الإحاطة بخفايا الغيب، وخزائن العلوم، وأسرار السماوات والأرض إلا بما يشاء الله عز وجل، والإيمان بالغيب وعظمة سلطان الله عز وجل قال تعالى ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(١).

وبديع صنعه مقدمة لأداء الوظائف العبادية، ومناسبة لحسن الإمثال للأوامر والنواهي التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لذا ذكرت الآية بعد الإيمان بالغيب صفة ثابتة من صفات المتقين وهي إقامتهم للصلاة، لتوكيد حقيقة مركبة من وجوه:

الأول: الملازمة بين الإيمان بالغيب وأداء العبادات، لقد نزل القرآن بوجوب أداء المكلفين للصلاة، وأنها واجب متجدد على المؤمنين، قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾^(٢).

الثاني: الإيمان بالغيب مقدمة وطريق لأداء الوظائف العبادية.

الثالث: الإيمان إقرار بالقلب، والصلاة فعل يحاكي هذا الإيمان، ويكون مرآة له.

لقد جاء قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ بصيغة الجملة الخبرية، وفيه وجوه:

الأول: إنه يحمل معنى الجملة الإنشائية، والأمر بإقامة الصلاة.

الثاني: أداء المسلمين للصلاة.

(١) سورة الجن ٢٦.

(٢) سورة النساء ١٠٣.

الثالث: تقيد المسلمين بأحكام الصلاة.

وجاءت الآية بصيغة الإجمال في إقامة الصلاة من غير تفصيل لكيفية أدائها، ولا بد من أداء الصلاة بأحكامها وأركانها وشرائطها لإنتفاء المشروط بإنتفاء شرطه، لذا ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم (صلوا كما رأيتموني أصلي^(١)).

وقد جاء القرآن بوجوب العمل بما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾^(٢).

وأختتمت الآية بذكر الإنفاق في سبيل الله، وأنه صفة من صفات المتقين، والحث على دفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله، وصلة الرحم، وإطعام الطعام، وإجتنب البخل والشح ونحوها من الأخلاق المذمومة.

وهل يشمل الإنفاق في هذه الآية الصّفح وبذل الإحسان والود وإفشاء السلام، والعفو، قال تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْعَفْوُ﴾^(٣)، الجواب جاءت الآية بخصوص ما رزق الله عز وجل المتقين، والقدر المتيقن في الآية هو دفع الزكاة وبذل المال وإعانة الآخرين رجاء مرضاة الله عز وجل ولا يمنع من المعنى الأعم، كما لو كان العفو من مقامات السلطان والقدرة.

وقد جاءت فاتحة سورة لقمان قريبة من الآيات الأولى من سورة البقرة مع البيان والتفسير، قال تعالى ﴿الْم ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً

(١) مفاتيح الغيب ١/١٧٠.

(٢) سورة الحشر ٧.

(٣) سورة البقرة ٢١٩.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

لِلْمُحْسِنِينَ ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾
﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(١)، لبيان أن المراد
من ذكر الكتاب في هذه السورة هو آيات القرآن، وأن المتقين هم المحسنون
في صلاحهم وتقواهم، وأن المراد من الإيتاء والخشية من الله في المقام هو
إخراج الزكاة ودفعها إلى أهلها.
وتضمنت الآية المدح على الإنفاق على نحو الجزئية من الرزق لمقام
(من) التي تفيد التبعية في قوله تعالى ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وفيه
مسائل:

الأولى: الزكاة جزء قليل من الرزق.

الثانية: تتعلق الزكاة بالنماء والزائد على المؤونة والمقدار الكثير.

فلا تجب في النقدين إلا أن يبلغ عشرين ديناراً ذهباً، كل دينار مثقال
ذهب شرعي عبار ثمان عشرة حبة أو ما يعادلها، ونصاب الغنم أربعون
شاة، وفيها شاة واحدة. وكذا بالنسبة للغلات، فلا زكاة فيما دون
النصاب، وهو خمسة أوسق والوسق ستون صاعاً، ويكون نحو ثمانمائة
وسبعة وأربعين كيلو غرام تقريباً .

فيكون التبعية مصداقاً إجمالياً للنصاب وكفاية الشيء القليل في براءة
الذمة، ودعوة المسلمين لحفظ أموالهم، وعدم الإسراف، ونسبت الآية
الرزق إلى الله عز وجل لبيان حقيقة وهي أن النعم التي عند الناس كلها
من عند الله، وأنه سبحانه هو الذي يأمر بالزكاة، مما يملئ على الناس
الإستجابة ، وفيها النماء والبركة لأنها مصداق للطاعة وشكر الله عز وجل
على النعم.

من غايات الآية

(١) سورة لقمان ١-٥.

١٠٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

تتضمن الآية بيان الخصال الحميدة للمسلمين، وإرتقاءهم في منازل التقوى، وفيها حث لهم على الإجتهد في العبادة وسبل الهداية وترغيب للناس بالإسلام، وبيان النفع العظيم للقرآن الكريم في صلاح المسلمين، وحسن إمثالهم للأوامر الإلهية.

ومن الآيات ان تأتي الآية جامعة لمدح المسلمين وتوكيداً لموضوعية القرآن كسبب لهدايتهم، وان الله عز وجل أنزله ليكون هدى وأماماً في الصلاح والفلاح، وبيانا لحاجة المسلمين في كل أوان وفي أي مرتبة من مراتب التقوى للقرآن وأحكامه وسننه.

التفسير

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

بعد أن تفضل سبحانه وبين نعمته على العباد في القرآن اذ جعله هدى ورشاداً للمتقين، تفضل في هذه الآية بذكر صفات المتقين لنعلم مدى عظمة كل آية من القرآن، والوظيفة التي تؤديها وأهمية مضامين نزولها، لقد وفر الله على المسلمين مشقة البحث والإستقصاء في تحديد صفات المتقين خاصة مع أهمية المقام والحاجة إلى المعرفة والبيان.

وترى لغة الوضوح في كل المسائل الأساسية في أمور الدين والدنيا كي يتفرغ المسلمون لعبادته تعالى وتكون له الحجة البالغة، إن البداية بالإيمان بالغيب آية وموعظة فقد تفضل الله سبحانه بذكر الجانب العقائدي والروحي والفكري باعتباره الركيزة الأساسية التي تحدد أنماط السلوك، فمع الإيمان به تعالى وبما جاء به الأنبياء من عنده تتحرك النفوس صوب العمل، وتندفع الأركان والجوارح باتجاه مرضاته تعالى وفق صيغ التسليم والإنقياد لأوامره تعالى، قال سفيان بن الحرث:

وبالغيب آمننا وقد كان قومنا

يصلون للأوثان قبل محمد

معالم الإيمان / الجزء الثاني

ان الإيمان بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تعاهد وحفظ لأحكام الشريعة وسبيل نجات وطريق رشاد، ورد بالاسناد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "أن رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني"^(١).

لقد كان زمن النبوة ميداناً للآيات ومشاهدة البراهين والحجج، وبعد إختتام النبوة بنينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم تفضل الله على أهل الأرض بالقرآن وما ينبئ عنه من عالم الغيب، فيكون التصديق بآياته فضيلة ترتقي بصاحبها إلى مراتب التقوى وتفتح عليه أبواب الهداية والسداد، بالإضافة الى تقيده بأحكام الصلاة وأدائها في أوقاتها إستجابة لأمره تعالى.

أخرج عن تويلة بنت اسلم^(٢) قالت: "صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيليا فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد إستقبل البيت الحرام، فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلوا البيت الحرام، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك فقال: أولئك قوم آمنوا بالغيب"^(٣).

والظاهر انهم إستحقوا هذا الوصف الكريم لإستجابتهم ومبادرتهم الى استقبال البيت الحرام، ولم يسألوا البينة وشهادة عدلين، وفي الحديث دلالة على جواز إطلاق الغيب على ما غاب عن الحواس وان كان قريباً،

(١) الدر المنثور ١/٢٧.

(٢) تويلة بالتصغير روى حديثها الطبراني بالإسناد عن إبراهيم بن جعفر، وهي من المبايعات للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) الدر المنثور ١/٦٥.

١٠٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

واحتمل إرادة القرآن وأوامره بلفظ الغيب الوارد في الحديث الشريف.
وورد عن ابن مسعود في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾
قال: "هم المؤمنون من العرب"، وهو من أهم مصاديق الآية ورداء الإيمان
خصوصاً أيام النزول فلا مانع من شمولهم بعنوان إعتباري زائد الا ان
الآية عامة وتنبض بالحياة وتدلي بالشهادة ما دام التكليف في الدنيا،
وستكون شاهداً يوم القيامة وقد تكون شفيحاً وناصرأ لمن آمن بالغيب وهم
المسلمون في أمصارهم كافة، وأجيالهم المتعاقبة.
واخرج عن ابن عباس في الآية (الذين يصدقون بالغيب)^(١) قال: "بما
جاء منه يعني من الله عز وجل"، وورد عن الامام جعفر الصادق عليه السلام انه
قال: "﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يصدقون البعث والنشور والوعد
والوعيد"، وهو الفرد الأعظم في مراتب الغيب في عالم الخلق والأمر
والإمكان، والذي يترشح معه الإقرار بمصاديق الغيب في الدنيا فمتى ما
أدرك الإنسان وجود عالم آخر ملاكه الثواب والعقاب وتجلي الصلاح
على إنمات سلوكه وحبس النفس عن الهوى وإتباع الشهوات كطريق الى
الجنة، وعنه أيضاً في الآية: "أي آمن بقيام القائم انه الحق".
وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام قال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾
يعني بما غاب عن حواسهم من الأمور التي يلزمهم الإيمان بها كالبعث
والنشور والحساب والجنة والنار وتوحيد الله وسائر ما لا يعرف بالمشاهدة
وانما يعرف باعلام وأمارات نصبها الله تعالى دلائل عليها.
وذكرت الآية الإيمان بالغيب كأهم صفة من صفات المتقين وورد لفظ
الغيب في القرآن بصيغة المفرد نحو تسع وأربعين مرة، ولم يرد قوله تعالى
(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) الا في هذه الآية التي جاءت في أول القرآن مما يعني ان

(١) التبيان في تفسير القرآن ٥٥/١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٠٣

الإيمان بالغيب أصل عقائدي ، ومفتاح للعلوم ، وسر من أسرار الخلق ومقدمة لأداء العبادات والفرائض ، وفي الغيب في المقام أقوال:

- ١- انه ما جاء من عند الله، عن ابن عباس.
 - ٢- ما غاب عن العباد علمه من أمر الجنة والنار والأرزاق والأعمال وغير ذلك، عن عبد الله بن مسعود وجماعة من الصحابة^(١).
 - ٣- الغيب هو القرآن، عن زر بن حبیش.
 - ٤- كل ما أدرك بالدلائل والآيات مما تلزم معرفته، عن البلخي.
 - ٥- الغيب خفاء الشيء عن الحس، قرب او بعد الا انه كثرت صفة الغائب على البعيد الذي لا يظهر للحس.
- ولا تعارض بين الوجوه أعلاه وعنوان الغيب يستوعبها، وهو من إعجاز اللفظ القرآني ان يأتي جامعاً مانعاً، جامعاً للمصاديق التي تبعث على الهدى، ومانعاً من خلو ما ليس حق وصدق فيه.
- والآية وان جاءت بصيغة الخبر الا انها تفيد الإنشاء والدعوة لعموم الناس للتصديق بالغيب، وهذا التصديق لا بد له من طرق محكمة تؤدي اليه وانه لا يتعارض مع أحكام الشريعة والعقل، لذا جاء القرآن معجزاً في ألفاظه ونظمه وبلاغته ليكون الطريق الى الإيمان بالغيب، وهناك فرق بين التصديق بالغيب والعلم به الذي إختصه الله عزوجل لنفسه ، ولا يطلع على جانب منه إلا من يشاء من عباده.

قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾

بعد ذكر صفة الإيمان بالغيب كعلامة للمتقين ذكر سبحانه أهم فرض في الدين الإسلامي وهو الصلاة، والتلازم بين الإيمان بالغيب من جهة، وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله ظاهر، ولترتقي به الآية الشريفة إلى درجة التلازم البين بالمعنى الأخص الذي يحضر تصوره بتصور ملزومه من

(١) تفسير التبيان ٥٦/١.

١٠٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

غير حاجة إلى توسط شيء آخر.

لقد أرادت الآية تأكيد حقيقة إيمانية وهي إقتران العقيدة بالفعل، وان إقامة الصلاة فرع الإيمان بالغيب ومن لوازمه من وجوه:

- ١- انها من أفراد الغيب.
- ٢- جاء بها القرآن ، وهو نازل من عنده تعالى.
- ٣- انها طريق الى الجنة وواقية من النار، وهما من أفراد علم الغيب.
- ٤- أداء الصلاة تصديق بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
- ٥- ذات الصلاة من الغيب كأمر وعبادة ومادة للثواب، وإقامتها إقرار بالغيب.

ولا بأس في المقام من الوقوف عند (الواو) التي تكررت مرتين في الآية باعتبارها حرف عطف، والمناسب هو التفصيل في اعتبارها لمطلق الجمع كما عليه أكثر النحويين او انها تفيد الترتيب خاصة مع وجود القرائن، والظاهر انها في المقام تفيد الترتيب بتفسير الغيب في الآية بمعناه الأوسع، فبعد الإيمان جاء العمل الصادق وليكون التعريف بالحد التام أي بجميع ذاتيات التقوى الأساسية بثلاث آيات من القرآن.

وفي الوقت الذي تؤكد فيه الآية الشريفة على أهمية الإيمان باعتباره المدخل إلى منازل الرفعة والسعادة، والأصل في بلوغ الكمال والسبيل إلى احراز مرضاة الله عز وجل فانها لم تحتتم من غير التصريح بالوظيفة العملية للمؤمن وان الاقرار باللسان وحده غير كاف للصالح والفلاح في الدارين.

في رحاب الصلاة

تشريع الصلاة

لقد جاءت النبوة ملازمة لوجود الانسان على سطح الأرض باعتبار
أن العبادة علة هذا الوجود لقوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٠٥

لِيَعْبُدُونَهُ ﴿١﴾، ولقد أخلص الأنبياء لله في عملهم واجتهدوا في دعوة أقوامهم إلى التوحيد.

وربما إندرس خبر جهاد شطر منهم بالقتل أو بتعاقب الليل والنهار بالإضافة الى إندثار وتشتت بعض الحضارات والأمم وأثره وضرره على الناس معروف، ولو اسع رحمة الله تعالى أنعم علينا بالقرآن وأراد سبحانه أن لا يترك الناس بغير تنبيه، وأمر المسلمين بوجوب تكرار التقرب اليه في كل يوم خمس مرات بصلاة موقوتة ويذكرون ساعتها إسم سيد المرسلين فلا ينسون ما في رسالته من الآيات وما جاء به من القرآن والأحكام التشريعية الخالدة ضمن الإقرار لله عز وجل بالربوبية في تذلل ورغبة وسؤال.

لقد كان تشريع الصلاة مع البداية الأولى لنزول الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حاجة عقائدية وأخلاقية وهي الطريق الأمثل لرسوخ الإيمان، ونحن بحاجة الى دراسات مقارنة وتأريخية وعلمية تبين كيف ان الصلاة سلاح ضروري لنشر الإسلام ودرء الفرقة ووقاية وحرز من كيد الأعداء والأشرار.

وربما جاء النص المتكامل المفروض في أجزائها وأركانها على ما هي عليه اليوم على مراحل ومنذ الأيام الأولى للرسالة وإستمر إلى ما بعد الهجرة النبوية المباركة إلى المدينة - كما في مسالة القبلة وتحويلها مثلاً - والتدرج في الأحكام كان مرتبطاً بترسيخ أسس الإسلام ونشر رايته وإتساع رقعته وظهور قوته.

وفي رواية عن سعيد بن المسيب عن علي بن الحسين عليهما السلام "أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زاد بعد - الهجرة - في الصلاة سبع ركعات في الظهر ركعتين، وفي العصر ركعتين، وفي المغرب ركعة وفي العشاء الآخرة

(١) سورة الذاريات ٥٦.

١٠٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

ركعتين، وأقر الفجر على ما فرضت بمكة لتعجيل عروج ملائكة الليل إلى السماء، ولتعجيل نزول ملائكة النهار إلى الأرض، فكان ملائكة النهار وملائكة الليل يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الفجر، وقال الله تبارك وتعالى ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾^(١) يشهده المسلمون وتشهده ملائكة النهار وملائكة الليل.

ان الإنسان ليعجز عن التوصل إلى الأسرار الإلهية لما في الصلاة من مضامين وإعتبرات تجلت في تشريعها واجبا يومياً متجدداً، وفرضاً عينياً على كل مسلم ومسلمة، وعنواناً للهداية والرشاد لتغطي الأرض بظلال الإسلام وتنشر أضواء مبادئه في ربوعها باعتبارها أعمدة لدوام الحياة على سطحها وسبيلاً للنجاة والفوز بالدار الآخرة، وبالتزام المتقين بالصلاة يدفع الله البلاء عن أهل الأرض ويؤجلهم إلى حين.

ولا يخفى ان الدراسات والبحوث قاصرة عن بيان فلسفة الصلاة ومفاهيمها ووجوه الحكمة والجهاد والتربية والإصلاح فيها.

وفي بداية تشريع الصلاة وأدائها في مكة وعند البيت الحرام، قال الطبري: "حدثني محمد بن عبيد المحاربي قال: حدثني سعيد بن خثيم عن أسد بن عبد البجلي عن يحيى بن عفيف عن عفيف قال: "جئت في الجاهلية إلى مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب قال: فلما خلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا انظر إلى الكعبة أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء ثم إستقبل الكعبة فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه، قال: فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب فركع الغلام والمرأة، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة، فخر الشاب ساجداً فسجداً معه.

(١) سورة الإسراء ٧٨.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

فقلت: يا عباس أمر عظيم، فقال: أمر عظيم أتدري من هذا، فقلت: لا، قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، أتدري من هذا معه، قلت: لا، قال: هذا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن أخي، أتدري من هذه المرأة التي خلفهما، قلت: لا، قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي، وهذا حدثني أن ربك رب السماء أوهم بهذا الذي تراهم عليه، وأيم الله ما اعلم على ظهر الأرض كلها احداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة"، ويذكر في رواية أخرى انهم توضؤوا قبل الصلاة، وان عفيف قال بعد أن أسلم ورسخ الإسلام في قلبه يا ليتني كنت رابعاً^(١). والحديث يدل على جهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته لتثبيت الصلاة كحقيقة عقائدية حاضرة في الواقع اليومي وتحد متصل للكفر وقيم الشرك، وهي دعوة للإيمان، وفيها إخبار بأن الله عز وجل حب أفعال الصلاة الى النفوس فلم تنفر منها.

الصلاة العبودية

تعتبر الصلاة رمز العبودية واصدق عناوين الخشوع لله عز وجل، أنها وقوف بين يدي الجبار تعظيماً لمقام الربوبية وسيلاً إلى التوسل برداء الخضوع في ذل ومسكنة وتوجه مبارك لإلتماس رضاه تعالى. انها الهبة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصلة التي أرادها الله عز وجل دائمة باقية وحبلاً متصللاً بين الأرض والسماء، وبين العبد والخالق.

لقد كان العرب يأنفون من السجود وينفرون من الركوع لما فيهما من الذل والخضوع ويتعيون رفع العقيرة الذي يتطلبه السجود، فكانت الصلاة تحدياً لما عندهم من نزعة الكبرياء، وإمتحاناً صعباً في مسالك العبودية وفقهم الله لاجتيازه بجهاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، روي "انه

(١) تاريخ الطبري / ٥٧/٢.

١٠٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

لما جاء وفد ثقيف إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سنة تسع من الهجرة، رجوا منه إعفاءهم من أمرين:
١- كسر أوثانهم بأيديهم.

٢- تأدية الصلاة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أما كسر أوثانكم بأيديكم، فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه.
فقالوا: يا محمد أما هذه فسنتؤتيكها وإن كانت دناءة"، لقد كانوا يستحيون من رفع العقيرة في السجود، ولكن عنصر الإيمان هو الغالب فاخذت النفوس تنشرح بالصلاة وتشتاق اليها واصبح المسلم يفتخر باداء الصلاة وينتظر أوقاتها بشوق وحتى المحتضر منهم يوليها إهتماماً وعناية خاصة مع ما يعانیه من النزاع وشدة الألم، وسنت في الشريعة احكام وقواعد أداء المضطر لها عن جلوس او استلقاء وبالممكن والميسور من افعالها ولو بالإيماء والإشارة.

والصلاة التجاء إلى الله عز وجل وإستعانة به، قال تعالى ﴿
وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١).

ان الخضوع الذي تمثله الصلاة ينبعث من القلب ويشع على الجوارح فتمتلئ بالسكينة، ويؤثر على سجايا النفس وأنماط السلوك خارج الصلاة أيضاً وهذا من إفاضات الصلاة.

فضل الصلاة

تعتبر الصلاة عنواناً لطاعة الله في الأرض وإظهاراً للخضوع لسلطانه وحباً للإمثال بين يديه وإستعداداً للتضحية من أجل إستمرار بقاء راية

(١) سورة البقرة ٤٥ - ٤٦.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

١٠٩

التوحيد في الأرض بالوقت وراحة البدن، واختيار النفس حيث تحبس ساعة الصلاة لغرض الصلاة وأداء أفعالها.

وهي أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى الله ويرجو بها رضاه، وأحب أفعال العباد إلى الله عز وجل لأنها توظيف واقعي للمعرفة والتزام من البدن والجوارح بالإيمان ضمن تفاعل مع الروح لإنبعاثه في فعل عبادي لا يراد به إلا وجه الله، وهي قربان كل مؤمن ورمز التقوى ولباس الهدى ومناسبة كريمة ليسيح العبد في ذكر الله ويعيش في كنف الربوبية ملتجئاً في خشوع وانقياد.

فلا غرابة إذن أن يطوف حول المصلي الملائكة ويستديرون ويستغفرون ويدعون له وربما صلوا خلفه، ويتباهون به لأنه نبذ الشهوات واجتنب الكفر والمعصية وإختار طائعاً سبيل الإيمان.

روي بالاسناد عن محمد بن مسلم عن الامام محمد الباقر عليه السلام انه قال: "للمصلي ثلاث خصال اذا هو قام في صلاته حفت به الملائكة من قدميه إلى عنان السماء، ويتناثر البر عليه من عنان السماء إلى مفرق رأسه، وملك موكل به ينادي: لو يعلم المصلي من يناجي ما إنفتل"^(١).

والصلاة صرح ومعلم تركز اليه أعمال العباد الأخرى ويتوقف مدى سلامته وقبولها وثوابها على الصلاة أداء وصحة، لذلك جاء الحث والتوكيد على الصلاة والإهتمام بها ووجوب تكرار ادائها خمس مرات في اليوم والتقيد بها في الحضر والسفر باعتبارها الباب الذي تقبل منه الطاعات والسبيل الذي يحفظ الصالحات.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا إنكسر

(١) من لا يحضره الفقيه ١٠ / ١٣٥.

١١٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

العمود لم ينفذ وتد ولا طناب ولا غشاء" (١).
والصلاة سلاح وعون للنجاة من تبعات الذنوب وإزالة آثارها بالسعي
الجاد في مرضاة الله وأداء ما أوجب من الفرائض.
قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ما من صلاة يحضر وقتها إلا
نادى ملك بين يدي الناس: يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها
على ظهوركم فاطفئوها بصلاتكم" (٢).
وهناك منافع ومضامين أخلاقية وإجتماعية وإقتصادية للصلاة تتعرض
لبعضها في الأجزاء التالية من الكتاب إن شاء الله.

الصلاة والأخلاق

الصلاة صلة يومية بين العبد وخالقه يلتزم خلالها العبد بطاعته تعالى
والإستسلام الفعلي الظاهري لأوامره فتأتي مواظبته على أدائها في أوقاتها
وعدم تضييع بعض منها عنواناً للوثوق به وفرداً من وجوه عدالته،
فيكون تعاهد الصلوات الخمسة مرتكزاً لتزكيتة بين الناس وإطمئنانهم
وميلهم اليه وشاهداً على عدالته وهو سر من أسرار العبادة وإفاضاتها
وثمره من ثمار بركة إلتزامه بأداء ما أمر الله باتيانته، وترى الثناء على
المصلي والمدح يأتي حتى من خارج وسط وجماعة المصلين وربما تعدى
في إنتشار رفعتة إلى غير أهل الإسلام.

قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وَدًّا﴾ (٣)، أن التقيد بأوقات الصلاة وعدم التهاون فيها وإجتناح تضييع
بعضها يخلق وينمي ملكة الصدق والوفاء عند الانسان ويبعده عن خلق

(١) من لا يحضره الفقيه ١/ ١٣٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه ١/ ١٣٣.

(٣) سورة مريم ٩٦.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

النفاق ، وإخلاف الوعد ونقض العهد أو عدم الوفاء به.
وتفتح الصلاة للإنسان أبواب الفضيلة وسلامة السلوك فتراه يهرب من الكذب ويتحاشى أسبابه، وبسبب إدراكه الحاجة الى المغفرة تراه يتقن لغة الندم على ما إرتكبه من الذنب ويبادر الى الإستغفار كمقدمة للمثول بين يدي الله وان كانت الصلاة ذاتها موضوع استغفار وسلاح وتهذيب يؤدي الى تضائل الكذب وما شابهه من ذميم الأفعال.
ان أداء العبد للصلاة مدرسة يومية ودعوة إلى المحيطين به من أقارب وأصدقاء وأهل بلدة للولوج في كنف طاعة الرحمن والتخلص من معصيته وما يتعقبها من أليم العذاب ووسيلة إلى رجحان كفة الصلاح والأخلاق السامية في المجتمع.
وتطرد الصلاة الخصال القبيحة من سلوك الافراد والمجتمع لتحل محلها الخصال الحميدة، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والغيبة وتساهم في الستر وحسن السمعة فالذي يلازم مصلاه ولا يغيب عنه من غير علة ويحفظ مواقيت الصلاة مع جماعة المسلمين لا يسمع عنه من أهل مصره أو محلته أو قريته إلا خيراً وصلاحاً، لتكون السمعة والصيت الحسن شهادة بعدائه وحسن سمته.

الصلاة سلام وأمن

الصلاة عنوان وحدة المسلمين ورمز لالتقائهم وهي السبيل السالكة لدرء النزاعات ومحو الضغائن وإزالة الغل، وكم كانت حائلاً دون تشتت كلمتهم ومنع الفرقة والقتال بينهم، وقد نهى أمير المؤمنين عليه السلام عن وضع المصلي للسيف بين يديه وقال: "لا تخرجوا بالسيوف إلى الحرم"^(١) لأن التوجه إلى القبلة إعلان للأمان ودعوة إلى السلام، والمبادرة إلى الصلاة تطوي ما تقدم على زمانها من الغضب والحقد ومحاولة الكيد.

(١) علل الشرايع ٤٢/٢.

١١٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وكثيراً ما جمعت الصلاة بين الأعداء فكانت فاتحة ومقدمة لنبذ العداة
بسريان حال الخشوع في النفوس وتجلي وحضور أهوال الآخرة، وربّ
عذاب أو بلاء ارتفع ومحاه الله عن الناس أو جماعة منهم بسبب الصلاة
وأدائها.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "أن الله يدفع العذاب
بمن يصلي من أمتي عمن لا يصلي، وبمن يزكي عمن لا يزكي، وبمن يصوم
عمن لا يصوم، وبمن يحج عمن لا يحج، وبمن يجاهد عمن لا يجاهد، ولو
اجتمعوا على ترك هذه الاشياء ما أنظرهم الله طرفة عين، ثم تلا رسول
الله صلى الله عليه وآله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ
﴿(١)﴾" (٢).

الصلاة والنفس

من منافع الصلاة ما يترشح عنها من صلاح الروح وإستقرار النفس
بلجوئها إلى الباري عز وجل وعز سلطانه ورضاهها بحسن الإلتزام في اداء
ما فرضه عليها من العبادة ولتكون خيمة يأوى اليها العبد كلما أهاله أمر أو
دخل عليه غم أو ضاقت عليه السبل لتفتح امام عينيه ابواب الدنيا وآفاقها
وتلتقي في قدرة الله عز وجل وعظمة سلطانه أزمنة الماضي والمستقبل مع
الحاضر، وفي خبر أبي بصير عن الامام الصادق عليه السلام قال: "كان علي
عليه السلام إذا هاله شيء فزع إلى الصلاة، ثم تلا هذه الآية ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ﴾" (٣) (٤).

(١) سورة البقرة ٢٥١.

(٢) الوسائل ٢٨/١.

(٣) سورة البقرة ٤٥.

(٤) الشهيد الأول / الذكرى ٢٥٦.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١١٣

ومثلما تجعل الصلاة لصاحبها وداً في قلوب الآخرين فانها تزرع في نفسه السكينة وهيئة من الإستقرار تتجسد بالرضا بما قدر الله عز وجل له من الأحوال وأبواب الرزق وأسبابه والتطلع لما عند الله تعالى في ترفع وتنزه عما في ايدي الناس في عز وحالة نفسانية مستقرة وشموخ ترسخه المواظبة على أوقات الصلاة اليومية أو المبادرة إلى الصلاة والإشتغال بأفعالها إستجارة والتجاء.

عن العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غم من غموم الدنيا أن يتوضأ ثم يدخل مسجده فيركع ركعتين فيدعو الله فيهما، أما سمعت قول الله عز وجل ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾" (١).

ان تعدد الإختصاصات في ميادين العلوم وإزدياد تفرعات الطب وأقسامه في هذا الزمان أفرز إستقلالاً لعلم النفس ودراساته وطرق إصلاح النفس وقاية وعلاجاً للملازمة بين النفس والبدن في الصحة والمرض، والقوة والضعف، والإيمان والكفر، وكانت له فروع واقسام تخصص في ميدان الطب، وعلى العاملين في هذه الميادين والمتخصصين في علومها التصدي لدراسة أهمية الصلاة وآثارها في تقويم النفس الإنسانية وما تؤدي اليه من وقايتها وإحترازها من تلك الأمراض وكيفية علاجها بالصلاة، مع بيان علمي وبرهان طبي يكون دليلاً لاخيارها مادة للشفاء والصلاح وسبيلاً للتخلص من كثير من الآفات الإجتماعية.

وعلى المسلم أن يقبل على الصلاة بشوق ورغبة نازعاً رداء الكسل طارداً عن النفس عناوين الخمول والثاقل ليعيش ساعة فرح بإنضمامه إلى جماعة الملتزمين بطاعة الله من أوليائه وأحبائه.

وفي معنى العبادة ومضامينها قال الامام الصادق عليه السلام: "العبادة ثلاثة: "قوم عبدوا الله خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك

(١) الوسائل ٨/١٣٩.

١١٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وتعالى طلباً للثواب فتلك عبادة الحرصاء، وقوما عبدوا الله عز وجل حباً فتلك عبادة الاحرار وهي افضل العبادة"^(١).

ويعتبر الإقبال على الصلاة بالقلب والجوارح لموضوعيته وتأثيره في مقدار الثواب وهو سلاح مبارك لصلاح النفس وطرده الهم والغم والوسوسة وأحلام اليقظة عنها فتكون ساعة الصلاة ضابط السلامة وحرزاً عقائدياً وروحياً للنجاة من الأمراض النفسية المتولدة من تلك الهموم والأوهام، وليكون الذكر فيها وفي أفعالها علاجاً إجبارياً دائماً، وهو أيضاً خال من المضاعفات السلبية لأنه خير محض.

الصلاة والايمن

الإيمان في الشرع هو التصديق الجازم بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والإيمان بالله يعني التصديق بوجوده على النعت الذي وصف به نفسه مما يليق بكبريائه وعظمته، والإيمان بالله هو الخضوع له والإتيان بما أمر به وإجتنب ما نهى عنه، والصلاة علامة الإيمان وشعاره وبها تتحقق أخوة المؤمنين وإجتماعهم وتفاهمهم بلغة القلوب.

لقد جعلها الله عز وجل سبيلاً للتأخي وإحتواء القادمين الجدد وإنضمامهم تحت لواء الإسلام، قال تعالى ﴿ فَإِذَا تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾^(٢).

وتعتبر الصلاة حرصاً دائماً على روح الإيمان والتخلي عن النفاق والرذائل لما فيها من رادع نفسي عن الذنوب والشرك ونزعة العصيان أو التمادي في المعصية.

فالصلاة ساعة نماء للبصيرة وتجدد لملكة التفكير بالخلق وحقيقة الإنسان

(١) الميزان ٣٥/١ عن الكافي.

(٢) سورة التوبة ١١.

كمخلوق مكلف، فهي آية الإنسانية ورمز سعادتها وسر من أسرار دوام الحياة على الأرض وتعاهد القيم الأخلاقية والدينية وتوارثها بين الأجيال. ولقد ذكر الله أحد الانبياء وأثنى عليه لأنه كان يحث أهله وأفراد أسرته على الصلاة والالتزام بأدائها، قال تعالى ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (١).

الصلاة والصحة

معاياة البدن من العلل والأمراض سبب للتمتع بالحياة وزيادة ايام العمر، وقد أولى الإسلام صحة البدن ونظافة الجسد أهمية شرعية وجعل لها قواعد وأحكاماً وكانت بعض وجوها مقدمات واجبة للعمل العبادي تخضع فيها الاعضاء إلى عملية تنزيه وتنقية وتنصف بالدقة ويشترط فيها بلوغ مرحلة التمام والإنجاز.

ففي كثير من الحالات يأتي الغسل لجميع أعضاء الجسم واجباً لا يمكن العدول إلى غيره إلا عند الضرورة وساعة العجز وتعذر الوصول إلى الماء، وبالوصول عليه تزول أسباب الطهارة البدلية بالتميم بالتراب. ولما كان جلد الإنسان طريقاً لنقل العدوى وخاصة تلك الأعضاء المكشوفة منه جاء الوضوء وغسل الوجه فيه واليدين والأعضاء الأخرى عدة مرات في اليوم وقاية للإنسان من العدوى ومنعاً لإنتقال الأمراض بإزالة ما وصل إلى تلك الاعضاء وما حولها من اوساخ، ونظافة فتحة الفم والانف والاذن من مكروبات العدوى ونحوها من اسباب المرض الخارجية.

ويجدد الوضوء نشاط الإنسان وجهازه العصبي ويساعده على التفكير

١١٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وسلامة الرأي ويبعده عن الخمول وأسباب الكسل ويجعله اكثر استعداداً للعمل وتحمل مشاقه، وفيه تنبيه لما في الجلد من العصب لينتقل أثره إلى بقية الأعصاب وغدد الجسم فينشطها، وإلى الأعضاء والأجهزة الداخلية فتقوم باداء وظيفتها وإفراز ما يحتاج اليه البدن.

ان عالم الضوء مرحلة تفصل بين الدنيا وهمومها ومشاغلها من جهة وبين الفعل العبادي المطلق من جهة أخرى، ولما كان الأخير يحتاج إلى حالة انقطاع إلى الله عز وجل وصدق في التوجه إلى طاعته والوقوف - بدنأً وقلباً وروحاً - بين يديه تعالى، يأتي الضوء ليساهم في خلق حالة إستعداد نفسي في هذا البناء العظيم في حياة العبد وموقفه يوم القيامة، ويساهم في إبتعاده عن مشاغل الدنيا وما فيها من ضغط على صحته وإرباك لعافيته ودورته الدموية.

وللصلاة فوائد كثيرة تتعلق بصحة الإنسان الجسمية والنفسية منها تجديد الدورة الدموية وتنشيط النفس وإزالة الخمول وطرده الكسل وفتور الاعضاء، ولقد اثبت الطب الحديث أن الصلاة تساعد على خفض الضغط العالي، ومن المناسب إرشاد مرضى الضغط العالي الى المحافظة على أداء الصلاة وإقامتها والإتيان بافعالها بتؤدة وأناة، وإعتبار أفعال الصلاة منشطة للهضم وجهازه أمر يؤكد طب الأبدان والوجدان.

وقد أظهرت الدراسات الطبية إنخفاض ضغط الدم أثناء الصلاة الأمر الذي يساهم في إعانة القلب على أداء وظيفته ويؤدي إلى الحد من زيادة ضرباته وكثرتها، وتزليل توتر الجهاز العصبي لتخلصه ساعتها من اسباب التوتر وحالته، وتحد حالة السكينة والخشوع بين يدي جبار السماوات والارض من ثورته، ويشفيه الذكر والخضوع للباري من إضطرابه وما يسببه من أمراض كالأرق الذي ثبت أن الصلاة علاج له.

ولصلاة النوافل في ليالي شهر رمضان أهمية خاصة في هذا الباب اذ أن الركوع والقيام يقوي عضلات الظهر والمعدة مما يساعد في إزالة ما على

معالم الإيمان / الجزء الثاني ١١٧

جدار المعدة من دهون وشحوم، أما السجود فيقوي عضلات الفخذين والساقين، ويسهل وصول الدم الى أطراف الجسم ويقوي جدار المعدة وينشط حركة الأمعاء ويساهم في الوقاية من مرض تمدد المعدة بما يسببه من تقلصات في عضلاتها وحركة في الحجاب الحاجز.

وتعتبر الصلاة فاتحة للشهية بما تتضمنه من حركات وأفعال بدنية متجانسة في تناسقها وما تخلفه من صفاء النفس وإرتقاء في توجهات مداركها للتفاعل بانسجام مع نصيحة الاطباء للإنسان بعدم تناول الطعام عند الإجهاد أو في حالة الإرهاق وتعب الأعصاب وضرورة الحرص على وجود فاصل زمني للراحة والهدوء والتخلص من العناء كمرحلة تسبق تناوله، والصلاة هنا سلاح ذو حدين وهي الأنفع للإنسان في تهيئة بدنه لإستقبال الطعام، وفيها بالعرض رياضة بدنية في وقار وإتزان تتحرك ساعاتها الأطراف لتبلغ في سريان تأثيرها جميع العضلات والمفاصل والعظام التي يتكون منها الجسد.

ان الوقوف بين يدي الله عز وجل خمس مرات في اليوم سلاح وحصانة من العقد النفسية وأعراضها وما تؤدي اليه من إخفاق في الحياة أو قنوط واكتئاب، وتبعد الصلاة الإنسان عن اليأس والكبت وما يسببه من أمراض فهي تنمي عنده ملكة الصبر وإرادة التوكل وحالة من الإستقرار النفسي في مواجهة مشاكل الحياة وتحديات الأيام وتخلق في نفسه العزيمة على الإستمرار في العمل الدؤوب، وهو يعلم أن الأمر كله بيد الله ، إذ نذر نفسه للوقوف خاشعاً بين يديه سبحانه فلا يجد الهم والغم والحزن في نفسه مستقراً ولا مقاماً ، فاذا داهمه أمر فزع أو تعرض إلى ظلم أو جور سارع إلى الصلاة وتفويض الأمر إلى الله عز وجل.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا حزبه أمر - أي إشتد عليه - إلتجأ إلى الصلاة مبادراً ليفر إلى الله عز وجل، وترى المسلمين إذا نزلت بهم نازلة بادروا بالنداء إلى صلاة جامعة لما في صلاة الجماعة من

آفاق روحية ونفسية مشرقة.

وفي أوقات الصلاة وتحديد ساعة الفضيلة لكل فرض منها منافع في صحة الانسان وأسباب سعيه وكسبه ويظهر تأثيرها على سلامة البدن والنفس في الواقع اليومي للانسان واضحاً، فصلاة الصبح طرد لكسل وسكر النوم عن الجسم وإستثمار لنقاء الجو في بداية نشاطه ساعات النهار والتفكر بخلق السموات والأرض عند الفجر وساعة شروق الشمس، وعن الامام الباقر عليه السلام قال: "وقد نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى يعني من النوم"^(١).

وتحل صلاة الظهر ساعة زوال الشمس عند الظهيرة وسيطرة التعب والعناء على البدن لتنتزعه وتخلصه من آثارهما الجسمية والنفسية ليعيش ساعة مباركة في الذكر والتسبيح في زكاة بدنية مقدره وثابتة، لتكون مصداقاً للقاعدة العقائدية وهي ان الزكاة نماء وزيادة، وتحل الصلاة مرة اخرى وبصفة الوجوب الجديد المستقل بصلاة العصر وقد اخذ التعب ينتشر بسرعة في البدن ويدب الكسل في أعضائه وقد اشرف يوم العمل على نهايته.

وتأتي صلاة الغروب بهالة قدسية وهيبية وجلالة خاصة لتختتم يوم الانسان ونهاره بالإنتقطاع إلى الله عز وجل ولتتعانق صلاته وفعله العبادي مع رحيل الشمس توديعاً لها وإستقبالاً لسكون الليل وعالمه الخالي من التعب والعناء.

وتطراً صلاة العشاء كثرة ملكوتية في بدايات الليل فيواجه العبد ما حوله من ظلمة بتكبير الله وتجديد الشهادتين ويستقبل سكون الليل باعلان الإخلاص في التوحيد ليكون خاتمة يوم مبارك، ويتخذة وقاية وسلاحاً لطرده الأوهام والأرق ساعات الليل وما يذهب النوم عن العين من أحلام

(١) علل الشرايع ٤٧/٢.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

١١٩

يقظة وآمال ومشاريع وغيوم تبددها الصلاة باعتبارها عنواناً للتوكل على الله والرضا بقضائه وقدره لتعيش النفس ساعات الليل في طمأنينة وسلامة بال وصفاء ذهن، وتتغشى البدن الراحة والسكينة والطمأنينة وتكون لصلاة العشاء ونافلة الليل منافع توليدية وبركات تترشح على اليوم التالي بجلب رزق أو دفع بلاء.

وقد ثبت في العلوم العقلية ان تكرار الفعل يؤدي الى حصول الملكات، لذا فان وجوب التلاوة في الصلاة آية إعجازية لا يعلم منافعها وغاياتها الا الله تعالى، وان كان شطر من أسرارها يتجلى في الواقع اليومي والعملي للمسلمين، ويظهر في مجتمعاتهم، والتكرار في الصلاة متعدد ، وهو على وجوه:

الأول: تكرار التلاوة مع الإتحاد والتعدد في الآيات، إذ تتحد وتتشابه قراءة سورة الفاتحة في الركعة من الصلاة، بينما تأتي قراءة سورة وآيات إختيارية بعدها، وفيه مسائل:

الأولى: تنمية ملكة الحافظة عند المسلم والمسلمة.

الثانية: القراءة في الصلاة حرب على النسيان، وطرده له من الأذهان.

الثالثة: تبعث القراءة على الحرص على إستحضار الآيات القرآنية،

وتلاوتها على الوجه الأتم والأكمل.

الرابعة: في القراءة حث على التعلم، ودراسة القرآن.

الخامسة: يترشح عن القراءة التدبر في معاني الآيات القرآنية.

السادسة: الإلتفات الى وجود أسرار في تقسيم القرآن الى سور وآيات.

السابعة: إتصال وإستدامة الإحتراز من السيئات وفعل الفواحش، قال

تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١).

الثامنة: الصلاة دعوة للوحدة الإسلامية وتعاهدها سواء في كيفية أدائها

(١) سورة العنكبوت ٤٥.

١٢٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

أو في وظائفها أو في صلاة الجماعة، وما فيها من مضامين الوحدة، ومن الآيات ان موضوع الوحدة في الصلاة، هو الإمتثال والخضوع والخشوع لله تعالى.

الثامنة: الصلاة من مصاديق التقوى التي جاءت بها الآية السابقة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فتلاوة القرآن في الصلاة آية من آيات التقوى في الأرض، ينفرد بها المسلمون على نحو يومي متجدد، ففي كل يوم يعلن المسلمون إمتثالهم للأوامر الإلهية، وتصديقهم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقول والفعل.

التاسعة: تتجلى آثار التلاوة اليومية المتكررة في الصلاة على منطلق وكلام المسلم والمسلمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإجتنب الأخلاق المذمومة، والألفاظ القبيحة، والغيبة والنميمة.

العاشر: في أداء الصلاة اليومي مجاهدة في الله وجذب النفس الى الصلاح والهداية، وقهر النفس الشهوية.

الحادية عشرة: يمنع تكرار الصلاة من الكسل والقنوط، ويتجلى هذا المنع في ذات الصلاة وادائها، وكيفية، وأوقاتها، فمن الآيات ان صلاة الصبح بعد طلوع الفجر، لتطرد النعاس من الإنسان، وتبعث محل النشاط، وتجعل المسلم يقبل على يومه بغبطة وسعادة وأمل بانجاز الأعمال والسعي في الحوائج الدنيوية والآخروية، وكذا الصلوات اليومية الأخرى، الظهر والعصر والمغرب والعشاء فهي تنفي الكسل، وتبعث على العمل وتحببه الى النفس.

الثانية عشرة: في تكرار الصلاة إستدامة لحال الفتوة والقوة في البدن عند المسلم والمسلمة، فتلازمهما الصلاة من حين سن التكليف لتكون صاحباً كريماً لا يغادرهما يشعران معه أن الحياة اليومية تتجدد بذات الصورة الإيمانية.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

١٢١

الثالثة عشرة: تكرر الصلاة يومياً يساهم في تنمية ملكة غض البصر الى ما حرم الله، إذ ينقطع المسلم والمسلمة في الصلاة الى الله تعالى، ويكون بصرهما الى محل السجود ونحوه، وتنعكس عليه أمارات وآثار الخشية من الله تعالى في ساعات النهار والليل الأخرى، فمن الآيات في الشريعة ورود قوله تعالى ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ﴾^(١)، وتأتي الصلاة كفريضة عبادية لتؤدي طوعاً وانطباعاً إلى الإمتثال للأوامر الإلهية بغض البصر، فيشترك القرآن والسنة النبوية والفريضة العبادية في ماهية فعل المسلم.

الرابعة عشرة: بخصوص المعنى اللغوي للصلاة، هناك وجوه:

الأول: على القول بأن اتيان المسلم للصلاة يجعله دعاءً، لا يمر عليه يوم او شطر من يومه وليله من غير دعاء، بالاضافة الى تضمن القراءة الواجبة في الصلاة الدعاء، كما في قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ومن اسماء سورة الفاتحة التي تقرأ في كل صلاة واجبة سورة الدعاء.

الثاني: على القول بان اصل الصلاة هو التعظيم، فان اداء الصلاة اليومي المتكرر ينمي عند المسلم والمسلمة ملكة التعظيم لله تعالى، والتقدير لمقام الربوبية، ويمنع من تسرب الشك والريب الى النفس.

الثالث: وعلى المعنى الذي يفيد أن أصل الصلاة هو اللزوم فان تكرر الصلاة كل يوم يؤكد لزوم تعاهد المسلمين والناس جميعاً عبادة الله على نحو يومي، وعدم التفريط بها.

الرابع: وعلى القول بان الصلاة مشتقة من (المصلي) والمراد منه السابق المتقدم، فان تكرر أداء الصلاة يجعل المسلم يشعر بتفضيل الشريعة الإسلامية من بين الملل، وان أداء الصلاة طريق المسارعة الى دخول الجنة وهو من التسابق في الخيرات.

الخامس: ذكر ان الصلاة من صليت العود بالنار ليكون لينا، وفي تكرر

(١) سورة النور ٣٠.

١٢٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الصلاة تأديب للنفس الإنسانية وبقائها في منازل الخشوع والخضوع.
الخامسة عشرة: الصبر منزل من منازل السالكين، ومقامه من مقامات الأولياء الصالحين، ويحتاج الى معارف نظرية، وحال من التقوى تكون عوناً وسلاحاً في سبيل الصبر.

ومن اهم المواضع التي تنمي ملكة الصبر الصلاة، قال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وكما ان الصلاة مدرسة النبوة فكذا الصبر، وقد شرف الله تعالى الإنسان بملكة الصبر، وتأتي الصلاة اليومية لتكون لجوء الى الله، وصبراً عن زينة الدنيا والفواحش، والصبر في جنب الله، فلو داهمت مصيبة أو أمر مفزع المسلم فانه يلجأ الى الصلاة طوعاً وقهراً لأن أوقات الصلاة اليومية الخمسة تستوعب النهار واطراف الليل لتكون باعثاً على السكينة والتحمل والفرع الى الله تعالى.

ومن الآيات أن اكثر البلاء والأذى يأتي في النهار وساعات العمل لذا كانت اكثر الفرائض اليومية في النهار وأطرافه، لتكون دعوة وموضوعاً للصبر ومجاهدة النفس، وطرده الكدورات الظلمانية، وسبباً لإقتباس المدد من صلاة الجماعة، وإتيان المسلمين الصلاة واللجوء المشترك الى الله تعالى.

ويسبح القلب في عالم الملكوت، ويتدبر الآيات حال الركوع والسجود، ويدرك معها الانسان ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وقف رجل على الشبلي^(١) فقال أي صبر أشد على الصابر، فقال الصبر في الله، قال لا، قال الصبر لله، قال لا، قال الصبر مع الله، قال لا، قال فأيش، قال الصبر عن الله

(١) الشبلي ٣٣٤/٢٤٧هـ، أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي ناسك كان في مبدأ امره واليا في دناوند من نواحي رشتاق الري ثم ترك الولاية وعكف على العبادة وإشتهر بالصلاح، له شعر قارب فيه المتصوفة، أصله من خراسان، ومولده ووفاته ببغداد.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

١٢٣

فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه أن تتلف^(١).

قوله تعالى ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

بيان لصفة المتقين في العطاء وما يجب عليهم من الإنفاق في سبيله، فنسبة الرزق إلى الله عز وجل باعتبار انه نازل من لدنه سبحانه ولا يصل منه إلى العبد إلا فضلاً واحساناً منه تعالى، وإدراك هذه الحقيقة الكونية والتكوينية والتشريعية يدخل ضمن الإقرار ان الله هو الرازق الكريم وان بيديه مقاليد الأمور.

بالإضافة إلى ما فيها من الانقطاع إلى الله عز وجل والتطلع الدائم إلى شأيب رحمة وأبواب فضله وإدراك ضرورة التزام التقوى سبيلاً إلى مرضاته ونيل إحسانه تعالى من غير إلتفات إلى غيره، وفي أدعية الصحيفة السجادية دعاء بعنوان (إذا قتر عليه الرزق) وأوله: "اللهم انك إبتليتنا بأرزاقنا بسوء الظن، وفي آجالنا بطول الأمل، حتى التمس ارزاقك من عند المرزوقين".

ولغة العموم في الآية ظاهرة فمن كمال صفة التقوى الإنفاق مع أن الناس مختلفون في مقادير الرزق لتباين منازلهم وأرزاقهم، وشطر من أولياء الله وعباده الصالحين قدر عليهم الرزق مع حسن ما يتقربون به إلى الله عز وجل من الأعمال الصالحة لحكمة جارية في الخلق وعلمه تعالى بما يصلح عبده المؤمن، وليكون عبرة وموعظة للنفس وللآخرين على اختلاف مشاربهم وسبباً في الإبتلاء والإشتغال بطلب ما عند الله عز وجل، ففي كلام لأمير المؤمنين عليه السلام قال: "ان الله يبتلي العبد وهو يحبه ليرى تضرعه".

فهل الإنفاق واجب على كل متق، أم أن الذين قدر عليهم الرزق من المتقين خارجون من النعت، أو من الأمر المتوجه في الآية وبدليل آيات

(١) ابن عساكر / تاريخ مدينة دمشق ٦٦/٦١ .

١٢٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

قرآنية أخرى وتفسير وبيان من السنة النبوية الشريفة.

الجواب: ان الأمر بالإنفاق في الآية جاء على نحو الإطلاق وليس من دليل على خروج بعض المتقين بالتخصيص أو التخصيص وقد يقول قائل ان الذي قدر عليه رزقه يكون من السالبة بانتفاء الموضوع او انه يخرج بقيد (مما رزقناهم) فما دام لم يرزق ما زاد على الكفاية فلا يشمل الإطلاق الجواب ان الآية بشاره وضمن لكل متق بالرزق وإمكان الإنفاق منه سواء للسعة فيه او للقناعة والكفاف في النفس، او عند تحقق سبب الإنفاق والقدرة عليه ولو على نحو صرف الطبيعة والمرة الواحدة وللمعنى الأعم للإنفاق وانه لا ينحصر بالمال والأعيان بل يشمل العلم، ومن الشواهد ما جاء في سورة الدهر في اهل البيت عليهم السلام وتخليدهم باطعامهم على نحو العموم المجموعي للمسكين واليتيم والأسير^(١).

ومن وجوه الإنفاق المذكور في الآية:

١- الزكاة المفروضة، حكى عن ابن عباس.

٢- نفقة الرجل على اهله، عن عبد الله بن مسعود.

٣- الزكاة حينما لم تسم يشار اليها بهذه الآية وشواهدا من القرآن،

عن سعيد بن جبير.

٤- مما أعطيناهم وملكتناهم ويخرجون على وجه الطاعة.

٥- تأدية الزكاة احتساب لها.

٦- وورد عن الامام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أي: "مما علمناهم ينبئون، وما علمناهم من القرآن يتلون".

ليان ان الإنفاق لا ينحصر فقط بالمال بل يتعلق أيضاً بالقسم الثاني من الرزق وهو الذي يخص القلوب كالمعارف والعلوم وغيرها من المعنويات،

(١) انظر سورة الدهر ٧-١١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٢٥

وفي خبر محمد بن سنان^(١) عن المفضل قال: "كنت عند الامام جعفر الصادق عليه السلام فسأله رجل في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال له: الزكاة الظاهرة أم الباطنة تريد؟ فقال: أريدها جميعاً، فقال: أما الظاهرة ففي كل ألف خمسة وعشرون، وأما الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو احوج اليه منك" ^(٢).

لا تعارض بين الوجوه الستة المتقدمة في تفسير الآية الشريفة، وفي الآية تأديب إلهي لأهل الإيمان في أبواب الإنفاق والصدقة والإحسان على الآخرين، بالإضافة لما لها من الوظائف الإصلاحية الأخرى التي نضيفها في المقام وهي:

١- اجتناب موارد الحرام والإسراف في ابوابه ومقدماته، بالإنفاق بالحلال والبذل في الخيرات وصلة الرحم ومواساة المؤمنين ونحوها مما يكون حاجزاً عن الحرام أو سبب إعراض وانشغال عنه.
٢- تعاهد منازل التقوى، لأن الإنفاق في سبيله تعالى يطفى غضبه المتعقب لفعل المعصية.

٣- السعي الدؤوب في السبل المؤدية إلى الجنة، والإبتعاد عن الطريق الذي يؤدي إلى النار والعذاب وهو طريق الشح وحجب الحقوق الشرعية. وفي موثقة مسعدة بن صدقة عن جعفر الصادق عن آبائه عليهم السلام: "ان أمير المؤمنين عليه السلام سمع رجلاً يقول: أن الشحيح أعذر من الظالم فقال له: كذبت أن الظالم قد يتوب ويستغفر ويرد الظلامة إلى أهلها، والشحيح إذا شح منع الزكاة والصدقة وصلة الرحم وقري الضيف، والنفقة في سبيل الله وابواب البر وحرام على الجنة أن يدخلها

(١) اختلف في محمد بن سنان فقد اعتبره الشيخ ممدوحاً حسن الطريقة، ولكن ضغفه جماعة كالنجاشي والمقيد والشيخ الطوسي وابن عقدة، وعده الفضل بن شاذان من الكذابين، وربما كان تضعيفه بسبب قوله عند موته: كل ما روته لكم لم يكن لي سماعاً وإنما وجدته.

(٢) الكافي ٥٠٠/٣.

شحيح" (١).

٤- رفعة الإسلام والمساهمة بنشر ألويته بالسجايا الحميدة والخصال الكريمة لمعتنقيه خاصة الذين يشار اليهم بالتقوى، أي أن الإنفاق في سبيل الله دعوة إلى الإسلام وتثبيت لدعائم أركانه، وقد ورد عن الامام جعفر الصادق عليه السلام انه قال: "ما محق الإسلام محق الشح شيء، ثم قال: أن لهذا الشح ديباً كديب النمل وشعباً كشعب الشرك".

٥- تذكير بالحقوق وموعظة، ونهي عن منع الحق، وبيان اهمية الإنفاق باعتباره صفة وعلامة لمن يتقي ربه، بالإسناد عن هشام بن الحكم عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "من منع حقاً لله عز وجل أنفق في باطل مثليه".

بحث بلاغي

لقد تقدم المفعول على الفعل في هذه الآية بخلاف تقديم الفعل على المفعول بقوله تعالى ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾، وقال الزركشي في تأخر الفعل: (لتوافق رؤوس الآي قاله ابو البقاء) (٢).

وقال الزمخشري: قدم المفعول للإختصاص.

ولكن التقديم أعم من أن ينحصر بالسببين أعلاه، فالبلغ من الناس يلتجأ الى التقديم والتأخير ليتوافق عنده نظم الكلام او سجعه مع ادراكه لما فيه من التكلف.

أما القرآن فهو الكلام المعجز فلا يكون التقديم لأغراض لفظية فحسب، بل لا بد له من اسباب وغايات سماوية يعجز البشر عن ادراك

(١) الوسائل ٦٦ / ٢ طبعة حجرية.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٦٣ / ١، وأبو البقاء هو عبد الله بن الحسين العكبري المتوفي سنة ٦١٦ هجرية، وكتابه (إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن).

معالم الإيمان / الجزء الثاني

١٢٧

كنهها، ولكنه قد يتوصل بالتحقيق والبحث في علوم التفسير والتأويل الى إستظهار علوم جديدة من القرآن وحقائق عرفانية مستنبطة.

فتوافق رؤوس الآي وما يسمى بالفواصل لأنها تفصل بين كلامين وهي نوع إستراحة بينهما انما جاءت للإعجاز القرآني وبيان الأهمية لكل منهما على نحو الاستقلال، بالإضافة الى المعاني الخاصة بالآية بلحاظ مضامينها القدسية وظاهرها وتأويلها ودلالاتها السياقية.

فالقول بتوافق رؤوس الآيات لا يصلح ان يكون علة تامة لهذا التقديم، او أنه من بين الوجوه الأصلية في إعجاز هذا التقديم، بل انه أمر عرضي مترشح عن الدلالات الأخرى، وهو مع كونه عرضي توليدي فإنه إعجاز آخر يدل على بلاغة القرآن.

وكذا الكلام بالنسبة للقول بأن تقديم المفعول للإختصاص، فالآية تدل على مدح الذين يقومون بانفاق بعض أموالهم، وهي في مفهومها تدم طرفي الإفراط والتفريط، إنفاق كل المال او الإمساك وعدم الانفاق.

لذا جعلت الزكاة والخمس ميزاناً ومداراً للإنفاق الشرعي والخروج به عن الذم، من غير ان يتعارض مع الصدقات المستحبة بقدر او حالات مناسبة بل الآية تستوعبه، ويدل توكيد الرزق في باب الإنفاق على اعتبار قصد القربة في الإنفاق، فهو شرط في الإنفاق الواجب كالزكاة لأنها عبادة ولا تتقوم العبادة الا به، كما يجب في الصدقات المستحبة.

لقد ورد قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في نحو ست آيات من القرآن، جاءت هنا في أول سورة البقرة ثم جاءت الثانية في سورة الأنفال، وقد إقترنت في أربع منها باقامة الصلاة، بالإضافة الى الملازمة في القرآن بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وبينت الآيات وجوه الإنفاق وانه يشمل السر والعلانية في الإعطاء، ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

قوله تعالى
﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ الآية ٤.

الإعراب واللغة

والذين: الواو: حرف عطف، الذين: اسم موصول معطوف على الموصول الأول.

يؤمنون: فعل مضارع مرفوع، والواو: فاعل، والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول: بما: جار ومجرور متعلق بيؤمنون. انزل: فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر فيه تقديره (هو) يعود على ما، والمراد القرآن، والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول.

إليك: جار ومجرور متعلق بانزل، وما: الواو: حرف عطف، (ما): اسم موصول بمعنى الذي، معطوف على (ما) التي تقدمت في (بما)، وبالآخرة: الواو: حرف عطف، وبالآخرة: جار ومجرور، يوقنون: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الإسمية معطوفة على الجملة الفعلية. النزول: الهبوط والإنحدار من علو الى سفلى، يقال نزل ينزل نزولاً،

معالم الإيمان / الجزء الثاني

١٢٩

وقد يتعدى ويحمل معنى الحلول فيقال نزلهم ونزل عليهم ونزل بهم.
والآخرة عالم ما بعد الموت ومنها عالم البرزخ وان كان المتبادر هو يوم
القيامة والخلود المتصل به حيث الجنة والنار.

وقد ورد ذكر الدار الآخرة في القرآن مائة واربع عشرة مرة بعدد
سور القرآن وكان كل سورة منه مدخل الى الجنة وأمان في الآخرة،
وسُميت بالآخرة لانها متأخرة زماناً عن الدنيا، ولا حياة أخرى بعدها.
يوقنون: يعلمون. واليقين هو العلم وانعدام الشك، وفي الإصطلاح
التصديق الجازم والحكم الواقعي البعيد عن التقليد، كما أنه الأهم
والأرجح من فرعي التصديق وهو الاعتقاد بالشيء او التصور المقرون
بالحكم الذي يعني ترجيح احد طرفي الخبر وهما الوقوع واللاوقوع، وفي
اليقين نفي للطرف الآخر، وفي الظن وهو الفرع الثاني للتصديق وجود
ضعيف له.

واليقين علم حصولي، لذا لا يوصف علمه تعالى باليقين لان علمه
سبحانه حضوري، والأشياء جميعاً حاضرة عنده لا تخفى منها عليه خافية،
وترى رسالات الانبياء والكتب السماوية المنزلة طريقاً مباركاً ووسيلة
وسبباً لتحصيل اليقين ونيل مراتب الشرف والرفعة بصدق العبودية لله
تعالى.

وأجاز الكسائي حذف الألف في اليك، وان يقرأ (وما أنزلنيك) وشبهه
بقوله تعالى ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾^(١). قال ابن كيسان: ليس مثله، لان
النون من لكن ساكنة واللام من أنزل متحركة.

في سياق الآيات

لسياق هذه الآيات معان مركبة خصوصاً وانها بداية وافتتاح سورة

(١) سورة الكهف ٣٨.

١٣٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

البقرة التي هي أطول سور القرآن وشرفها الله عز وجل أيضاً بموضوعها وموضعها في القرآن بعد سورة الفاتحة فلا بد من تضمينها لدلالات خاصة، لذا تعلق بموضوعين أساسيين في الإرادة التكوينية والتشريعية وظهرت التداخل والإتحاد بينهما، فالكتاب من عالم الأمر، والمتقون من عالم الخلق وكل منهما اشرف افراد جنسه، وعالم الأمر أشرف من عالم الخلق فتبين هذه الآية الكريمة أهم سمات اليقين وهو الإيمان المطلق بالكتب المنزلة.

وبعد مجيء الآية السابقة بلزوم الإيمان بالغيب جاءت هذه الآية بالتفصيل والبيان ومنع اللبس والجهالة، وهذا من إعجاز القرآن ان تأتي الآية في حكم ثم تأتي الآية التي تليها بتفاصيل ذلك الحكم وبيانه بصيغ الترغيب .

وذكرت هذه الآية صفات ثلاثة أخرى للمتقين وهي:
الأولى: الإيمان بما انزل الله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

الثانية: التصديق بالكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء السابقين كصحف إبراهيم وزبور داود والتوراة والإنجيل.
الثالثة: التصديق بعالم الآخرة والحياة بعد الموت.

وافتححت هذه الآية بالاسم الموصول الذي افتتحت به الآية السابقة (الذين) للتداخل والملازمة ، وإتحاد السنخية بين الصفات الواردة في الآية السابقة والواردة في هذه الآية، ولإجتماع هذه الصفات بالمتقين، وكل مسلم يؤمن بالغيب ويؤدي الفرائض، ويصدق بالقرآن والكتب السماوية السابقة، ويؤمن بالله وباليوم الآخر، لقد جعل الله الإنسان مركباً من الروح والبدن.

فجاءت هذه الآية للإخبار عن إشتراكهما في صفة التقوى وليأتي أداء الفرائض عن إيمان وإقرار بالعبودية لله تعالى.

إعجاز الآية

كما جاءت الآية السابقة بأشرف الوظائف العبادية البدنية تضمنت هذه الآية الإيمان العقائدي وبينت أهمية الإيمان بالكتب السماوية المنزلة قبل القرآن بعرض واحد مع الإيمان به مما يعني وجود دروس وعبر وحكمة في هذا التشابه والاتحاد والتداخل وان كان على نحو الإجمال.

وأظهرت الآية الملازمة بين الإيمان بالقرآن والكتب السماوية وبين اليقين والقطع بعالم الآخرة والحساب يوم القيامة، ومن إعجاز الآية الملازمة ووحدة الموضوع في الإيمان بالقرآن والكتب السماوية الأخرى فيخرج من ربة الإيمان غير المسلمين الذين لم يؤمنوا بالقرآن.

ومن إعجازها تقديمها للقرآن على الكتب الأخرى في مراتب الإيمان مع انه آخرها نزولاً لبيان عظيم منزلته وعلو شأنه وكمال علومه خصوصاً ان الإيمان به يعني بالدلالة الإلتزامية الإيمان بالكتب السماوية السابقة لأنه أخبر عن نزولها وتضمن موضوعاتها، ففي الآية التشریف الأكمل والأتم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من عند الله تعالى.

وفيها بيان للزوم الإيمان بالمعاد الجسماني وإحياء الموتى وجمع العظام وهي رميم .

لقد نزل القرآن بين قوم مشركين، وآخرين من أهل الكتاب وينظر الكفار الى اليهود في المدينة على انهم اهل الكتاب وعندهم علم بالنبوة والتنزيل وأخبار وعلامات نبي آخر زمان فيأتون لهم فيسألونهم، فجاءت هذه الآيات جامعة مانعة، جامعة لصفات المتقين، مانعة من دخول غيرهم معهم، جليلة بلسان عربي مبين، وهو من أسرار إبتدائها بالحروف المقطعة (الم) والتي هي كالمقدمة لها التي تدعو الى الإنصات لصفات المتقين التي لاتقبل التردد او التجزئة والتقسيم.

ويمكن تسمية الآية بآية (انزل اليك) ويرد قوله تعالى بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ في القرآن لإفي

هذه الآية.

الآية سلاح

الآية وصف لحال المسلمين وبيان لجملة من أهم ما يجب عليهم الإعتقاد به، انه الصورة المطلوبة والكيفية النفسانية لقبول آيات القرآن والاستجابة للأحكام، وفيها أمر بوجوب الإيمان بالكتب السماوية وان جاء على نحو الخبر والإطلاق الشمولي الذي يعني الإستغراق والإستيعاب لجميع الأنبياء وينحل هذا الايمان بعدد الأنبياء، وظاهره كفاية العلم الإجمالي دون التفصيلي الذي لم يتعبدنا الله تعالى به .
لقد أراد الله عزوجل للمسلمين ان لا يقابلوا أهل الكتاب بالمثل، فاذ جحد اليهود والنصارى بنزول القرآن فان المسلمين يؤمنون بنزول التوراة والإنجيل، وفي هذا الإيمان وجوه:

الأول: تصديق اليهود بنزول التوراة من عندالله عليه.

الثاني: لوم اليهود لإنكارهم نزول الإنجيل من عندالله.

الثالث: تصديق النصارى بنزول الإنجيل من عندالله.

الرابع: ذم الكفار الذين ينكرون نزول الكتب السماوية مطلقاً.

الخامس: ذم الذين ينكرون نزول القرآن من عندالله، مع ما فيه من الدلالات والبراهين التي تؤكد صدق تنزيله.

وهذه الآية واقية ذاتية للمسلمين، ودعوة سماوية للتسليم بنزول الكتب السماوية السابقة من عندالله، مع بيان موضوعية القرآن في عالم التنزيل لذا جاء تقديمه في الآية باعتبار الإيمان به واجب بالذات ومقدمة ومدخل للإيمان بالكتب السماوية الأخرى.

ومن خصائص المسلمين إنفرادهم بالإيمان بجميع الكتب السماوية السابقة، وهو من وجوه تفضيلهم على الأمم الأخرى، وعلل إخراجهم للناس جميعاً .

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٣٣

وللإيمان بالقرآن في الآية أطراف:

الأول: الإيمان بان النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم تلقى الوحي من عند الله عز وجل.

الثاني: ان القرآن كتاب نازل من السماء.

الثالث: انحصار تنزيل الكتب من السماء بالله تعالى، فلا أحد غير الله عز وجل ينزل شيئاً من السماء سواء كان كتاباً أو وحياً أو ماء أو رزقاً أو آفة سماوية، وتنزيل القرآن أشرف وأعظم وأحسن وجوه التنزيل، وقد فاز به المسلمون ليكونوا أفضل الأمم.

الآية لطف

إبتدأت الآية السابقة بالإخبار عن بلوغ المسلمين مرتبة الإيمان بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ في دلالة على موضوعية الإيمان في نيل درجات التقوى والصلاح، ويتعلق الإيمان في هذه الآية يتعلق بالتنزيل، وخصصت الآية للإيمان مع تعدد مصاديقه، وواجب على كل مكلف ذكراً كان أو أنثى، وهي:

الأول: الإيمان بان القرآن كتاب الله عز وجل أنزله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: التصديق بالكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل والزيبور.

الثالث: اليقين والقطع بيوم القيامة، وأنه حق وصدق، ان بلوغ المسلمين مراتب اليقين فضل من الله ودليل على ان نزول القرآن وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لطف وخير محض، ورحمة دائمة على الناس.

مفهوم الآية

يدل مفهوم الآية على موضوعية البناء العقائدي في الإسلام وبساطته

١٣٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وعدم تعقيده، فنيل مراتب التقوى وشرف منازلها لا يستلزم الحصول على شهادات عالية في علوم الحياة، بل انها ملكة الايمان الموافقة للفطرة، والهداية وصدق النية وإخلاص العزم وعدم التفريط بالمبادئ. ومن أهم مقومات التقوى التصديق بالقرآن وما جاء به الأنبياء من عند الله تعالى، ان هذا الوجه من الايمان هو الأصل الذي تركز عليه مفاهيم الهداية العامة للخلق وان يروا أمورهم ويعرضوا أعمالهم على القرآن.

والآية في مفهومها دعوة للتزود بالحكمة وشحن للعقول وخطاب لأولي الألباب، وقال بعض الحكماء: أليس الرجل اذا منع عنه الطعام والشراب يموت؟ قالوا: بلى، قال: كذلك القلوب اذا منعت من الحكمة والعلم ثلاثة أيام تموت.

والآية وثيقة لتوكيد الصلة بين عالم التكوين وعالم التدوين، وتثبيت لهذه الحقيقة في صدور المؤمنين وحث على ظهورها في الخارج وأفعال العباد.

ومن مفاهيم الآية انها زجر عن الجحود، ونبذ للشرك وتقسيم للناس وفق قواعد عقائدية الى قسمين:

١- المؤمنون.

٢- الكافرون.

وقيدت الآية الايمان بالتصديق بجميع الكتب السماوية على نحو العموم المجموعي، ووجوب عدم ترك بعضها وحرمة الانتقال الى التخيير بينها، وتحذر من الجحود بالآخرة لأن الايمان بالمعاد ضرورة للعبد في دنياه وآخرته، وسبيل مبارك لتبصره بكنه الحياة وزخرفها وكيف انها دار غرور وعبور الى حياة الخلود.

لقد جمعت هذه الآية والآية السابقة بين مصاديق الايمان وهي:

معالم الإيمان / الجزء الثاني ١٣٥

- ١- الإيمان بالغيب.
- ٢- إقامة الصلاة.
- ٣- إيتاء الزكاة، والإنفاق في سبيله تعالى.
- ٤- الإيمان بما أنزل الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من آيات القرآن وأنه من عند الله تعالى.
- ٥- التصديق بما انزل الله على الأنبياء السابقين كالنوراة والزبور والإنجيل.

٦- الإقرار بالآخرة والتسليم بالبعث والنشور .
وجاءت الآية التالية لتؤكد ان افراد الإيمان هذه عنوان الهداية والرشاد وهي سبيل الفلاح والنجاح.
وتتضمن الآية السابقة ثلاث خصال تتعلق إحداها بالتصديق القلبي والإيمان بالغيب، واثنان بعالم الأفعال، وهما أداء الصلاة وإيتان الزكاة، اما هذه الآية فتتضمن ذات العدد من الخصال الا انها تتعلق كلها بالإيمان والهداية.

ومن الإعجاز في هذه الآيات لغة الخطاب فيها، فمع انها جاءت بصيغة الجملة الخبرية إلا انها تتضمن توجيه الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ و﴿وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وفيه توكيد على موضوعية نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الإيمان والتقوى، وشاهد على أهمية التصديق بالقرآن على نحو التحيين.

فقد خص التنزيل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالذكر بينما جمعت الآية الكتب السابقة بالإيمان بها باعتبارها نزلت قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم تقل الآية "قبل ما أنزل اليك" بل جاءت بذكر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالذات بلفظ قبلك، مما يعني عدم وجود تنزيل في أيام حياة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

١٣٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

غير القرآن، وانه ليس من شخص آخر يوحى اليه غيره اذ بعث على فترة من الرسل، وكان في أيام بني إسرائيل يبعث أكثر من نبي في زمان واحد وبلدة واحدة.

فجاءت هذه الآية لتبين حصر النبوة في أيامه صلى الله عليه وآله وسلم بشخصه الكريم، ولم تأت صفات المتقين بأية واحدة، بل جاءت بأيتين تؤكد كل آية إرتقاء المسلمين في المعارف الإلهية وان كل خصلة من خصال الإيمان مرتبة في التقوى، وإشراقة ورشحة من رشحات القرآن وانه الكتاب الجامع للأحكام الذي لا ريب ولا شك فيه، وهو الإمام لخير أمة يقودها نحو سبل النجاة في الآخرة التي يوقنون بها.

ويتفرع عن اليقين بالآخرة العمل لها، والإستعداد للقاء الله عز وجل لذا جاءت الآية السابقة بذكر عبادة المسلمين، ومواظبتهم على إقامة الصلاة وإتيان الزكاة.

إفادات الآية

يعتبر التصديق بما انزل الله عز وجل من الضروريات الأخلاقية والعقائدية والعقلية والشرعية، لقد نفخ الله عز وجل في آدم من روحه وأبى ان تنقطع الصلة بينه وبين بني آدم فقد أسكنهم الأرض على نحو مؤقت وللإختبار والإمتحان ففضل الله عز وجل وهيء لهم أسباب النجاح والفلاح والفوز في هذا الإمتحان بان انزل الكتب والآيات البيّنات من عنده تعالى .

وكان نزولها على الذين إجتباهم وإختارهم رسلاً وأمناء على كتبه في التبليغ والبشارات والإنذارات، والإيمان بالتنزيل سبيل الإرتقاء في مدارك العقل، وسلّم الكمالات بملاك المعرفة والإخلاص في العبودية، وهو عنوان الجذب والإتصال القصدي مع السماء والتعلق بما جعله الله عز وجل رحمة توليدية متجددة ، وحبلاً دائماً بينه وبين عباده.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٣٧

وتجعل الآية التصديق بالقرآن بعرض واحد مع التصديق بالكتب السماوية الأخرى ومن الإعجاز في الآية الجمع بين الإيمان بالكتب السماوية وبين اليقين والقطع بعالم الآخرة وما فيها من الحساب والثواب او العقاب .

وتبين الآية حب العبد لله وجذبة العبودية المحضة والإنقطاع الى الله، والإقرار بعظيم قدرته تعالى وحسن تدبيره وعظيم سلطانه ومظاهر جلاله وجماله بالعوامل المتعددة المتباينة ، وتبين الآية الارتباط والتداخل في الإيمان بين عالم الشهادة وعالم الغيب.

وتبعث الآية الشوق في النفس الى القرآن ومعرفة علومه وأسراره والإطلاع على ما فيه من الكنوز والمعارف وتصفه بانه منزل من عندالله تعالى

وجاءت الآية بالمعنى الأعم لمصاديق التنزيل ، فالواجب يقتضي الإيمان بكل آية من آياته وبما ثبت انه من الوحي المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلم تقل الآية "الذين يؤمنون بالكتاب او بالقرآن" بل جاءت بالبيان والتوكيد على موضوعية كل آية من آياته ودخولها فرداً وشرطاً في الإيمان وصفة من صفات المتقين

وتساهم الآية في حفظ القرآن وتعااهده وعدم وصول يد التحريف اليه لما فيها من الحث على الإيمان به والذي يتفرع عنه حفظ آياته والتصديق به والرجوع اليه وتدارسه، وصيانة حروفه وكلماته ومعانيه كأمانة من السماء جعلها الله بيد بني آدم.

فتصدي المسلمون بفخر وعز لتحمل أعباء مسؤولية حفظها، جيلاً بعد جيل ، وفي الآية نهي عن الشك بعالم الآخرة والحساب، وتدعو للإستعداد لهما لأن من أيقن بحدوث شيء تهيأ له وحرص على مقدماته واجتناب ما يؤدي الى الضرر.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بحرف العطف (الواو) للدلالة على إتصال هذه الآية بالآية السابقة التي تضمنت عدداً من صفات المتقين الذين جعل الله تعالى القرآن إماماً لهم ينير لهم دروب الرشاد، ويستنبرون بضياءه في مسالك الإيمان، وهو الطريق المستقيم الذي يقودهم ، فمن الأسرار في الطريق المستقيم الذي يتضرع المسلمون رجالاً ونساءً الى الله عدة مرات في الصلاة اليومية للهداية إليه (إهدنا الصراط المستقيم) أنه إمام يقود إلى مقامات الخلود في دار النعيم، لذا ورد أن القرآن هو الصراط.

ويبين العطف هنا وتعدد صفات المتقين المنافع العظيمة للقرآن في تهذيب النفوس، وترسيخ الإيمان في القلوب، وتوجيه أفعال الجوارح والأركان. والتنزه عن فعل السيئات والمعاصي.

لقد جاء العطف دعوة للمسلمين للصدور عن القرآن، والنهل من علومه، وإتخاذ إماماً في العبادات والمعاملات والأحكام، وإبتدأت هذه الآية بذكر خصلة حميدة أخرى للمتقين وهي الإيمان والتصديق بما أنزل الله تعالى على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتدل هذه الصفات على ان المسلمين هم المتقون ، وهو تشريف واکرام لهم.

لقد جاءت هذه الآية ايضاً بثلاث خصال للمتقين تتعلق بالإيمان والعقيدة لبيان موضوعية الإيمان في ماهية التقوى، ومن أراد بلوغ مراتب التقوى وهي أشرف المنازل فعليه الإيمان بالتنزيل.

وبدأت الآية بالإيمان بما انزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن ، ليخرج بالتخصص من الوصف بالتقوى من لم يؤمن بنزول القرآن.

وقد جاءت آيات كثيرة في ذكر المؤمنين من أهل الكتاب والأمم السابقة، ولكن القرآن خص المتقين بصفة وهي الإيمان بما أنزل على النبي

محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليكون بين المؤمنين والمتقين عموم وخصوص مطلق، فكل متق هو مؤمن، وليس العكس، وليتجلى الإيمان بعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإيمان بالقلب والجوانح، ومنه التصديق بنزول القرآن من عند الله، والتسليم بما في آياته من الأحكام والأوامر والنواهي والأخبار، سواء أخبار وقصص الأمم السابقة، أو أخبار يوم القيامة وعالم الحساب، قال تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وهذه الآية هي أول آية في القرآن تأتي بصيغة الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الإعجاز ان تقدم الآية صفة الإيمان بنزول القرآن ثم تذكر الإيمان بالكتب السماوية السابقة، مع ان ما نزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم متأخر زماناً عن الكتب السماوية الأخرى، فذكر الإيمان به يدل بالدلالة التضمنية على لزوم العمل به. وجاءت الآية بالإسم الموصول (ما) لإفادة المعنى الأعم لآيات القرآن والتنزيل، وهل يشمل السنة في المقام بإعتبارها وحي، لعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢) الجواب أن القدر المتيقن هو القرآن، ويدل بالدلالة الإلتزامية على التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم تذكر الآية جهة ومصدر النزول وفيه دلالة على معرفة الناس بان المراد من التنزيل نزول الكتاب من عند الله، وقد جاءت آيات عديدة تدل على هذا المعنى، منها قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٣٨ .

(٢) سورة النجم ٣-٤ .

(٣) سورة المائدة ٦٧ .

١٤٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وجاء التقييد بان النزول الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتعيين آيات القرآن، وما فيها من الأوامر والأحكام، لان الله تعالى ينزل الماء والغيث قال تعالى ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(١). وينزل الله الرزق والفضل العظيم، وينزل الملائكة، فارادت الآية بيان عظيم منزلة المسلمين بتصديقهم بنزول القرآن، قال تعالى ﴿وَيُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وجاءت الآية بصيغة الجمع للإخبار عن خلو قلوب المسلمين من الشك او الريب في نزول القرآن من عند الله، ومدحهم لتصديقهم بنزول القرآن والعمل باحكامه وهو من مصاديق ووجوه تفضيلهم على الأمم الأخرى وحاجة الناس اليهم، لأن تصديق أمة من الناس بالقرآن ونزوله من عند الله دعوة يومية متجددة للناس جميعاً للحقوق بهم في منازل الإيمان، والعمل باحكام التنزيل.

ومن الآيات ان علة الإيمان بالقرآن، ونزول من عند الله لاتنحصر الإعجاز فيه، ومن لطف الله تعالى ان هذه الحجة لم تمنع من الثناء على المسلمين لإيمانهم، ولكنها حجة على الذين يكفرون به. وفي الآية تشريف للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ جعل الله تعالى من شرائط التقوى الإيمان بما انزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما انزل عليه اقتران طاعته بطاعة الله قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾^(٣)، وقوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٤).

(١) سورة الروم ٢٤ .

(٢) سورة الاسراء ٨٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٤) سورة الحشر ٧ .

مِنْ رَبِّهِمْ^(١).

ان الإيمان بالكتب والأنبياء السابقين شاهد على ارتقاء المسلمين في مراتب التقوى والصلاح، واستحقاقهم لمراتب التفضيل على أهل الملل الأخرى.

إذ ينفردون بالإيمان بالقرآن والكتب السابقة في حين تخلف غيرهم عن الإيمان المطلق بالتنزيل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيُكْفَرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾^(٢).

وتخبر الآية عن ملازمة مدرسة وآيات النبوة للوجود الإنساني، وتدعو الناس الى العمل بميراث النبوة وعدم التفريط بسننها، وتخبر عن المنزلة العظيمة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ انها جاءت بالإيمان بالكتب السابقة من وجوه:

الأول: إتصال لغة الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: وصف الكتب السابقة بانها نازلة قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلم تقل الآية "وما أنزل من قبل" بل ذكرت أوان النزول بانه قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ويحتمل أمرين:

الأول: نزول الكتب السماوية قبل ولادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: نزولها قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والصحيح هو الأول، وهو شاهد على وجود فترة ومدة بين آخر تنزيل للكتاب وبين نزول القرآن، إذ كان الإنجيل آخر الكتب السماوية نزولاً، وبين عيسى عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من

(١) سورة البقرة ١٣٦.

(٢) سورة البقرة ٩١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٤٣

خمسمائة عام، وفيه زجر سماوي عن إدعاء شخص النبوة والتنزيل، وحث الناس على عدم التصديق باهل الزور والإفتراء مثل مسيلمة الكذاب.

ويؤكد الجمع بين أول ووسط الآية على عدم جواز التبويض في التصديق بالكتب المنزلة، وفيه مدح وثناء على الذين يؤمنون بالتنزيل مطلقاً والتسليم بنبو الأنبياء جميعاً، وزجر عن التخلف عن الإيمان بشطر من الكتب السماوية، وقد فاز المسلمون دون غيرهم من أهل الملل والنحل بالإيمان المطلق بكل الكتب السماوية.

وبعد ذكر الآية لصفيتين من صفات المتقين هما الإيمان بنزول القرآن والوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإقرار بان ما بين الدفتين هو كلام الله، والإيمان بنزول الكتب السماوية السابقة جاءت خاتمة الآية في موضوع الإيمان أيضاً ولكنه خاص بالتصديق بيوم القيامة، وان الناس يبعثون من قبورهم للحساب والجزاء، وجاءت بصيغة اليقين أي العلم والقطع، وبين اليقين والعلم عموم وخصوص مطلق، فكل يقين هو علم وليس العكس، فبينت الآية حصول مرتبة القطع والجزم عند المتقين وانه حق.

ومن الإعجاز في الآيات مجيء صفة أو أكثر خاصة بالمسلمين في الآية السابقة وفي هذه الآية تأكيد لإختصاص المسلمين بالتقوى كما بينت الآية السابقة إتصاف المتقين بإقامة الصلاة.

وأكدت هذه الآية إيمانهم بنزول القرآن من عند الله عز وجل ليكون مدح المسلمين بالصفة والإقرار بالقلب والجوانح والفعل العبادي، مما يدل على سمو لغة القرآن ومعاني الخطاب ودقة الوصف في آياته، وما تتضمنه آياته من دعوة الناس جميعاً الى الإسلام، والسعي في مسالك التقوى وطاعة الله، والخشية من معصيته، وجاءت الصفة الخاصة بالمسلمين في أول الآية السابقة بينما جاءت في خاتمة هذه الآية لتأتي الآية التالية خاصة في

١٤٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

مدحهم والثناء عليهم والوعد الكريم لهم بالثواب ، بلحاظ ذكر الآخرة في هذه الآية.

التفسير الذاتي

من إعجاز نظم القرآن أن تأتي الآيات الأولى فيه وصفاً للمسلمين بما يتضمن مدحهم والثناء عليهم، ودعوتهم للثبات في منازل الإيمان، **ودعوة** الناس للإقتداء بهم ومحاسنهم.

وإذ ذكرت الآية الثانية القرآن بلغة الإشارة والتفخيم (ذلك الكتاب) **جاءت** هذه الآيات لبيان منافعه في وجود أمة مؤمنة بالله ورسوله، وتتعاهد القرآن، وتحفظه من التغيير والتبديل.

وذكرت هذه الآية الإيمان بالتنزيل على نحو التفصيل وجعلته على قسمين:

الأول: التصديق بما أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن.

الثاني: التصديق بالكتب السماوية السابقة.

ويدل هذا التفصيل، وتقديم التصديق بالقرآن على الكتب السماوية على موضوعية الإيمان بنزول القرآن في سمات المتقين، بلحاظ أنه شرط من شروط التقوى.

وهذه أول آية في نظم القرآن تتضمن الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتجلت البركة في لغة الخطاب وموضوعه، لما فيه من ذكر المسلمين، وتصديقهم بالقرآن الذي جاء بلزوم إتباع ونصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم تقل الآية يؤمنون بالكتاب مع أن القرآن ذكر بهذا الإسم في الآية قبل السابقة.

ولكن جاءت بذكر صفته وماهيته **ضمناً** وأن الإيمان به كتتنزيل من عند الله عز وجل، وهذا الإيمان مناسب لما ورد في الآية السابقة من مدح

معالم الإيمان / الجزء الثاني ١٤٥

المسلمين بأنهم يؤمنون بالغيب ، إذ أنهم لا يعلمون كيفية نزول القرآن ومجيئ الملك بالوحي إلا أن يخبرهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو يروا علامات حضور الوحي ظاهرة على النبي إذ كان يتفصد عرفاً، ويكون في سياحة ملكوتية حتى يفصل عنه الملك، قال تعالى ﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَيْتَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾^(١)، فيخبر المسلمين بما جاء به من الآيات، وهذا كله من الغيب.

فجاءت الآية لتخبر بأن حد إيمان المتقين التصديق بالتنزيل وهو كل ما يخبر الله النبي **محمدًا** صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن، ويتلونه بالتسليم على نحو العموم المجموعي والإستغراقي، ولا يفرطون أو يسقطون بعض الآيات أو الكلمات منه.

ومع أن الآخرة من الغيب وقد جاءت هذه الآيات بوصف المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب، فقد جاءت هذه الآية بذكر تصديقهم بالآخرة على نحو التعيين والتوكيد مع أنه من أفراد الغيب مما يدل على موضوعية الإيمان باليوم الآخر، والإستعداد له بالإضافة إلى حصول اليقين والقطع بيوم القيامة وعالم الجزاء في الآخرة وما فيه من الثواب للمحسنين، والعقاب للمسيئين .

وفيه **نكتة أخرى**، وهي أن التصديق بالتنزيل والإيمان بالغيب يؤديان إلى القطع واليقين بالآخرة وأن البعث بعد النشور أمر حتمي، وأن إقامة الصلاة وأداء الزكاة أمران مترشحان عن الإيمان بالقرآن وما فيه من الأوامر والأحكام.

إن أداء الفرائض شاهد على اليقين بالآخرة، وهو واعز ذاتي ونوعي **للمسلمين** يحرصون **معه** على أداء العبادات بشرائطها، ومن وجوه اليقين في المقام الإقرار بمواطن يوم القيامة المتعددة، والتفقه في أحوالها بالتصديق

(١) سورة الكهف ٢٧.

١٤٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

بما ورد بخصوصها في القرآن والسنة النبوية.

لقد جاءت الآية بثلاثة صفات **للمتقين** كل صفة شرط في نيل مرتبة

التقوى، وهي:

الأولى: إبتدأت بالتصديق بنزول القرآن من عند الله، ومعه تأتي عبادات المسلم بقصد القربة، ويتلو القرآن مع نية العمل بأحكامه ومضامينه القدسية لأنه حبل الله والصراط المستقيم الذي يهدي للصالح والفوز في النشأتين، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (١).

الثانية: من خصائص المسلمين ماجاءت به هذه الآية بأن جعل التصديق بالقرآن والكتب السماوية السابقة بمرتبة واحدة وهي الإيمان، مع تقديم الإيمان بالقرآن.

الثالثة: أختتمت الآية باليقين والقطع بعالم الآخرة، وفيه نكتة وهي أن القرآن يتضمن الإعجاز الذاتي والغيري، ويفيد الإيمان به، لأنه آية ومعجزة عقلية وحسية، وجاء بتصديق الكتب السماوية السابقة .
أما الآخرة فانها من عالم الغيب، وإليها يرجع الناس جميعاً حيث الخلود في الجزاء فلا بد من بلوغ مرتبة اليقين بها، ليكون مقدمة ووسيلة لفعل الصالحات، وتعاهد الإيمان بالتنزيل والنبوة.

من غايات الآية

لما ذكرت الآية السابقة شرطاً من صفات المتقين، جاءت هذه الآية بذكر الشرط الآخر منها، وتتفرع عن هذه الصفات أحكام عديدة اذ انها تتغشى عالم العقيدة والأفعال العبادية والمعاملات وإعتبار ان القرآن تبيان لكل شيء، ويدل الإيمان به على التقيد بأحكامه وسنته، والأخذ بسنة النبي

(١) سورة الأسراء ٩ .

محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (١).

وتبين الآية المنافع العظيمة لنزول القرآن، وانه حاجة للناس وضرورة لتثبيت الإيمان في الأرض، وبرزخ دون إنكار الضروريات.

التفسير

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

عطف على (الذين) في الآية السابقة فيكون المعنى بياناً لتمام صفة المتقين أو لأهم صفاتهم وتشير آيات أخرى في القرآن الى صفات تضاف أو تنفرع عن هذه الصفات.

بعد ان بينت الآية السابقة صفات المتقين في أبواب الفعل والعمل جاءت هذه الآية لتبين صفاتهم من حيث الاعتقاد، كما تظهر الآية أهمية الاعتقاد ، والدلالة الإلتزامية بينه وبين عمل الجوارح ، وكل واحد منها يؤثر وينفعل بالآخر، فلا غرابة إذن أن يؤكد في الفقه على شرطية النية وجزئيتها في العبادات والتي لا تتقوم الا بها.
وفي الآية الكريمة مسائل:

الأولى: الإيمان هنا بمعنى التسليم والتصديق بما أنزل الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو القرآن ، وما فيه من الآيات والأحكام والدلالات، والإقرار بما أنزل على الأنبياء والمرسلين ممن كان قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا يجب العلم بما فيها من الآيات والأحكام والأوامر والنواهي بل يكفي العلم الإجمالي الذي يصدق عليه انه معرفة مع الإستعداد للتسليم والقبول بما يستحدث عند المكلف من العلوم في هذا الباب.

١٤٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وفي الآية دلالة على أن الإقرار بالمعاد أحد أصول الدين، وان الله عز وجل يعيد الحياة الى الأجسام البالية بعد تشتت أجزائها، وعليه إجماع علماء المسلمين خلافاً للحكماء من غير الموحدين.

وقال المتكلمون لولا المعاد البدني لَقَبِحَ التكليف لأنه مشقة تستلزم التعويض عنها، وبعضهم نفي العوض في زمان التكليف، ولكن نعم الله عز وجل على الإنسان في الدنيا تعجز الخلائق عن إحصائها، وقد يكون شطر منها تعويضاً، وقد يكون اداء التكليف شكراً لله عز وجل لإتصال نعمه مما لا يستلزم معه العوض الا فضلاً منه تعالى في النعم المستحدثة والمستديمة.

الثانية: الآية في موضوعها وموضعها مدرسة في إعداد قادة المسلمين وإصلاح شأنهم وتقويم أخلاقهم يجعل الإيمان الراسخ هو السمة الظاهرة فيهم ، فليس إتفاقاً ان تجد الآيات الأولى من القرآن مدرسة في العقيدة والبناء الأخلاقي ، ومنها تفرعت أحكام شرعية وترسخت قيم ومفاهيم جهادية وكانت حاجزاً ومنعة عن تأثير أقاويل وأباطيل أهل الجحود وغيرهم.

الثالثة: ترى هذه الآيات التي يمكن أن نطلق عليها إسم (آيات البناء العقائدي) سبقت الآيات التي حكمت وبينت عداوات أهل الكتاب وزيف إدعائاتهم، فهذه الآية وما شابهها إستطاع المسلمون ان يتحصنوا ضد الشرك والضلالة.

الرابعة: تظهر الآية عظيم فضله تعالى بإنزال الكتب السماوية ولزوم تعاهد الناس لها بحسب التكليف، وتمثل أيام التنزيل وإلى يوم القيامة بالقرآن وعلومه، والتسليم والإيمان به وعدم التفكيك بينه وبين الكتب السماوية الأخرى مما يعني تخلف غير المسلمين قهراً وخروجهم بالتخصص من منازل اليقين والفلاح الذي ورد ذكره في الآية التالية.

الخامسة: تجلّى التقسيم الزمني للوقائع والمذاهب والمعتقدات في هذه

معالم الإيمان / الجزء الثاني

الآية بالأزمنة الثلاثة، الماضي، الحاضر، المستقبل، فالماضي يتمثل بالكتب السماوية السابقة، والحاضر المتغشي لأيام الحياة الدنيا بالقرآن والمستقبل في العالم الآخر يوم القيامة وما يحتاجه من التصديق الجازم به مع تغشي القرآن لهذه الأزمان الثلاثة.

السادسة: ظاهر الآية ان القرآن هو الكتاب الباقي الى يوم القيامة خصوصاً وان الكتب السماوية المنزلة قبله بشرت به ولم يخبر هو عن كتاب آخر لاحق بل اخبر بانه جامع كاف مانع، وكذا الأنبياء السابقون بشروا بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وانه آخر الأنبياء والرسل.
السابعة: الآية دعوة لأهل الكتاب للإيمان بالرسالة الإسلامية والتصديق بالقرآن وعدم التعجل بالإنكار جحوداً.

الثامنة: هل المراد بالآية اهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول كعبد الله ابن سلام وامثاله كما قيل، وان في التخصيص بالذكر مزيداً من التشريف لهم، الجواب الآية أعم وهؤلاء الصحابة من أفضل مصاديق الآية وهي جارية الى يوم القيامة، وحتى بلحاظ أسباب النزول تعتبر أعم من الإحصار بايمانهم الا ان يدل دليل معتبر عليه وهو مفقود.

التاسعة: تعدي الإيمان بالبءاء في الآية ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا﴾ يعني التصديق والإقرار والتسليم، ففي الآية بشارة وإخبار على ان الإسلام أرسى أسسه في الأرض وترسخ في قلوب المسلمين.

العاشر: تتضمن الآية الإخبار بان الذي عند النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو وحي منزل من عنده تعالى وهذا غاية التشريف، وفيه حث على التصديق والتسليم بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الحادية عشرة: وجوب الإيمان بالقرآن وان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ينزل عليه الوحي من عند الله لما تتضمنه الآية من الأمر بتحديد

١٥٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

مضامين الإيمان ، والملازمة بينه وبين الفلاح.

الثانية عشرة: لا بد لكل مسلم ان يؤمن إيماناً جازماً بالدار الآخرة وعالم الحساب، وفيه مدح لهم مما يعني الثواب والجزاء على الإقرار بالآخرة، وهو ايضاً طريق للصالحات.

قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾

الآية تشرىف للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه:

١- ذكر ما أنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم على نحو الخصوص.

٢- ان الله شرفه وإختره لتلقي القرآن.

٣- تعرف الكتب السابقة في زمانها بلحاظ زمان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وانها نزلت قبل القرآن.

٤- من مفاهيم الآية ان القرآن هو آخر الكتب السماوية نزولاً.

٥- يتحمل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون أعباء الإقرار والتسليم بنزول كتب سماوية سابقة للقرآن.

وتكرر لفظ (أنزل) في الآية مرتين على البناء للمجهول في اظهار لعزة وقوة الله تعالى ، واخبار عن انحصار التنزيل به سبحانه فلا أحد يستطيع ان ينزل كتاباً من السماء الا هو.

وفي الآية ثناء على الأنبياء السابقين لنبوة محمد ممن أنزل عليه الكتاب والوحي، فموضوع الآية لا ينحصر بالكتب المنزلة بل يشمل الوحي والإخبار السماوي، وتدل الآية بالدلالة الإلتزامية على وجود كتب سماوية، كما أخبرت آيات أخرى عديدة عن نزول التوراة والإنجيل والزبور.

والآية دعوة مركبة من وجوه:

١- دعوة المسلمين للإيمان بالكتب السماوية السابقة وعدم مقابلة

دعوى أهل الكتاب بالجحود أو العناد أو إختيار المثلية في إنكار ما أنزل اليهم لأنهم لم يؤمنوا بنزول القرآن، فلا بد لكل مسلم من التصديق بالكتب السماوية السابقة ، وإن جحد أهل الكتاب بالقرآن.

٢- حث وندب أهل الكتاب للتصديق بالقرآن والإيمان بالكتب السماوية كلها على نحو العموم المجموعي والإستغراقي.

٣_ دعوة الناس من أهل الملل الى التدبر والتصديق بالتنزيل ، خصوصاً وان القرآن يتضمن الإعجاز والتحدي .

وجاءت الآية بصيغة الجمع مما يدل على كثرة عدد المسلمين واتساع رقعة الإسلام وعدم الخشية في الإيمان بالقرآن والكتب الأخرى من أحد.

قوله تعالى ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

مدح وثناء للمسلمين لإيمانهم بوجوه الغيب المستقبلية والتي عليها ترتكز مباني افعال العباد في الحياة الدنيا فهي الفيصل في السنن والسير والأعمال، فمن كان يؤمن بالآخرة امثل لأوامر الله تعالى وأسلم لأنبيائه، ومن جحدها وغرته الحياة الدنيا نصب العداوة والبغضاء للمؤمنين.

وورود الضمير المنفصل ﴿ هُمْ ﴾ لبيان موضوعية وإستقلال التصديق

بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

بحث كلامي

من أسرار الخلق حتمية البعث والنشور، ولقد أجمع المليون على حصول المعاد الجسماني بل ان المسلمين أجمعوا على عذاب القبر، ونقل عن ضرار إنكاره ولا عبرة بخلافه مع ظهور النصوص والإجماع، وامكان حصوله عقلاً والمسمى بعالم البرزخ وهو جزء من عالم الآخرة الذي يعتبر مصداقاً عملياً لوعده تعالى للمؤمنين بالثواب وانذاره ووعيده للكافرين بالعذاب.

١٥٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

ولابد من الجزاء للتكليف والفرائض بفضله واحسانه تعالى، والتكليف يعني اتيان الفعل العبادي بمشقة وكلفة، وكذا اسم الفريضة لما فرض على العبد اداؤه من الصلاة او الصوم او استخراج الزكاة والخمس. وذكر القرآن للإيمان بالآخرة على نحو اليقين في هذه الآية بالذات وابرازها كصفة لازمة بيان لضرورة من ضرورات الإيمان يدل على المصير الحتمي الى يوم القيامة سواء وصل الى العبد في الدنيا ثواب او عقاب ام أمهل الى الآخرة او انهما قد يحصلان لشخص واحد، ينال قسطاً من الجزاء في الدنيا على نحو الإبتلاء والإستدراج ثم يلقي الجزاء الأوفى في الآخرة.

وقال الزمخشري: وفي تقديم ﴿الآخِرَةِ﴾ وبناء ﴿يُوقِنُونَ﴾ على ﴿هُمُ﴾ تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته^(١) واثنى عليه السيوطي بقوله: وهذا الذي قاله الزمخشري في غاية الحسن، ووجه اللوم لمن إعترض عليه^(٢). والظاهر ان الآيات في مدح المسلمين وإعدادهم عقائدياً والصفات الإيمانية في الآيات صفات إنحلالية كل واحدة منها شرط من شروط الإيمان ومصداق من مصاديقه وركن من أركانه، وفقدتها عيب ونقص سواء كان غير المسلمين يفقدون الأكثر او الأقل منها.

بحث بلاغي

يقسم الكلام من حيث دلالته الى الخبر والإنشاء، والخبر في الإصطلاح ما يصح ان يدخله الصدق او الكذب وما يصح السكوت عليه، وكلام الباري منزّه عن الكذب، فهو الخبر الصادق المطابق للواقع.

(١) الكشاف ١/١٣٧.

(٢) الإتيقان في علوم القرآن ٣/١٥٨.

واطلاق هذا التقسيم يجعل الخبر القرآني جزء منه ولكن من الخبر الصادق دائماً، والأولى ان يكون الخبر القرآني قسيماً للخبر بالمعنى الإصطلاحي ويكون بينهما عموم وخصوص من وجه، مادة الإلتقاء هي الخبر، ومن وجوه الإفتراق ان صفة القرآنية في الخبر القرآني وانه لا يحتاج الى اثبات خارجي على صدقه، بعكس خبر غيره فحتى الخبر من السنة النبوية الشريفة يحتاج الى صحة السند وعدم معارضته للقرآن. والإنشاء إرادة التكوين والجعل وصيرورة الشيء وإقتران المعنى بلفظه، ومنهم من قال ان اقسام الكلام عشرة وقال الأخفش انها ستة، خبر وإستخبار، وأمر ونهي، ونداء وتمن، وتري وجوه الكلام واقسامها في هذه الآية ففيها الإخبار والإنشاء ودعوة الناس لتمني النعيم في الآخرة وفيها الأمر والنهي والزجر والحث على الإيمان.

قوله تعالى

﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الآية ٥.

الإعراب واللغة

اولئك اسم اشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، وهو جمع ذلك، ويفيد معنى البعد ويراد به في المقام بعد المنزلة وعلو الشأن. على هدى: جار ومجرور، من ربهم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة الهدى، والضمير (هم) مضاف اليه.

١٥٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

الواو: حرف عطف ، اولئك: مبتدأ، هم: ضمير فصل، المفلحون: خبر اولئك.

والفلاح الفوز والنجاة والظفر بالبغية وإنتهاج سبل الخير، ومن الفلاح ما هو دنيوي بالتنعم في الدنيا وطيباتها، ومنه أخروي وهو الفوز بالجنة، ويمكن إستنباطه من قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(١)، وقيل: "انه أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل".

ولغة الإطلاق في هذا القول مناسبة للمقام الا انه اطلاق بدلي ينحصر بهذه النعم الأربعة، وفضله تعالى على المؤمنين في الآخرة من الإطلاق الشمولي وأعم من ان يخصى.

في سياق الآيات

أظهرت الآية ما يناله المسلمون من اكرام وعظيم المنزلة بحسن عبادتهم وصدق ايمانهم وانهم الذين ينالون السعادة، ويفوزون بالنعيم والآيات مجتمعة مدرسة في المعرفة الإلهية وبيان مناهجها العقائدية، ومن الإعجاز في نظم الآيات ان المدح وذكر الثواب جاء متعقباً لفعل الصالحات والهداية. وبدأت هذه الآيات بإسم الإشارة المتعلق بالقرآن بقوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ولابدأت هذه الآية بإسم الإشارة أيضاً لإرادة المسلمين والثناء عليهم لإختيارهم سبل الهداية والرشاد.

واذ جاءت الآيات السابقة بأوصاف المسلمين، فان هذه الآية أختتمت بانهم هم المفلحون الفائزون، ويحمل الفلاح هنا على الإطلاق وإرادة

(١) سورة البقرة ٢٠١.

الحياة الدنيا والآخرة .

ومن الإعجاز في سياق الآيات ان يأتي الإخبار عن الفوز والفلاح بعد بيان الصفات الحميدة التي يتصف بها المسلمون في دلالة على نيلهم الفلاح باختيارهم الهداية، وسعيهم في مرضاة الله تعالى ولم تذكر الآية المسلمين بالأسم، بل ذكرت المتقين بلحاظ الفعل والصفة والتقوى والخشية من الله، لتكون هذه الآية دعوة لكل انسان واهل ملة لدخول الإسلام، ومنع غلبة النفس الغضبية على الإنسان، وتماديه في المعصية.

فهذه الآية مدرسة في الدعوة الإسلامية وحجة على الناس، ووسيلة لجذبهم الى الهدى والإيمان، وليس بين الإنسان وبين نيل مرتبة الهداية والفلاح إلا التحلي بالصفات الواردة في هذه الآيات وهي واجبة بالإصل، وموافقة لسنخية بني آدم وجزء علة لخلق الإنسان.

إعجاز الآية

يتعقب الثواب والجزاء في الآية الكريمة الفعل والإعتقاد من غير تأخير وفترة مما يعني ان الفلاح أعم من النعيم الدائم في الآخرة وان الإيمان نفسه هو من أحسن مصاديق الفلاح والنجاح والفوز كما انها تخبر بان منازل الإيمان ونفاذه الى القلوب انما هو بتوفيق منه تعالى وان المسلم يحتاج الى واجب الوجود حتى في قرار الإيمان والتسليم والإلتفات الى آيات النبوة والتفكر فيها. وتبين الآية الملازمة بين الإيمان وحسن الثواب ونيل المراتب العالية.

ويمكن تسمية هذه الآية آية (اولئك على هدى) ومع ورود لفظ أولئك في القرآن مائتين وأربع مرات فإن هذا اللفظ لم يرد في القرآن الا مرتين.

الآية سلاح

كما ان في الآية مدحاً للمؤمنين فانها بشارة على قرب المدد الإلهي وموضوعيته في الهداية مما يعني إتساع رقعة الإسلام وزيادة عدد المسلمين

١٥٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

أفواجاً، وهو أمر ظاهر بوجود الآيات الباهرات والتوفيق الذي تخبر عنه هذه الآية صراحة والذي يعني بالدلالة الإلتزامية قوة الإسلام وعلو شأنه وسلطانه .

وتتضمن الآية أموراً:

الأول: مدح المسلمين والثناء عليهم لبلوغهم مراتب التقوى.

الثاني: تغشي المسلمين بأسباب الهداية بفضل الله.

الثالث: ظفر المسلمين، وفوزهم برحمة الله ونيل المطلوب، وهو الخلود في النعيم، لتبين الآية قانوناً ثابتاً في الإرادة التكوينية في العلة والمعلول، وما يؤدي اليه إختيار الإنسان التقوى والإيمان.

الآية لطف

تكرر إسم الإشارة في الآية اولئك، وفيه مدح إضافي للمسلمين وإخبار عن تعدد موضوع الهداية والرشاد، وكل واحد منهما جاء بلغة الإكرام والثناء ، والأول خاص بصلاحهم في الدنيا، والثاني بالدنيا وبحسن عاقبتهم في الآخرة.

وهي بشارة ثبات الإيمان في الأرض ونزول البركات التي هي فرع الهداية والفلاح، وفي الآية ترغيب للناس بالإسلام وحث لهم على الهداية.

ومن اللطف الإلهي ان جاءت الآية بكلمات قليلة ولكنها تتضمن خير الدنيا والآخرة، اذ تخبر عن حسن سمت وإيمان المسلمين والنعيم الدائم الذي ينتظرهم في الآخرة واذ جاءت سورة الفاتحة بالدعاء والمسألة بالهداية الى الصراط المستقيم، جاءت هذه الآية وكأنها إستجابة لدعائهم وبشارة الفوز في النشاطين.

مفهوم الآية

يدل مفهوم الآية على المراتب السامية التي يبلغها المتقون عند إجتياز

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٥٧

الإمتحان العملي والتقييد بأداء العبادات، والإختبار العقائدي. ولا غرابة ان ترد هذه القواعد الكلية في بدايات سورة البقرة وفي أول آيات القرآن من جهة ترتيب سورّه وآياته لانها في مفهومها تنفي الفصل بين العقل النظري والعقل العملي، وتمنع من أثر البعد الزمني بين الحاضر والماضي والمستقبل وتحول دون أي هوة بين النظرية والسلوك. وما تتضمنه الآية من الوعد الكريم والبشارة بحسن عاقبة التقوى يدل في مفهومه على خسارة أهل الفسق والضلالة الذين يقترفون السيئات، ومن مفاهيم الآية الحث على التوبة للتخلص من شدة العذاب. وتقسم الآية الناس الى قسمين منهم من يكون مؤمناً، تلقى الأحكام والأمور النازلة من السماء بالتسليم، ومنهم من جحد بالكتب السماوية والنبوات.

وفاز المسلمون بالظفر بالقسم الأول ، والآية إنذار ووعيد للكافرين، ودعوة للإيمان بالقرآن وآياته، ووعد كريم لكل من آمن وأسلم وصدق بالحق المبين ، وتبعث الآية على الإستيقاظ من رقدة الجهالة وسنة الغفلات والإقامة على ما يميت القلب .

وفي الآية مسائل:

الأولى: إكرام المتقين بذكر صفاتهم الحميدة وحسن عاقبتهم.

الثانية: مع مجئ الآية بصيغة الجملة الخبرية فانها وعد كريم للمسلمين بنيل المراتب العالية.

الثالثة: كما تجمع الآيات الثلاثة السابقة وصف المسلمين، جاءت هذه الآية في وصف حالهم وبيان منزلتهم في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فان الآية أخبرت عن رسوخ الإيمان في نفوسهم، وصدور العبادات عن ملكة التقوى بدليل قوله تعالى ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾

١٥٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وفيه زجر للكفار عن التعدي على المسلمين، والسعي لمحاولة إرتداد جماعة منهم عن دينهم، او بعث الفرقة وإثارة الفتنة بينهم. واما في الآخرة فان المتقين هم الفائزون ومن يخشى الله في الدنيا ويطيع أوامره فانه يلقي الجزاء الحسن في الآخرة. الرابعة: لم تقل الآية (وهم المفلحون) بل تكرر فيها إسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ للإشارة الى حسن حال المتقين في الدنيا والآخرة. فيشار اليهم في الدنيا بصفات التقوى التي يتحلون بها ، وتنتظر لهم الخلائق في الآخرة وهم يتنعمون بثوابها.

إفادات الآية

تحت الآية على الإيمان بالمعارف القرآنية والأخرية، وتبعث على طلب الحقيقة والإستعانة بالمقدمات البرهانية والحسبية والحسية التي تلتقي جميعاً في الدعوة الى التصديق بالنبوة والكتاب، ومن لوازم وآثار هذا التصديق أداء العبادات وإجتتاب المعاصي. لقد أرادت الآية إعادة الإنسان الى فطرة الإيمان والعروج به في مراتب الهداية ليسعى جاهداً لنيل الأمن والسلامة في اليوم الموعود، وبلوغ جنة المأوى .

وتبعث الآية الغبطة في نفوس المسلمين، وتجعل الإيمان ملكة ثابتة في نفوسهم لما تتضمنه من المدح والبشارة والوعد الكريم. وتبين الفضل الإلهي في هداية المسلمين، وتمنع من الغرور والزهو والكبرياء، وتجعل المسلمين يتعاهدون منازل العبودية والخضوع لله تعالى.

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية بإسم الإشارة "أولئك" وهي أول آية في القرآن تبدأ بإسم الإشارة بعد قوله تعالى ﴿ذلك الكتاب﴾ وفيه إعجاز اذ ان إسم الإشارة الأول جاء للدلالة على القرآن ، وهذه الآية جاءت لمدح المسلمين ، ليكونا

معالم الإيمان / الجزء الثاني

دعوة وترغيباً للناس لدخول الإسلام ، والفوز بتلقي هذه الإشارة الملكوتية المباركة، على نحو متكرر ، فمع قلة كلمات الآية فان إسم الإشارة "أولئك" تكرر فيها، مع إرادة المتقين بهما، في دلالة على تزكية المسلمين والثناء عليهم، ومجيء البشارة بنيلهم المراتب الرفيعة في الجنة العالية، وأنهم الفائزون في الدنيا والآخرة.

لقد جاءت هذه الآية لتوثيق وبيان صفات المتقين، وتوكيد حقيقة وهي ان هداية المسلمين برحمة وتوفيق من الله تعالى، وكل هدى من عنده تعالى، وجاءت الآية بأمرين:

الأول: وصف حال المتقين بانهم على هدى وصلاح .

الثاني : الجزاء والمدح لهم.

وتفيد الآية حصر وتعيين أهل الهداية، وهم الذين يفوزون بحسن العاقبة والثواب، لتبعث الآية السكينة في نفوس المسلمين، والحرص على الثبات في منازل الإيمان ، وتكون توبيخاً للكفار، وحثاً لهم على التوبة والإنابة.

التفسير الذاتي

كما إبتدأت الآية الثانية من سورة البقرة بإسم الإشارة للبعيد ﴿ذَلِكَ﴾^(١)، وإرادة القرآن بلغة التفخيم، فكذا هذه الآية فانها جاءت بإسم الإشارة (أولئك) وإرادة الإكرام للمسلمين بصيغة إسم الإشارة للبعيد التي جاء فيها، وبيان إرتقائهم في منازل الهدى والرشاد، لأنهم بلغوا مقامات الهداية والرشاد من وجوه:

الأول: وصف المسلمين بأنهم متقون، تملأ صدورهم الخشية من الله عز وجل، والحرص على طاعته.

الثاني: تصديق المسلمين بالغيب، وإحاطة الله علماً بكل شئ.

(١) سورة البقرة ٢ .

١٦٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الثالث: إقامة المسلمين للصلاة التي هي عمود الدين.

وذكر الصلاة وإقامتها في أول آيات من القرآن شاهد على موضوعيتها في منازل الإيمان، ولزوم تعاهد المسلمين وحفظهم لها وفق الكتاب والسنة، وما إتصف به المسلمون من الخصال الحميدة أن أجيالهم تتوارث وتؤدي الصلاة كما أداها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

فلا يأتي أحد أو جماعة ويقولون أن الآيات التي تتضمن مدح المسلمين لأدائهم الصلاة خاصة بالصدر الأول من الإسلام إذ كانت **تؤدي** وفق أحكام التنزيل والإقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالصلاة التي أداها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي نفسها التي يؤديها المسلمون أمس واليوم وغداً، وفي جميع أمصار الأرض. وفي الإتحاد الزماني والمكاني في أداء الصلاة حجة ودعوة للناس مجتمعين ومتفرقين لدخول الإسلام، والفوز بالمدح والثناء الوارد في هذه الآيات.

وجاءت هذه الآية بصيغة الجمع وفيه إشارة إلى أداء الصلاة جماعة، **وما فيه** من ضروب الخشوع والخضوع لله عز وجل، لذا فإن ثواب صلاة الجماعة يزيد **أربعاً** وعشرين مرة على صلاة المنفرد.

الرابع: لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإبتلاء، **ورزق** **فريقاً** من عباده الأموال **الكثيرة**، وإخراج الزكاة، ودفعها إلى مستحقيها، وجاء التبويض لمنع الحرج والإخبار عن كفاية الإنفاق القليل المنصوص عليه.

الخامس: القرآن **سبيل** هدى وارشاد للذين يصدقون بنزوله من عند الله **عز وجل**.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

وفي الآية نكتة وهي متى ما صدق الناس بأن القرآن نازل من عند الله، فانهم يتقيدون بما فيه من الأوامر والنواهي، ويحرصون على تنزيهه وحفظه وسلامته من التحريف، وقد فاز المسلمون بهذه النعمة وهو من خصائص ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

من غايات الآية

تتضمن الآية حكماً سماوياً خاصاً بالمسلمين، وفيه مدح وثناء عليهم، وهذا المدح وسيلة مباركة لتعاهدتهم لسبل الإيمان، والسعي للإرتقاء في منازل التقوى ونيل الدرجات العالية .

وفي الآية ثناء على الباري تعالى لنسبة الهدى اليه سبحانه فمن فضله تعالى ان ينال شطر من الناس درجة الهداية والتقوى، وهذه النسبة دعوة للمسلمين للتوجه الى الله تعالى بالشكر على نعمة الهداية والإنتطاع الى العبادة وإجتنب الغرور .

لقد أراد الله عزوجل للناس التدبر في آيات الآفاق وفي انفسهم، وان يرى الإنسان حاله وحال غيره، فيعتبر من غيره ويصلح نفسه، فجاء ذكر فوز ظفر المؤمنين الذين يخشون الله عزوجل ليكون دعوة لكل إنسان ان يرى قربه او بعده من هذه المنزلة العظيمة ويتدبر في حاله بالدراسة المقارنة بينه وبين غيره، فيشكر المسلم الله عزوجل على نعمة الهداية، ويجتهد في السعي لنيل الظفر وبلوغ مراتب الفلاح.

فهذه الآية من مصاديق رحمة الله عز وجل بالناس جميعاً ، برهم وفاجرهم ، وهي لطف متصل بالمسلم وغيره ، لانها تساعد في إنتظام حال المسلم، وتدعو غيره للإقتداء به وإجتنب التعدي عليه والسعي للإضرار به.

(١)سورة آل عمران ١١٠.

التفسير

قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾

الآية الكريمة وصف وبيان لحال المتقين الذين يأتون ما أمرهم الله عز وجل به من العبادات ويعتقدون الحق. في الآية مسائل:

الأولى: في الآية إشارة الى أول السورة وبيان لأهمية وأثر القرآن في إرشاد الناس لمفاهيم ومسالك التقوى، وفيها بشارة لهم وحث للناس على نيل هذه الصفات والمنزلة الرفيعة لما تدل عليه الآية الكريمة من إختصاص الفلاح بهم.

الثانية: كأن في الآية جواباً لمن يريد ان يعرف من هم الذين هداهم الله. الثالثة: فيها تحذير وتكذيب لمن يدعي ان الله عز وجل هو الذي هداه وأبقاه على دينه، فكذبتة وجاءت بالوصف التفصيلي لمن هدى الله.

الرابعة: (اولئك) أمانة على إختصاصهم بالهدى والرشاد من عنده تعالى وإختصار الفلاح والنعيم بهم.

الخامسة: النعت باسم الإشارة (اولئك) للإكرام والمدح والثناء على المسلمين وتوكيد وعلو مقامهم، وان الكيد والمكر والاذى لا يصل اليهم. السادسة: النصيح والإرشاد للذين ركبوا جادة العناد واللجاج وهم يرغبون بنيل الدرجات العلى، وهذه الآية رحمة لهم بهدايتهم الى طريق الرشاد حصراً بالاسلام.

السابعة: الإرتقاء الإيماني والعقائدي والعبادي في الدين الإسلامي والنظم والترتيب البديع في أحكامه وفرائضه التي تشمل أشرف الأعمال البدنية والمالية والعقائدية.

الثامنة: فضل الله تعالى على المسلمين بهدايتهم الى الإيمان وكتابة الفوز والنعيم لهم، فلا غرابة من القول ان الذي ناله يوم القيامة فضل منه تعالى.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٦٣

التاسعة: تشريف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بان الذي يؤمن برسالته يحتاج الى توفيق وتسديد.

العاشرة: الإخبار عن حال الإسلام والمسلمين فما داموا مؤيدين بهدى من عنده تعالى ولن يضلوا ابداً.

الحادية عشرة: استقراء حال الهدى في نفوس المسلمين، ولم يكن عندهم منزللاً او عرضاً زائلاً.

الثانية عشرة: ذكر الرازي قول عون بن عبد الله: "الهدى من الله كثير، ولا يبصره الا بصير، ولا يعمل به الا يسير، الا ترى ان نجوم السماء يبصرها البصراء، ولا يهتدي بها الا العلماء"^(١)، ولكن جعل هذا القول نوع تفسير للآية تقييداً وتخصيصاً من غير مخصص، فالآية مدح للمسلمين لإيمانهم برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتزامهم بالفرائض. ويكفي من الإيمان ما يوافق الفطرة وتؤدي معه الفرائض والواجبات والتصديق بالنبوة والكتاب كما تؤكد هذه الآية لقاعدة نفي العسر والحرج في الدين.

انها وثيقة ووسام سماوي لكل مسلم يشترك فيها العالم وغير العالم الذكر والأنثى، فيكفي الإلتزام بالأحكام والعقائد وضروريات الدين واليقينيات مما لا تقليد فيه على نحو الإطلاق والتسليم مع حصول اليقين الذي هو عبارة عن إعتقاد جازم ثابت مطابق للواقع فلا تصل النوبة الى الإجتهد او التقليد كطريق لدرك الواقع.

الثالثة عشرة: حصر الفلاح بالمسلمين دلالة على خسارة من يتلكأ ويمتنع عن دخول الإسلام.

وحرف الجر (على) في قوله ﴿عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ له عدة معان:

(١) مفاتيح الغيب

١٦٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

١- الإستعلاء المعنوي كما في قوله تعالى ﴿ فَضَلَّنا بَعْضَهُمْ عَلَيَّ بَعْضٌ ﴾^(١)، والمراد في المقام ان منزلة المؤمن ترتقي عند الله بالهداية والإيمان، وان الله عز وجل يمنحه الرفعة والعلو على الهداية عند إختيارها ليصبح مؤهلاً لوظائف الخلافة.

٢- مرادفة (عن) كقولك (رضي الله عليه) أي عنه، وتعني (على) في الآية حسب هذا المعنى ان المؤمنين يصدر عن موازين وضوابط الهدى والرشاد.

٣- التعليل كما في قوله تعالى ﴿ وَتَكَبَّرُوا لِلَّهِ عَلَيَّ مَا هَدَاكُمْ ﴾^(٢) أي لهدايته إياكم، وهذه الآية تصلح تفسيراً للآية محل البحث، فقوله تعالى ﴿ عَلَيَّ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي انهم لم يبلغوا منازل الهدى الا بتوفيق من الله تعالى.

٤- مرادفة (في) كقوله تعالى ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَيَّ حِينَ غَفَلَةٍ ﴾^(٣) أي في حال غفلة، فالمراد من الآية الكريمة ان المؤمنين في هدى وارشاد من الله عز وجل فلا يخشى عليهم لإستقرار الإيمان في نفوسهم وثباتهم عليه.

٥- مرادفة (من) كقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَيَّ النَّاسِ ﴾^(٤)، والمعنى ان قول وفعل المؤمنين منبثق ومشتق من الهداية الإلهية لذا تظهر الحكمة على اقوالهم، والسيرة الحميدة في افعالهم.

٦- مرادفة (الباء) كقول القائل (اركب على اسم الله) أي بسم الله، أن

(١) سورة الاسراء ٢١.

(٢) سورة البقرة ١٨٥.

(٣) سورة القصص ١٥.

(٤) سورة المطففين ٢.

المسلمين يتصرفون بهدي من الله عز وجل ويستتيرون بضياء القرآن
وكمالات النبوة.

٧- قد تكون (على) زائدة بحالات قليلة، ويكون المعنى في الآية ان
المسلمين هدى وحجج من الله في الأرض، فهم الداعية الى الله،
المتعاهدون للشرائع السماوية، الذابون عن الرسالة السماوية، والمحافظون
على سنن التوحيد في الارض الى يوم القيامة.

وهذه الصيغ والوجوه من التفسير التي بينها بلحاظ المعاني المتعددة
للحرف او الكلمة إشارة ودعوة للإلتفات الى شطر من الكنوز العلمية التي
تتضمنها كل آية من القرآن، وسيأتي مثال آخر لهذه المنهجية الحديثة في
الخاص بآيات الصيام.

قوله تعالى ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

لقد أظهر المؤمنون الفناء في مرضاة الله بالتسليم والتصديق بما جاء به
النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذا التسليم جزء من الشكر له
تعالى والألوهية المطلقة لجبار السماوات والأرض الذي أحياهم مرتين مرة
بالتخلق والبعث، ومرة بالإخراج والإبعاد عن عالم الشرك والضلالة
فجاءت هذه الآية لتتضمن الثناء عليهم ومدحهم وبيان حسن الجزاء الذي
أعده الله لهم.

وجاء الفلاح والظفر في الآية على نحو البشارة والوعد الكريم وهو
أعم من ان ينحصر بالآخرة لأصالة الإطلاق وعظيم فضله تعالى ولأنه
سبحانه يعطي بالأوفى والأتم، وحتى في الآخرة فان الفلاح يشمل مقدمات
دخول الجنة ومواطن يوم القيامة كالحوض والميزان والصراط، وفي الآية
مسائل:

الأولى: الألف واللام في ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ للجنس، وأل الجنسية على

قسمين: اما إستغراقية تنبسط على أفراد الجنس، أو لبيان الحقيقة، وهي في

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية ٦.

الإعراب واللغة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا: ان واسمها، كفروا: فعل ماضٍ وفاعل والجملة
لأجل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول.
سواء: خبر مقدم، عليهم: جار ومجرور متعلقان بسواء.
أُنذِرْتَهُمْ: الهمزة للإستفهام بمعنى التسوية، وهي والفعل بعدها في
تأويل مصدر مبتدأ مؤخر.
ام: عاطفة متصلة، لم تنذرهم: لم: حرف نفي وقلب وجزم، تنذرهم:
فعل مضارع مجزوم بلم، والفاعل ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره (أنت)
والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به.
(لا يؤمنون) لا: نافية، يؤمنون: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت
النون، الواو، فاعل، وجملة لا يؤمنون خبر بعد خبر.
اصل الكفر التغطية، ولذا سمي الليل كافراً لظلمته ولأنه يكسو الآفاق
بالظلام، ويقال للزراع كافراً لما يقوم به من تغطية البذر اما في
الاصطلاح الشرعي فالكفر هو الجحود وإنكار الحقائق العبادية والفرائض
الإلهية مما أوجب الله تعالى العقاب عليه، وهو ضد الإيمان.
وعن الامام الصادق عليه السلام: "الكفر في كتاب الله على خمسة
أوجه: كفر الجحود، وهو على وجهين: جحود بالربوبية وان لا جنة ولا
نار، كما قال صنف من الزنادقة والدهرية الذين يقولون (وما يهلكنا الا

١٦٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الدهر^(١)، والوجه الآخر من الجحود وهو ان يجحد الجاحد، وهو يعلم انه حق، واستقر عنده، كما قال تعالى ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾^(٢).

والثالث كفر النعمة قال تعالى ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ

إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾^(٣)، الرابع ترك ما أمر الله به وعليه قوله تعالى ﴿

أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾^(٤)، الخامس كفر البراءة وعليه

قوله تعالى في قول إبراهيم لقومه ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾^(٥).

سواء: اسم بمعنى مستو كما في المقام، واصله المصدر إستواء ولأصله

المصدري فإنه لا يثنى ولا يجمع كما في قوله تعالى ﴿ فَتَكُونُونَ سَوَاءً

﴿^(٦)، وله إستعمالات عديدة فيأتي نعتاً للمكان على نحو (هذا مكان

سوى)، وبمعنى الوسط كما في قوله تعالى ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ

﴿^(٧) أي في وسط الجحيم، ويستعمل وصفاً بمعنى التام وبمعنى الإستثناء

بمنزلة غير كما في قولك (قرأت القرآن سوى المعوذتين).

أأندرتهم: بهمزتين على الأصل لان الهمزة الأولى للإستفهام والثانية

للوصل، وجمع اهل الكوفة وابن عامر بين الهمزتين.

الإنذار: الإبلاغ والتحذير من مخوف يمكن الإحتراز منه مع سعة

(١) سورة الجاثية ٢٤.

(٢) سورة النمل ١٤.

(٣) سورة ابراهيم ٧.

(٤) سورة البقرة ٨٥.

(٥) سورة الممتحنة ٤.

(٦) سورة النساء ٨٩.

(٧) سورة الصافات ٥٥.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٦٩

الوقت، وقيل ان لم يتسع وقته للإحتراز سمي إشعاراً.

في سياق الآيات

لقد بينت الآيات السابقة سمات المؤمنين وما يجب ان يتصفوا به، وما لموضع هذه الآيات في القرآن والسورة التي تفتتح بها من أهمية خاصة ودلالات مترشحة على موضوعها، وجاءت هذه الآية الكريمة لتبين صفات السلب والنقص في الطرف الآخر الذي يتخلف عن الإيمان، انه تقسيم سماوي لأهل الأرض بلحاظ الإيمان والتصديق الجازم الذي تترشح عنه ضرورة الإلتزام بالتكاليف والفرائض ويقابله على النقيض الكفر والجحود والضلالة.

ان الإنتقال الى بيان حال الكافرين درس عقائدي يؤكد كفاية الآيات السابقة في وصف المتقين وعظيم منزلتهم عندالله، وما أعد الله لهم من الثواب العظيم، وجاء الإنتقال من صيغة الخبر الى الإنشاء وتوجيه الخطاب القرآني الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبواسطته الى المسلمين والمسلمات جميعاً في آية وسر من أسرار الخطاب القرآني، وبقائه حياً متجدداً الى يوم القيامة .

ومن إكرام الله عزوجل للمسلمين ان جاءت الآيات الأولى من سورة البقرة في وصف حالهم بصفة التقوى والخشية من الله عزوجل وليبان حقيقة وهي إستمرار وجود الإسلام وعبادة الله في الأرض .
وفيه دعوة للكفار والناس جميعاً للإيمان ونبذ الكفر والضلالة فموضوع هذه الآية الإنذار من الكفر على لسان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويفيد الجمع بينها وبين الآيات السابقة ان الإنذار والزجر عن الكفر يأتي لجذب الناس الى الإيمان وليس الى المنزلة بين المنزلتين، فلا برزخ بين الإيمان والكفر، فيلازم الإنذار الدعوة الى الإسلام وتتجلى هذه

١٧٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الدعوة بالتصريح والبيان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمراتبه المتعددة.

ومن إكرام الله عز وجل للمسلمين ان جاءت الآيات الأولى من سورة البقرة في وصف حالهم بصفة التقوى والخشية من الله عز وجل وليبان حقيقة وهي استمرار وجود الإسلام وعبادة الله في الأرض، وفيه دعوة للكفار والناس جميعاً للإيمان ونبد الكفر والضلالة، فموضوع هذه الآية الإنذار من الكفر، وجاء الإنذار على لسان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويفيد الجمع بين هذه الآية والآيات السابقة ان الإنذار والزجر عن الكفر يأتي لجذب الناس الى الإيمان وليس الى منزلة بين المنزلتين، فلا برزخ بين الإيمان والكفر، فيلازم الإنذار الدعوة الى الإسلام وتتجلى هذه الدعوة بالتصريح والبيان ويأظهار المسلمين آداب العبادة والحرص على أداء الفرائض طاعة لله تعالى.

وإذ جاءت الآيات الأربعة السابقة في بيان صفة المتقين بما يبعث الرغبة في النفوس الى الإيمان والتقوى، ويجعل القلوب المنكسرة تعشق الإسلام ويمنع من اللبس والترديد، فقد جاءت هذه الآية مع أربع عشرة آية بعدها في ذم الكفار والمنافقين لتكون مدرسة وموعظة وإنذاراً قرآنياً يجري أيضاً على ألسنة المسلمين في التلاوة والقراءة، ومدداً سماوياً لهم في الموعظة والدعوة الى الله تعالى، وتأتي بعدها آيات تدعو الناس جميعاً للإيمان والإقرار بالعبودية لله تعالى في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١)، في توكيد على التقوى وحاجة الناس اليها مجتمعين ومتفرقين، فكل إنسان يحتاج الإيمان والتقوى لذاته ولغيره.

(١) سورة البقرة ٢١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٧١

وجاءت الآية التالية في بيان العلة الذاتية لعدم إستجابة الكفار للإنذار، إذ تتكون العلة التامة من وجود المقتضي وفقد المانع، ويرجع عدم إيمان الكفار الى وجود المانع عندهم بإختيارهم الكفر ووجود غشاوة على قلوبهم، بسبب عنادهم وإصرارهم على الجحود وإرتكاب المعاصي.

إعجاز الآية

تخبر الآية عن عدم كفاية صيغ الإنذار والتحذير من اهل الخصومة واللجاج والشقاق، وتفتح آفاقاً من العمل وتحث المسلمين على إبتكار صيغ اكثر شدة مع الكفار او انها تحيلهم الى آيات علاجية أخرى، وتفضح سراً من أسرار الكفر وما يحمله المشركون من سموم المعصية والجحود والعناد وكأنها إنذار لهم بالعذاب ، والآية حصانة عقائدية من الأضرار المترشحة عن جحود الكفار وضلالتهم، وإخبار عن واقع من علم الغيب وكنوزه وموضوعه وما فيه من سبر أغوار نفوس الكافرين ، ومضامين التحدي والكشف والإخبار عن قبح الإصرار على الكفر.

ويمكن تسمية هذه الآية بآية (الأذرتهم) ولم يرد لفظ أذرتهم في القرآن إلا في

آيتين.

الآية سلاح

إخبار الآية عن حقيقة وعداوة الكفار حرز وواقية دون ديبب اليأس الى النفوس وبيان لعدم تأثير السعي المتواصل معهم رجاء ايمانهم وفيه بركة وتوفير للجهود، فاراد الله عز وجل بهذه الآية توفير هذه الجهود وتوجيهها برشاد، ولتكون برهاناً يؤكد بأن القرآن قائد وإمام ورائد، فمن لا نفع فيه ولا أمل باسلامه لا حاجة للعناء والإجتهد في محاولات إقناعه، وفيها إشارة وحث على توظيف تلك الجهود في ميادين أخرى أكثر أهمية وأولوية .

١٧٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وفي الآية تخفيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا لوم يوجه له بسبب الإعراض عن الكفار او الإنتقال الى صيغ أشد من الإنذار والتحذير.

أسباب النزول

ترى هل نزلت الآية بخصوص قوم وأشخاص بأعيانهم، أو انها عامة وتتعلق بالكفار مطلقاً في عصر النبوة، او ان سبب النزول أعم، ذكرت في المقام اقوال:

- ١- انها نزلت في ابي جهل وفي خمسة من قومه من قادة الأحزاب قتلوا يوم بدر^(١)، عن الربيع بن انس واختاره البلخي والمغربي.
- ٢- نزلت في قوم باعيانهم من أحبار اليهود الذين حول المدينة، روي عن ابن عباس^(٢)، وعنه ايضاً انهم رؤساء اليهود المعاندون.
- ٣- نزلت في مشركي العرب^(٣)، عن الأصم.
- ٤- نزلت في اهل الختم والطبع الذين علم الله انهم لا يؤمنون، عن أبي علي الجبائي.

٥- هي عامة في جميع الكفار، أخبر تعالى بان جميعهم لا يؤمنون^(٤).
اما بالنسبة للقول الأول والثاني فيمكن ان يكونا من مصاديق الآية الكريمة وشاهدي صدق على إعجاز القرآن، اما القول الثالث فيمكن ان تتعلق الآية بمن اصر على الكفر والجحود منهم والافان افراداً وجماعات كانوا يأتون الى المدينة لإظهار الاسلام.
وكانت ظاهرة وفود القبائل الوافدة على النبي صلى الله عليه وآله

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ١ / ٤٣.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ١ / ٦٠.

(٣) مجمع البيان ١ / ٤٣.

(٤) مجمع البيان ١ / ٤٣.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٧٣

وسلم معروفة عند المسلمين وحقيقة تاريخية، إستمرت الى ما بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم وهي تعلن خلع القبائل العربية لرداء الكفر البالي ودخولها في الاسلام، وتلك الظاهرة وان كانت نتيجة لإعجاز النبوة والقرآن الا انها هي الاخرى معجزة وسبب إضافي لإتساع الإسلام في السنوات اللاحقة وفي القبائل الأخرى والبلدان البعيدة عن الجزيرة العربية.

الآية لطف

جاء القرآن تبياناً لكل شيء، ومما مبين فيه حال الكفار، وكيفية تلقيهم للدعوة الإسلامية وآيات النبوة، ومن اللطف الإلهي تضمن آيات القرآن صيغ الإنذار والتخويف والوعيد، وهي رحمة بالمسلمين وبالكفار معاً، اما المسلمون فمن وجوه:

الأول: بيان طريقة الوعظ والدعوة.

الثاني: تلقيهم الحجة وكيفية الإحتجاج على الكفار.

الثالث: بعث السكينة في قلوب المسلمين لأنهم إنتفعوا من لغة البشارة، وأصبحوا في أمان من لغة الإنذار وما فيها من الوعيد، أما وجوه الرحمة في لغة الإنذار للكفار فمن وجوه:

الأول: حثهم على الإيمان.

الثاني: توكيد حقيقة اليوم الآخر وعالم الحساب.

الثالث: عدم تركهم والإقامة على الكفر والجحود، بل يقوم الكتاب والمسلمون بالهجوم عليهم بصيغة الإنذار والتخويف، فكل آية من آيات القرآن تتضمن الإنذار والوعيد هي حرب على الكفر والكفار، ولطف بهم وجذب لهم الى منازل الإيمان، ومع إخبار الآية بعدم إعتبار الكفار من الإنذار فانها لا تعني الإستغناء عنه او تركه، بل هو حاجة ونفع للمسلمين ايضاً، وحجة على الكفار وصيغة من صيغ الإحتجاج والجهاد.

مفهوم الآية

الآية في مفهومها تؤكد بالمعنى على صفات المتقين ولزوم المبادرة والسبق لتحصيلها بالكسب والسعي وقصد القربة الى الله تعالى، فالآية وان كانت ذمياً صريحاً للكافرين فهي مدح للمؤمنين وإثبات لحقيقة وجود المنذر والمبلىغ والداعي الى الله.

وبما ان آيات القرآن وخطاباته لا تنحصر بأيام النزول فان الآية تؤكد على وجود أهل الإيمان وغلبتهم وأهليتهم للتحذير والتخويف من بطشه تعالى، وتدلل على وجود سعة للإنذار والتذكير بالوعيد وشدة العذاب في الآخرة على الكفر والجحود، وفيها ذم ووصف إجمالي لما عليه الكفار من العناد والإصرار، ومن مفاهيمها التخفيف عن المؤمنين.

والخطاب في الآية وان جاء على نحو القضية الشخصية وموجهاً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الا انه إنحلالي والمراد منه المسلمون كافة، لتكون الآية مانعاً من اليأس والقنوط وديب الشك الى النفوس عند رؤية الكافرين يصرون على البقاء في منازل الجحود والكفر، فالآية تثبيت للإيمان في صدور المسلمين.

ودعوة لهم للتوجه الى القرآن وأداء الواجبات والإعتناء بالذات وإصلاح النظام الإجتماعي والسياسي والتربوي للمسلمين والإحتراز من الكافرين والإستعداد للقائهم والتوقي من شرور الكفر والجحود. وتتضمن الآية مسائل:

الأولى: توجه الخطاب الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطته الى المسلمين جميعاً ذكوراً وإناثاً في أجيالهم المتعاقبة.

الثاني: بعث السكينة في قلوب المسلمين وعدم اليأس بسبب إصرار الكفار على الجحود.

الثالث: تضمن الآية لقاعدة كلية تتعلق بالكفار وعدم انتفاعهم من

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٧٥

الإنداز مع حجته ودلالته وموضوعيته في الهداية.

الرابع: تؤكد الآية حقيقة وهي عدم ترك النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين للكفار على كفرهم، فمع إصرار الكفار وإعراضهم عن لغة الإنذار والوعيد فإن المسلمين يتوجهون اليهم بصيغ من الدعوة أكثر تأثيراً، مما يدل على قوة ومنعة المسلمين، وبلوغهم مراتب عالية في التفقه في الدين .

وتبين الآية حاجة المسلمين الى الوحدة ومعاني الأخوة الإيمانية، والتمسك بالقرآن والسنة.

إفادات الآية

من الناس من تغلب عليه النفس الشهوانية والحيوانية ويتحكم بلسانه وجوارحه الهوى والدرن المترشح عن عمى البصيرة ويكون عرضة للشيطان، فينقاد لقوى الضلالة والكفر، ويضع اصابعه في اذنيه لإجتنا ب سماع الآيات والبراهين الدالة على التوحيد وصدق الرسالة، فجاءت هذه الآية لذمه وتقبيح فعله.

وتبين الآية موضوعية الإنذار في سبل الدعوة الى الله تعالى وان تخلف عن الإنتفاع منها الذين أصرروا على الجحود والكفر.

والآية حجة على الكفار في توجيه الدعوة للإيمان اليهم بصيغة الإنذار والوعيد والتخويف، وهي شاهد على جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل الله، وقيامه بالتبليغ وأداء الرسالة، وقيام المسلمين من بعده بالدعوة الى الله تعالى، فصحيح ان شطراً من الكفار بلغوا حال الإصرار على الكفر الا ان المسلمين لم ينقطعوا عن إنذارهم بدليل هذه الآيات التي هي إنذار لهم مقرون باللوم والتقبيح.

الصلة بين أول وآخر الآية

بعد ان أختتمت الآية السابقة بحال المتقين وانهم الفائزون في **الآخرة**،

١٧٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

انتقلت الآية الى ذكر الكفار مع بقاء لغة الخطاب وتوجهها الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إشارة الى عالمية رسالته وانه **مبعوث من عند الله عزوجل الى** الناس جميعاً، وان كثرة عدد المسلمين وفلاحهم وفوزهم لا يمنع من مواصلة الجهاد في دعوة وتوبيخ وإنذار الكفار.

وذكرت اقوال عديدة في أسباب النزول **وهي لا تتعارض مع إطلاق الآية** في زمانها وأشخاص الكفار، وقد يقال من الكفار من يتوب ويدخل الإسلام ويحسن إسلامه ويكون من المتقين والجواب إذا تغير الموضوع تغير الحكم، فهذه الآية لا تشمل الذي ينتقل الى الإسلام، وان **اتفق** انه كان كافراً أيام نزول الآية فالأمور بخواتيمها.

وإبتدأت الآية بذكر الذين كفروا، لتعود في وسطها وتؤكد **إستمرار** الخطاب الإلهي الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه إكرام له وللمسلمين، وتوبيخ للكفار، لتخلفهم عن الإيمان والشكر لله تعالى، وصحيح ان الآية جاءت بصيغة الإستفهام الذي تدل عليه همزة التسوية في **(إنذرتهم)** الا انها تتضمن معنى الخبر، وهي واقية من الشك والريب عندما يمتنع الكفار عن الإيمان، فمن الكفار من يصر على الكفر ويتجاهر بانكار نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن في أيام التنزيل وفي كل زمان، فتأتي هذه الآية لتكون حرساً للمسلمين وباعثاً للسكينة في قلوبهم، فلا يلتفتون الى إعراض وجحود الكفار، بل يزدادون إيماناً اذ ان الآية الكريمة تحبر عن ضلالة وعناد الكفار، الذي يترشح عنه الخسارة وعدم الفلاح لإرادة معنى الضد الخاص **للإيمان وماله من الثواب**، فاذا كان المتقون هم المفلحون والفائزون، فان ضدهم واعداءهم هم الخاسرون.

وتمنع الآية من الأسف والحسرة والأذى **والإنشغال** بحال الكفار، لانهم إختاروا **بأنفسهم** الكفر والجحود.

وذكرت الآية الإنذار وعدمه وفيه تخفيف عن المسلمين، وإخبار بان

الخلل عند الكفار باصرارهم على الكفر، وحصول المانع عندهم من الإيمان، مع وجود المقتضي له الذي يتجلى بالتنزيل وآيات الآفاق، والمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، **وهي** دعوة قائمة بذاتها وحجة إذ ان الدعوة الى الإيمان لا تنحصر بصيغ الإنذار لذا جاءت الآيات السابقة بذكر المتقين بصفة الإيمان بالتنزيل وإقامة الصلاة **وإيتاء الزكاة**، وهي أمور لا تأتي بالإنذار وحده، بل تأتي بالبشارة كما أن العقل رسول ذاتي عند الإنسان يدعوه الى الإيمان والهداية والأصل **الإيمان** وهو موافق للفطرة وتعضده الآيات الكونية وبعثة الأنبياء، فوظيفة الإنسان الإيمان قبل ان تصل النبوة الى الإنذار **والتخويف** والوعيد، وعن الإمام علي عليه السلام **في مناجاته**: ما عبدتك خوفاً من نارك. ولا طمعاً في جنتك لكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك^(١).

وكما أن الآية حرز للمسلمين وبرزخ دون الحيرة والشك، فانها تحذير للمسلمين من الكفار وإصرارهم على الكفر وما يترشح عنه من محاولات الإضرار بالمسلمين **والطعن** في دينهم، **ولا تقلل** الآية من أهمية صيغ الإنذار وتخويف الكفار من الجحود وسوء عاقبته، بل تؤكد أهميته **وما فيه** من **الثواب**، وهو شعبة من الجهاد، الا ان المانع عند الكفار **ذاتي** باتباعهم النفس الشهوية **وإغواء** الشيطان، **وإعراضهم** عن الآيات. ومن الآيات وجود **أمة مسلمة** تتصف بالتقوى والصلاح، فكل مسلم حجة على الكفار ، ودعوة إنسانية حاضرة لهم للإنابة.

التفسير الذاتي

بعد أن جاءت الآية السابقة بصيغة الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، **وتضمنت** مدح المسلمين لإيمانهم بالتنزيل على نحو العموم المجموعي والإستغراقي، فلم يكن التصديق بالقرآن مانعاً من الإيمان

(١) بحار الأنوار ١٨٦/٦٧.

١٧٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

بالكتب السابقة، بل بالعكس فان القرآن عرف نفسه بأنه مصدق للتوراة والإنجيل ليكون المسلمون ورثة الأنبياء في باب حفظ التنزيل وإكرام الأنبياء السابقين.

وجاءت هذه الآية خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً مع التباين في موضوع الآيتين، إذ **تتضمن هذه** الآية بيان حال الكفار وجحودهم وعنادهم وإصرارهم على الباطل، ويفيد الجمع بين الآيتين إنقسام الناس قسمين:

الأول: المؤمنون وجاءت هذه الآيات ببيان صفاتهم الحسنة، ومدحهم.

الثاني: الكفار الذين جاءت هذه الآية بدمهم، وبيان إصرارهم

وعنادهم.

وذكرت الآية الذين كفروا من غير متعلق الكفر والمراد كفرهم بالله عز وجل **ونبوة** محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن، **ولا يصغون** إلى لغة الإنذار الواردة في القرآن، ومضامين الإنذار التي ترد على لسان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم **وقد بعث** الله عز وجل النبي **محمد** صلى الله عليه وآله وسلم بشيراً ونذيراً للناس جميعاً قال الله سبحانه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(١).

ولا تعارض بين الآية أعلاه، والآية محل البحث والتي لا تتضمن نهى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الإنذار لأن وظيفة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنذار **الناس** جميعاً قال سبحانه ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾^(٢).

ولكن تبين المانع الذاتي عند الكفار وإصرارهم على الجحود **وعدم**

(١) سورة البقرة ١١٩.

(٢) سورة إبراهيم ٤٤.

الإصغاء للإنذارات، **وهل يتوجه** لهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالبشارات، الجواب إن البشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولكنها **تتوجه** للكفار بالمفهوم والتحريض **وترك** الكفر والجحود كمقدمة للسعي في مراتب البشارة ومضامينها القدسية.

ومن رحمة الله عز وجل أن الإنذارات تصل إلى الناس جميعاً وقد جعل الله عز وجل القرآن منذراً حاضراً بين الناس، وتصل آياته إلى أسماعهم طوعاً وقهراً بقراءة المسلمين لها في الصلاة، وهو من أسرار وجوب القراءة في الصلاة.

فان **قيل** إذا كانت هذه منافع القراءة في الصلاة وأنها عامة للناس، فلماذا لا تجوز القراءة بترجمة القرآن لغير العربية كي تفهم الأمم كلاً بلغته مضامين القرآن وما فيه من البشارات والإنذارات.

والجواب ان القراءة بالعربية حكم تعبدية وهو لا يتعارض مع ترجمة تلك القراءة ورجوع الناس إلى ترجمة القرآن، وبيان معاني آياته بحسب اللغات والألسن المتعددة.

وان قيل من الكفار من يهجر الكفر ويقلع عن الذنوب، ويدخل الإسلام، والجواب من وجوه:

الأول: **إن** الآية لم تنف إيمان شطر من الكفار، لأن أسباب دخول الإسلام **كثيرة** منها آيات **الآفاق**، ومعجزة القرآن، ولغة الإنذار فيه قال تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(١).

الثاني: لاتشمل هذه الآية الذين يدخلون الإسلام، فالقدر المتيقن منهاهم الذين يقيمون على الكفر والجحود.

الثالث: **لا تمنع** الآية من إنذار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للكفار، ولكنها تتضمن الإعجاز في بيان إقامتهم على الكفر عناداً، ومن

(١) سورة الأحقاف ١٢.

١٨٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

إعجاز نظم القرآن بيان إعراضهم عن الإنذارات بالطبع **والغشاة** والختم الذي جاء بسبب هذا الإصرار.

الرابع: جاءت الآية لبيان موضوعية الإنذار **وأهميته** في الدعوة إلى الله، فأخبار الآية **عن صدور الكفار عن الإنذار** يدل على قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بوظائف النبوة خير قيام.

ولم يرد لفظ **(أنذرتهم)** ولفظ (تنذرهم) إلا مرتين في القرآن وبذات الجملة من صدق نبوته، وبذله الوسع في التبليغ، **فقد** ورد في سورة يس قوله تعالى ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

لقد أراد الله عز وجل التخفيف عن المؤمنين، **وبعث السكينة في نفوسهم**، وطرد الشك عنهم بسبب إصرار الكفار على الجحود، **وبيان** وجود المانع الذاتي عندهم من الإيمان.

من غايات الآية

تبين الآية ما كان يلاقيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى من الكفار، ففي إعراضهم إلى دعوته وإنذاراته أذى له وللمسلمين، لأن الإصرار على الكفر يضر بصاحبه وبالمسلمين وعموم الناس، وجاءت الآية بصيغة الجمع **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** مما يعني مواجهة النبي للكافرين مع كثرتهم وإجتماعهم من غير خشية أو خوف منهم، وفي الآية دلالة على أن لغة الإنذار أعم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد يسقط الأمر بالمعروف مع الإصرار، والمتيقن من عدم إستجابة المأمور، فإن لغة الإنذار لا تنقطع بحال، ومن صفات النبي انه نذير، وكذا القرآن.

ويقتدي المسلمون بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إنذار الكفار، كما ان تلاوتهم للقرآن، وأدائهم للفرائض والعبادات لغة في

(١) سورة يس ١٠ .

الإذارات.

ومن غايات الآية بيان قبح فعل الكفار وإصرارهم على الجحود والكفر، ودعوة المسلمين للصبر وعدم الإلتفات الى جدالهم وعنادهم وإصرارهم.

التفسير

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ﴾

ظاهر الآية يحتمل ما هو أعم من الأقوال التي وردت في تفسيرها ورددتها المفسرون في كتبهم عبر العصور حكاية او إتفاقاً في الرأي.

فالآية تتعلق بصيغ وكيفية الدعوة الى الإسلام، ولا ينحصر موضوعها في مقام الإخبار بل تشمل التشريع والجعل والتأسيس لمناهج الدعوة الإسلامية وفلسفة الإيمان، وتشمل أحكامها وسنن الإمثال وقبح الجحود. انها بداية مرحلة جديدة تتعدى في حركتها الجوهرية أسلوب التحذير والتخويف والإنذار ويمكن ان يقال انها تمهيد وتهيئة لآية السيف ومرحلة القتال ضد الكفر بعد ان إنتفع فريق من الكفار بالإنذار وفريق إستمعوا او سمعوا الوعيد والتخويف بالعقاب الأخرى ولكنهم لم يغادروا منازل الكفر.

أفليس من الحكمة ان يدعى الى الرشاد بطرق أخرى وأبواب عقائدية أكثر وأسرع تأثيراً او تكون حجة وبرهاناً، اذ ان البديل ليس بالضرورة آية السيف وحدها، فقد تكون تلك الدعوة بالبينه والحجة والبرهان، ولا تعارض بين الموعظة والجهاد، فهي في طوله وعرضه في آن واحد قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١).

(١) سورة النحل ١٢٥.

١٨٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وقد لا يتعلق الأمر بالإختلاف في صيغ الدعوة الى الإسلام ولكن لبيان فضل الله تعالى على المسلمين وان شطراً من الكفار لم يؤمنوا بالإنذار وإنما قذف الله الايمان والهداية في قلوبهم وجعلهم يدخلون الإسلام رحمة منه تعالى، قال تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(١)، وفي الآية الكريمة وجوه:

- ١- انها عز للمسلمين.
- ٢- فيها دليل على سعة ما في أيديهم وما يمتلكون.
- ٣- بشارة كريمة لما سخر الله لهم ضد الكفر وفي طرق الهجوم عليه وإجثائه.
- ٤- إشارة وحث على البحث عن صيغ دعوة غير المسلمين للإسلام وكيفية دخولهم ميادين الإيمان بمنزله ودرجاته المتفاوتة.
- ٥- انها تنبيه للمسلمين أنفسهم بعدم الوقوف عند مرحلة الإنذار.
- ٦- ان الاكتفاء بانذار الكفار وتخويفهم غير كاف للمعذورية عند رب العالمين، فمثلما يسعى المسلمون في وجوه الرزق والكسب والى الفرائض والعبادات كالصلاة والصوم والحج كذلك عليهم ان يجتهدوا في طرق دعوة الكفار الى الإسلام.
- ٧- من باب الأولوية ان تكون الدعوة مقرونة بالحجج والبراهين او بوجوه التعامل اليومي والتجاري او بالقتال والجهاد.
- ٨- وفي ساحات القتال لا تنقطع الدعوة بالصيغ الأخرى كلقاء الخطب والكلمات والمفاوضات والوفود والوعيد والتخويف، والسلوك الشخصي كما في حرمة لبس الحرير وجواز لبسه للرجال في المعركة دون غيرها من الأحوال، وعلة الجواز هي بيان عز الإسلام والطبيعة العقلانية لنظامه

(١) سورة القصص ٥٦.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ١٨٣

الإجتماعي وما فيه من رغد العيش.

٩- حث للأعداء لدخول الإسلام ، ونبذ محاربتة التي تعني خسارة الدارين.

١٠- في الآية دعوة وتنبيه للمسلمين للإستعداد والإعداد للجهاد وتهيئة مستلزماته.

وتعدد وجوه التفسير لا يتعارض مع الأقوال الكريمة التي وردت في أسباب النزول، وباستثناء القول الثاني منها الذي نسب الى ابن عباس مرسلأ فان الأقوال الأخرى للتابعين وتابعي التابعين ولعلمهم تلقوها سماعاً من الصحابة.

ولو قلنا بالملازمة وصدق أسباب النزول فهناك قاعدة كلية عليها إجماع علماء المسلمين وهي ان الآية الكريمة موضوعاً ومحمولاً اعم من ان تنحصر بأسباب النزول، كما لا يمكن الإستغناء عن اعتبار الإنذار في القضاء على الكفر، فالآيات التي تتضمن الإنذار مستوعبة لزمان نزول القرآن او أكثره، بل ان القرآن في نزوله وبقائه إنذار ونذير، وهذا الأمر من الإعجاز الغيري للقرآن.

ومن أسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم النذير قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾^(١) والإنذار وصيغه لا ينحصر بالكفار بل يشمل أهل الإسلام ويتعدى في موضوعه الاصول ليشمل فروع الدين وضرورة التقيد بأحكامه قال تعالى ﴿ فَلَوْلَا نَفْرَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَفْتَقَهُوا فِي الدِّينِ وَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾^(٢).

وروي في الصحيحين عن الأعمش قال سمعت زيد بن وهب عن عبد

(١) سورة سبأ ٢٨.

(٢) سورة التوبة ١٢٢.

١٨٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الله قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الصادق المصدوق قال ان أحدكم يجمع في بطن امه أربعين يوماً ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغاً مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر باربع برزقه وأجله وشقي أو سعيد فوالله ان أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها^(١).

وحكى الخطيب في تاريخ بغداد خبرنا أبو نعيم الحافظ قال سمعت أبا عامر عبد الوهاب بن محمد بن أحمد بن إبراهيم العسال يقول سمعت أبي يقول سمعت مسبح بن حاتم البصري يقول سمعت عبيد الله بن معاذ العنبري يقول سمعت أبي يقول سمعت عمرو بن عبيد يقول وذكر حديث الصادق المصدوق فقال لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبتة ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا ما أجبته ولو سمعت عبد الله بن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا لرددته ولو سمعت الله تعالى يقول هذا لقلت له ليس على هذا أخذت ميثاقنا^(٢).

والنقاش فيه من وجوه:

الأول: صحة السند وإحتمال عدم صدور هذا الكلام عن عمرو بن عبيد ، والأولى تنزيه كتب المسلمين من مثله.

الثاني: على فرض صدوره فانه مخالف لمضامين العبودية لأن العبد لا يجعل نفسه في مقام الحكم والفيصل في الآيات والنصوص الواردة في السنة النبوية الشريفة،

الثالث: لا بد من تأويل هذه الأحاديث بما لا يخالف القواعد والضوابط

(١) صحيح البخاري ٢٥٦/٧.

(٢) تاريخ بغداد ١٧٠/١٢.

الشرعية ومفهوم هذا الخبر هو ان الإيمان عند الأول ليس مستقراً وتغلب عليه الشقاوة ويعمل ما يدخله النار باختياره ويأتي الكتاب كإعجاز وبيان لعلمه تعالى السابق للأمور، والله عز وجل لا يحمل العبد على فعل السيئة، اما الثاني فان رحمته تعالى قد تدركه بالتوبة والندم وإختياره عمل الصالحات فيجازيه الله بمحو الذنوب والمغفرة ودخول الجنة.

الرابع: عمرو بن عبيد (٨٠-١٤٤) هجرية، شيخ المعتزلة في عصره، وجدته من سبي فارس، وأبوه شرطي للحجاج في البصرة وعرف عمرو بن عبيد بالزهد والعلم، وله أخبار مع ابي جعفر المنصور قبل وصول بني العباس للخلافة وبعده وقد رثاه المنصور، وعن وفيات الأعيان ان المنصور رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه، وله رسائل وخطب وكتب منها (التفسير) و(الرد على القدرية).

والحديث جاء على نحو الحكاية وهو ليس حجة في علم الرجال والحديث لأنه لم يوثق الرجال الذين نقلوا الخبر كما انه لا اعتبار له شرعاً في نعت الرجل بالكفر بالشك فلو تنزلنا وقلنا بصحة سند الحديث، فيمكن تأويله بأن أحكام الآية باقية الى يوم القيامة، بلحوق كل كافر يعمل عمل أبي لهب ولا يكون جزاؤه إلا النار، و اراد فيه محاكاة القراءات التفسيرية للفظ القرآني ولكن بالمعنى والبيان ولغة التخويف والتحذير.

ان وجود إختلاف بين العلماء والإنقسام بينهم الى أشاعرة ومعتزلة ونحوها من المذاهب الكلامية او الفقهية يجب ان لا يؤدي الى رمي بعضهم بالكفر او الشك بكلمة لم تثبت صحة صدورها، او يمكن تأويلها تأويلاً حسناً، والإحتراز في هذا الباب فيه صيانة للقرآن وحفظ للنفوس من ديب الشك ومنع من تعدي أهل الريب والحسد.

وفيما دلت عليه الآية من اخبار تحدث بعض المتكلمين عن عدم ايمان الكفار وان محاولتهم الإيمان سعي لتبديل كلام الله الذي أخبر بانهم لا يؤمنون، وإن تركهم سبل الإيمان معصية، فيتعلق بهم الدم في حالتي الفعل

والترك.

ولكن الآية إعجاز دائم وإخبار سماوي كريم عن حقيقة ثابتة ودلالة قطعية وهي ان علمه تعالى أزلي ليس حادثاً لامتناع انفعاله عن غيره، فصحيح ان (الذين) إسم موصول من أنواع المعارف يفتقر الى الوصل بجملة خبرية تحتمل الصدق والكذب، وفي الآية الكريمة لا يحتمل الوصل الا الصدق.

وقد تكون صلته ظرفاً او جاراً ومجروراً تامين من جهة الفائدة او الوصف الصريح، فانه في الآية لا يقصد منه أفراد الكفار واستغراق الجنس وان كان من صيغ الجمع مثل (لا) التعريف بل يراد الحقيقة وموضوع الكفر كماهية مهملة، فلا تغلق الآية الكريمة الباب أمام من يؤمن بالنبوة والإسلام بل بالعكس إنها تدعوه الى نبذ الكفر باظهار قبحة وزيفه وضرره وما يتعقبه من الهلاك، والشواهد على ذلك كثيرة، وناقش المعتزلة والجبرية في الآية بمباحث متشعبة تبدو قليلة الثمرة خاصة مع التفسير الأعم للآية.

قال الرازي: إحتج أهل السنة بهذه الآية وكل ما أشبهها مثل قوله ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(١) وقوله ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ الى قوله ﴿ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴾^(٢) وقوله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾^(٣) على تكليف ما لا يطاق وتقريره أنه تعالى أخبر عن شخص معين انه لا يؤمن قط، فلو صدر منه الإيمان لزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذباً، ثم قال: انه تعالى لما علم منه انه لا يؤمن فكان صدور

(١) سورة يس ٧.

(٢) سورة المدثر ١١ - ١٧.

(٣) سورة المسد ١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني ١٨٧

الإيمان منه يستلزم إنقلاب علم الله تعالى جهلاً به وذلك محال^(١). ويمكن مناقشة تلك المباحث كبرى وصغرى، أما الكبرى فإن تأويل الآية ينصرف الى غير الذي يظنون، فالآية جاءت لبيان قاعدة كلية وهي ان صيغ الإنذار لا تنفع مع الكافرين، فمن الناس من يؤمن بالآية والموعظة والبرهان، ومنهم لا يؤمن الا بواسطة السيف ولكنه يصبح مع الإيمان ممن لا يشملهم ذم الكافرين في هذه الآية لأنه ليس منهم، ومن آمن يلحق بسلك أهل الإيمان ولو كان إسلامه بواسطة عرضه على السيف.

واما الصغرى فإن التسليم بصدق القرآن وإخباره يجب ان يكون الطابع العام لمباحث التفسير مع تنزيه مقام الربوبية عن النعت غير المناسب ولو كان من باب النفي الإستدلالي لأنه زائد، ولو كان هؤلاء يتكلمون عن ملوك زمانهم فلا يذكرونهم الا بالإطراء والمدح ويتقربون بالكناية اللطيفة والمجاز الودود.

قال بشير الميرسي للشافعي وهما في مجلس الرشيد: كيف تدعي إنعقاد الإجماع مع ان أهل المشرق والمغرب لا يمكن معرفة وجود اجماعهم على الشيء الواحد، فقال الشافعي: هل تعرف إجماع الناس على خلافة هذا الجالس؟ فانقطع باقرار وخوف.

لقد انتقلت الآية الكريمة بعد وصف المتقين ومدحهم الى ذم الكفار وإخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإستيلاء الكفر على قلوبهم لتظهر ما كان يعانيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجهاده المركب في دعوتهم وتحمل أذاهم وعنادهم وصدودهم ومع هذا لم ييأس من دعوتهم.

والآية الكريمة لا تدعو الى اليأس منهم كما ظن المفسرون، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للناس جميعاً يسعى في صلاحهم يؤازره القرآن والمسلمون لتضييق دائرة الكفر وكبح شروره ورد غائلته، فالآية دعوة

(١) مفاتيح الغيب ٤٢/١.

١٨٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين للعمل والتوسعة في وجوه الجهاد والصبر والمرابطة.

وتثبيت أركان الدين وأحكام الشريعة وعدم إعطاء الأولوية في العمل الى دعوة الكافرين خصوصاً وان الآيات التي جاء بها النبي محمد جامعة وهي عقلية وحسية، وكل من القسمين يتصف بالتعدد والكثرة والظهور.

قوله تعالى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾

إعجاز قرآني وتحذ للكافرين وقهر للنفس الشهوية والغضبية بكشف ماهية الكفار وسبر أغوار نفوسهم ، ولا أحد من الناس يجراً بالإخبار عن بقاء إنسان على الكفر مع توالي الآيات وإزدياد قوة المسلمين في المدينة، ولكن القرآن كتاب نازل من السماء، وكاشف للحقائق بما يفضح الكافرين، ويقوي شوكة المسلمين.

وقد نزلت في مكة آية المسد وأخبرت على نحو القطع بكفر أبي لهب وإمراته وتضمنت ذمهما مما يعني أنهما يموتان على الكفر وكان الواقع كما أخبر القرآن، وبعد القضية الشخصية إتجه القرآن الى المسألة النوعية الأعم وتحدى الكافرين وذمهم على ضلالتهم مما يعني ان الإسلام أصبح قويا منيعاً لا يخاف نقمة الكافرين وسطوتهم بسبب نعتهم بالكفر وعدم نفع الإنذار معهم، سواء في مكة او المدينة لأن موضوع الآية ورد أيضاً في سورة يس وهي مكية.

لقد رمتهم الآية بالجهل والعجز عن تدبر الإنذارات والإتعاظ بالآيات الأمر الذي يثير حفيظتهم ويجعلهم يمكرون بالإسلام ويسعون في أسباب الغدر والكيد كما حصلت شواهد عديدة للآية خصوصاً أيام البعثة النبوية. وتدل الآية على قدرة المسلمين على الثبات والصمود بوجه جنود الشيطان والقوى الظلمانية.

ولا تنحصر مضامين الآية بايام النبوة بل هي حية باقية الى يوم

القيامة وهي عون للمسلمين في معرفة خفايا النفوس، وكيفية التعامل مع الأمم والملل الأخرى، والتوجه الى أسباب الكمال الإنساني وإجتناّب التآثر بالكفار وما قد يسببه من خلط العمل الصالح بآخر سيء.

وهل في الآية دعوة الى دراسة أسباب عدم الإيمان بعد رؤية الشواهد والبراهين الدالة على صدق النبوة، الجواب نعم ولما كان الإسلام موافقاً للفطرة الإنسانية فان الجحود والعناد جاء للكفار بالعرض وإستقر في نفوسهم لإختيارهم الشقاوة في النشأتين.

لقد عزلت الآية الكافرين، وجعلت الريادة والسيادة في العقائد والمبادئ لأهل التوحيد الذين يقومون بالتبليغ والإنذار فيهتدي من ينظر ببصيرته ، ويقيم على الكفر من إختار الخسارة والعذاب.



قوله تعالى ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الآية ٧.

الإعراب واللغة

ختم: فعل ماض، اسم الجلالة فاعل، على قلوبهم: جار ومجرور متعلقان بختم، والضمير (هم) مضاف اليه، وعلى ابصارهم: الواو إستئنافية والجار المجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. غشاوة: مبتدأ مؤخر، ولهم: الواو حرف جر، عذاب: مبتدأ مؤخر، عظيم: صفة لعذاب.

الختم: الطبع والشد والأثر الباقي كالسمة والعلامة، ولكنه يختلف عنهما بانه قد يكون حجاباً، وحكي عن مجاهد انه قال: ألرين أيسر من الطبع، والطبع ايسر من الختم ومن الاقوال. والغشاوة: الغطاء هكذا في كتب اللغة وظاهر كتب التفسير ولكنها قد تعني الغطاء الرقيق الذي لا يحول تماماً دون الرؤية الحقيقية الناصعة او سماعها وفق احكام الحجة في دار الدنيا باعتبارها دار إبتلاء وإمتحان، فهي لا تحول دون الرؤية القهرية للآيات خصوصاً وانها تواجه الإنسان في الآفاق وفي نفسه، وذكر الغشاوة قيد كي لا يظن انه بمعنى العلامة وان حكي عن الحسن البصري والجبائي والقاضي، نعم هذه الغشاوة تكون ايضاً علامة فتظهر على ألسنتهم وفي افعالهم.

وفي قراءة (غشاوة) وجوه:

١- القراءة المشهورة غشاوة بكسر الغين.

٢- روي عن عاصم في الشواذ، وعن بعض القراء غشاوة بالنصب.

٣- عن الحسن بضم الغين^(١).

٤- بفتح الغين والنصب.

٥- غشوة بالكسر والرفع.

٦- غشوة بفتح الغين والرفع.

٧- غشوة بفتح الغين والنصب.

٨- عشاوة بالعين والرفع من العشاوة.

وسياتي الترجيح بالقراءة بالنصب في باب علم المناسبة، ولكن الأولى هو ما مرسوم في المصاحف.

والعذاب إستمرار الألم يقال: عذبه تعذيباً: إذا إستمر به الألم.

والعظيم: الكبير يقال هو عظيم الجثة وعظيم المنزلة.

في سياق الآيات

بعد ان أخبرت الآية السابقة عن حال الكفار وعنادهم جاءت هذه الآية الكريمة لتبين الكيفية النفسانية التي تطبع سلوكهم والتي تكمن خلف سوء إختيارهم، وأضرار ما هم عليه من الكفر والشقاق، والعقوبة عاجلة التي أبتلوا بها.

لقد جاءت الآيات الأولى من سورة البقرة بتقسيم الناس الى مؤمنين وكافرين وذكرت خصائص كل فريق، مع مدح المؤمنين وترغيبهم بالإسلام، وذم وتقييح الكافرين وأفعالهم .

وجاءت هذه الآية والآية السابقة بخصوص الكفار وإصرارهم على الكفر مع الإنذار أو تركهم من غير إنذار، وفيه حجة عليهم ، فلذا جاءت هذه الآية بالإخبار عن الختم والإقفال على قلوبهم بسبب جحودهم وإعراضهم، وبينت الآيات التالية حال المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر والجحود.

(١) مجمع البيان ١ / ٤٣.

إعجاز الآية

أظهرت الآية شدة عذاب الكفار وما يلحقهم بسبب الكفر من الخلل في التفكير والرأي والبصيرة والحواس. وهي شاهد على الأثر السلبي والضرر العاجل الذي يلحق الكافر في الدنيا وبيان لما يؤدي اليه الكفر من الحجب الظلمانية والموانع عن رؤية الحق وأسباب الرشاد في أمور الدين والدنيا خصوصاً وان الآية جاءت مطلقة في مسألة الختم والغشاوة. ويمكن تسمية الآية بآية **(ختم الله)** ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية.

الآية سلاح

تعتبر الآية من مفاتيح النصر لما تظهره من ضعف الكافر والنقص العرضي اللاحق في تكوينه وتفكيره وانعكاسه قهراً على عمله وقوله مما يهون الخطب ويقلل من الإلتفات الى ما يدعيه او الشكوك التي يلقيها لأنها لم تنطلق من تفكير سليم خصوصاً وان الآيات والبراهين ظاهرة بخلاف تلك الشكوك، فالآية تخفيف عن المؤمنين ورحمة . ولم يرد لفظ الغشاوة في القرآن الا مرتين، فقد جاء أيضاً في الذي إتخذ إلهه هواه وأضله الله قال تعالى ﴿وَحَتَمَ عَلَيَّ سَمْعِي وَقَلْبِي وَجَعَلَ عَلَيَّ بَصَرَهُ غِشَاوَةً﴾^(١).

وجاءت الآية محل البحث بصيغة الجمع وإرادة الكفار جميعاً، ويفيد الجمع بين الآيتين بيان حقيقة وهي غلبة الهوى والنفس الشهوية على الكفار وإصرارهم على الجحود والكفر، ومن إعجاز القرآن تيسير معرفة المسلمين لعدددهم وحالهم وما هم عليه من الوهن والضعف والعجز، وفيه

بعث للقوة في نفوس المسلمين، ودعوة للتوجه بالشكر لله تعالى على نعمة الهداية والإيمان.

الآية لطف

تخاطب الآية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ورائه المسلمون الى يوم القيامة وتخبرهم عن حقيقة الكافر والسر في تخلفهم عن وظائفهم.

وفي الآية بيان للعناية والرحمة الإلهية بالمسلمين فاذا تسأل أحدهم لماذا هذا الفرق بينهم وبين الكفار، لماذا إخترت الإسلام وهؤلاء مصرون على الكفار يكون، الجواب هذه الآية وان الكفار إبتلاهم الله بالتخلف عن الإيمان، وتعطيل الحواس بسبب عنادهم وإستكبارهم وجحودهم وما الله بظلام للعبيد، وتدعو الآية المسلمين والناس جميعاً الى توظيف الحواس في زيادة الإيمان والصلاح.

مفهوم الآية

تبين الآية المقدمات الدنيوية للعقوبة من غير جبر او اكراه، والآثار المادية الآنية للجحود والكفر وما يترتب عليها من قصور الرؤية وعدم ادراك الحقائق وصعوبة تلقي المعارف.

والآية وما فيها من الوعيد نوع طمأنينة للمؤمنين ومواساة لهم في التخلي عن انذار الكفار وبذل الوسع من اجل هدايتهم، وتدل في مفهومها ايضاً على البشارة للمتقين بالنجاة في الآخرة من العذاب الذي أعد للكافرين.

وفي الآية مسائل:

الأولى: عدم إمكان تفقه الكفار، وعجزهم عن رؤية الآيات.

الثانية: ابتلى الله عز وجل الكفار بالجهالة والتخلف عن إدراك الحقائق

الكونية والأسرار الغيبية بسبب إصرارهم على الكظفر والجحود.

١٩٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الثالثة: ان الله عز وجل غني عن العالمين ومن يؤمن لنفسه، ولا يضرب من يكفر ويعرض عن آيات الإنذار الا نفسه.

الرابعة: تؤكد الآية حقيقة وهي ان الحواس رحمة ونعمة أنعم الله بها على الإنسان، ويجب عليه من بيا الشكر ان يجعلها في طاعة الله، والتدبر في الآيات الحسية والعقلية والتسليم بالعبودية لله تعالى، والتصديق بالنبوة. الخامسة: الإخبار عن العذاب العظيم الذي ينتظر الكفار يوم القيامة.

إفادات الآية

لقد جاء القرآن تبياناً لكل شيء، ومن وجوه البيان فيه وصف الكفار وما هم عليه من الجحود، والسمة الظاهرة الملازمة لهم التي تجلب لهم العذاب الأليم في الآخرة، وفيه تأكيد لرحمة الله بالمسلمين، وشرح صدورهم للإيمان كفضل ونعمة من عنده تعالى، ولم تأت الغشاوة لجهة أو حاسة من حواس الكافر.

بل تغشت الأبصار والأسماع منهم، وهما الحاستان اللتان يتدبر بهما الإنسان الآيات والمعجزات الحسية والعقلية الأمر الذي يجعلهم متخلفين عن إدراكها والتدبر فيها، ولكن الغشاوة ليست على نحو السالبة الكلية فهي أدنى مرتبة من الحجاب التام، لذا فان هذه الآية تندرج ضمن آيات الإنذار والوعيد للكافرين، مع بيان قبح فعلهم بالإصرار على الجحود والعدا.

الصلة بين أول وآخر الآية

تتشرك هذه الآية مع الآية السابقة في ذم الكفار، وجاءت لبيان حالهم، وذكر المانع الذاتي عندهم الذي يحول دون إيمانهم، وهذا المانع عقوبة من **عند الله** بعد إصرارهم على الكفر والجحود.

فجاءت الآية بأمرين:

الأول: ختم الله على الكفار بعلامة ونكتة وداء جاء **وصفه** بدقة

إعجازية بأنه غشاوة، لتكون حاجزاً متزلزلاً وضعيفاً دون توظيف البصيرة في أمور الدين والدنيا، ولكنها لا تجب الآيات عن الإنسان لأنها تخرق تلك الغشاوة، فتصل معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى **أبصار وأسماع** الناس جميعاً ومنهم الكفار، وتخرق شغاف القلوب، ولكن الغشاوة الذاتية تمنعهم من التدبر بمضامينها ودلالاتها، **وما فيها** من الحجج والبراهين، ليكون الختم أمانة وعلامة يعرفه بها المسلمون، فيحذرون منه ويعرضون عنه، ويأتي الختم بمعنى عدم قبولهم الإيمان مع استقرار الكفر في قلوبهم ولكن عطف **السمع** والإبصار على القلوب يؤكد معنى الغشاوة التي تدل بالدلالة التضمنية على الرقة وعدم السمك، **وإمكان** اختراقها فلذا جاءت الآية السابقة بقوله تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ان الإنذار **يبلغهم** ويصل إليهم ولكنهم **متخلفون** عن فهمه والتفقه في مضامينه لظلمهم لأنفسهم بالجحود، وجاء الختم على وجوه :

الأول: الختم على قلوب الكفار.

الثاني: الختم على سمعهم وأذانهم، لتكون الغشاوة مانعاً من التدبر في الإنذارات **وأسرار** التنزيل، وإعجاز آيات القرآن.

الثالث: الختم على أبصار الكفار، فلا يرون آيات **الآفاق**، ولا المعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله قال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾^(١)،

ولاتنحصر وظائف وأثار الختم بتلقي الإنذارات ومعرفة الآيات، بل تشمل أمور الحياة الدنيا، وتخلف الكفار عن التوفيق والفلاح في ميادين الحياة، وبقائهم في **حيرة** وإرتباك، لأن الغشاوة برزخ دون رؤية الأشياء

كما هي، وبعين البصيرة.

إن الغشاوة عقوبة عاجلة في الدنيا، وإنذار إلهي للكفار، فاذ **أنهم** **أعرضوا** عن الإنذارات التي تأتي بآيات القرآن والسنة النبوية ومن المسلمين بتلاوتهم الآيات، وإقامتهم الحجة على الكفار جاء طبع الغشاوة على قلوب **وأسماع** وأبصار الكفار إنذاراً فعلياً، ومانعاً من إضرارهم **بالمسلمين**، وهو من مقدمات مضامين قوله تعالى ﴿لَنْ يُضِرُّوكُمُ الْإِذْيُ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمُ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾^(١).

وجاءت خاتمة الآية بالإخبار عن العقاب **الأليم** الذي ينتظم الكفار مما يعني ان الختم والطبع أمر غير العذاب **الأليم** وتتقدم عليه زماناً، فالختم في الدنيا، والعذاب في **الآخرة**، وهذا لايعني عدم وقوع الختم في الآخرة، بل هو من **مصاديق** العذاب في الآخرة، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا﴾^(٢).

ومن **إعجاز** القرآن ان محل الختم في الدنيا **والآخرة** متباين، فيأتي في الدنيا على نحو متعدد ويقع على القلوب **والأسماع والأبصار**، ويتصف بأنه لا تدركه الحواس ولا تراه عيون الناس، لان الدنيا دار إبتلاء وامتحان، واما الختم في الآخرة فيتعلق بالأفواه **والجسم** الألسنة وجعل الكفار عاجزين عن **النطق**.

ومن وجوه الصلة بين أول ولآية وآخرها، مايلقاه الكفار من الأذى **والألم** بسبب إرعراضهم عن الإنذارات، **وإصرارهم** على الجحود، وتساهم الآية في إرتقاء المسلمين في المعارف ومعرفة أحوال الناس، وهي عون لهم في كيفية وصيغ المعاملة مع الناس على **إختلاف** مشاربهم،

(١)سورة آل عمران ١١١.

(٢)سورة يس ٦٥.

والقيام بالوظائف الشرعية في الدعوة الى الله تعالى، وتثبيت سنن الإسلام واحكام الشريعة، وما يصيب الكفار من الختم مناسبة لإعلاء كلمة التوحيد.

التفسير الذاتي

ذكرت الآية السابقة إقامة الكفار على الجحود مع توجه الإنذارات لهم، وجاءت هذه الآية لبيان موضوع تخلفهم عن الإيمان وإصرارهم على الكفر وهو الطبع والختم على قلوبهم، وما أصابهم من أسباب الضلالة **والعمى عن رؤية الآيات.**

ولا تدل هذه الآية على أن الختم والطبع الذي ضربه الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم **علة** تامة لإعراضهم عن الإنذارات وإصرارهم على الجحود، بل جاءت الآية بياناً، وإخباراً عن صفات وحال **الكفار**، تلك الحال التي تكون مانعاً من التدبر بالإنذارات وإستحضارها بالوجود الذهني.

ومن إعجاز الآية أنها ذكرت الختم على القلوب وهو من الفطريات التي تكون قياساتها معها، إذ يصدق بها العقل بتصور **طرفيها ووجود** وسط يستلزم الطلب والفكر.

والذي يتجلى بحجية الإنذارات ومقابلة الكفار لها بالإعراض والصدود، إن الله عز وجل أراد للناس جميعاً الهداية وبعث النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لإنذارهم من عذاب النار، والخلود فيه، وبين سبيل النجاة منه الذي هو الإيمان بالله وملائكته ورسوله وكتبه. ومن إعجاز القرآن بيان علة الختم على القلوب، وأنه نتيجة لإختيار الكفار الكفر والجحود والضلالة، والإمتناع بالإختيار لاينا في الإختيار، قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾

فجاء الختم على سمع وقلب الكافر بعد أن **غلب** هواه، **وعطل** إدراك العقل الذي جعله الله عز وجل **رسولاً** باطنياً عند الإنسان، وآلة لتلقي الإنذارات، وواقية من السيئات والذنوب.

لقد جعل الله عز وجل العقل آلة للعلم ووسيلة للتحصيل، والبصر آلة للتمييز بين المرئيات، وإدراك الآيات والمعجزات، والسمع وسيلة للتفريق بين السموعات، والإتعاظ من الإنذارات الواردة في القرآن التي تأتي على لسان النبي والمؤمنين.

فاختار الكفار تعطيل العقل والحواس بإتباع الهوى والشهوة، واللهث وراء زينة الدنيا، والصدود عن الفرائض والعبادات، فجاءت هذه الآيات بالإخبار عن عدم إتعاظهم من الإنذارات مع الوعيد بما ينتظرهم من العذاب الأليم، والخلود في الجحيم.

وفي خاتمة الآية دعوة للناس للإتعاظ من الآيات والبراهين الدالة على وجوب عبادة الله عز وجل والإستعداد ليوم القيامة.

والآية وان جاءت خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنها تتضمن في **مفهومها الخطاب** للمسلمين وبعث السكينة في نفوسهم، **ومنع** الشك من الطرو **عليها بسبب** إصرار الكفار على الجحود، **إذ يأتي إصرارهم هذا** مع وجود المقتضي للإيمان، وتجلي الآيات والبراهين الدالة على الربوبية المطلقة لله عز وجل، وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا تمنع الآية من إقامة الحجة على الكفار، ومجادلتهم بالموعظة الحسنة، وجاء لفظ (غشاوة) مرتين في القرآن، إذ ورد في قوله تعالى

﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾^(١)، في بيان حال الكافر، وكأنه يعبد هواه لأنه ينقاد له، ويتبع ما تأمره به النفس الشهوية.

من غايات الآية

لما أخبرت الآية السابقة عن عدم ترتب الأثر والنفع في ذات الكافر من إنذاره، جاءت هذه الآية الكريمة لبيان علته، وهي إبتلاء الكافر بفقدان البصيرة، وتخلفه عن الإنتفاع بما رزقه الله عز وجل من الحواس، وإصراره على الإقامة على الكفر والجحود .

وتبين الآية ان الله عز وجل تعقب الوعيد والعذاب بلغة الإنذار في حال عدم الإنتفاع منها، فلم تأت لغة الإنذار مجردة بل هي مقدمة لنزول العذاب لمن لم يعتبر منها.

التفسير

قوله تعالى ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾

الآية بيان وتعليل لعدم نفع الإنذار والتخويف مع الذين كفروا، وإخبار الهي بان الإستمرار في الإنذار لن يعطي نتائج حميدة بشأن هؤلاء لما بلغوه من الترددي في الضلالة وما تلبدت على حواسهم من سحب الغواية، تلك التي جاءت بالوراثة او العادة او البيئة الجاهلية او السجايا الرديئة، فتمثلت بعمى إصطناعي وفقدان جعلي للبصيرة والسمع، وقيل (لاختم ولا تغشية ثم على الحقيقة وانما هو من باب المجاز)^(٤) ولكن المجاز يحتاج الى قرينة لفظية او حالية تكون صارفة عن المعنى الحقيقي، والوضع الذي استعمل فيه اللفظ اصلاً هذا مع التسليم بوجود العلاقة بين

(١)سورة الجاثية ٢٣ .

(٤) ابي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي / الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ١ / ١٥٥.

٢٠٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

المعنى الحقيقي والمجازي أي المناسبة بين المعنى المنقول منه والمنقول اليه. فهل من قرينة في المقام؟ خاصة مع الاعتقاد بان وجوه الختم متعددة ومختلفة وليس بالضرورة ان تكون من جنس خلقة الإنسان من اللحم والعصب وما في البدن من الأغشية، كما ان هذه الأغشية لا تحجب العقائد والأفكار بل لها وظائف عضوية محددة ومشخصة في علم الأبدان. وعد بعضهم إسناد الختم الى القلوب من الإستعارة التمثيلية التي سميت تمثيلية مع ان التمثيل في كل استعارة لبيان ظهور التمثيل فيها واضحاً وهي غاية البلغاء وكثيرة الورد في الأمثلة والحكم، ولا مانع من إستيعاب الآية الكريمة الجامع للحقيقة والمجاز معاً في ذات اللفظ، وهذا من اعجاز القرآن وان معنى الفاظه تتعدى القواعد اللغوية ومباني الوضع والبلاغة، وهو من افراد قاعدة (المعنى الأعم) التي ذكرناها لعلوم القرآن، مع تقسيم الكلام العربي تقسيماً استقرائياً جديداً الى حقيقة، ومجاز، وبرزخ بينهما، وجامع لهما، فلا ننظر الى الختم في هذه الآية على انه مجاز فقط وتلك النظرة تقييد وتخصيص من غير مخصص فقد يراد منه الوجوه الأربعة أعلاه على نحو الإستقلال او التداخل او هما معاً، وهذا مبحث تتفرع عنه عدة علوم.

انها غشاوة حقيقية يراها الملائكة فلا يستغفرون للذين كفروا ولا يمدونهم بأسباب الإعانة في مسالك الحياة المختلفة، وفي نزول هذه الآية أصبح المؤمنون يفقهون موضوع تلك الغشاوة ويعلمون بها لإخبار الله عز وجل عنها بغض النظر عن جنسها وماهيتها.

وقال الزمخشري ايضاً: "فالشيطان او الإنسان هو الخاتم في الحقيقة الا ان الله سبحانه لما كان هو الذي اقدره ومكنه اسند اليه الختم كما يسند الفعل الى المسبب"^(١).

(١) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل ١ / ١٥٥.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٢٠١

وهذا القول مخالف لظاهر الآية الأمر الذي يحتاج الى قرينة صارفة، فالختم منه تعالى، وهو سبحانه الذي ختم على قلوبهم واسماعهم وأبصارهم، نعم جاء هذا الختم عقوبة لهم وخاتمة لسوء أفعالهم وإختيارهم الكفر وإعراضهم عن الحق وإبتعادهم عن دروب الهداية، وهذا التفسير ينفي الحاجة الى القول أعلاه لما فيه من الجبر وإسناد الفعل الى المسبب، وما نذهب اليه، يدل عليه ما ورد عن الامام الرضا عليه السلام انه قال: الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم. وهذا الحديث لا ينفي المعاني المجازية والمعنوية للختم في هذه الآية والذي يظهر في صمم ظاهر عن الحق وعدم تدبر في الآيات واعراض عن الدلالات والبراهين، بالاضافة الى الكدورات الظلمانية والهموم المتتالية التي ترد على الكافر لغياب الحصانة الإيمانية والمناعة العقائدية. وتبين الآية غناه تعالى عن العالمين، وإختيار الكفار للضلالة والجحود وأسباب العمى، والآية عون للمؤمنين في فهم أسرار تخلف الكافرين عن الإيمان.

وجاء الختم بصيغة الجمع، ويفيد معنيين:

الأول: الختم الشخصي المتعدد، فكل كافر ختم الله على قلبه.

الثاني: الختم النوعي العام فيما يتخذونه من رأي وقرار، للإحتراز من قيامهم مجتمعين بجحود الآيات او مواجهة المسلمين وإعلان الحرب عليهم. والختم والطبع على القلب أمر خاص به تعالى فلا يستطيع غيره فعله، ولا يتأتى الا نتيجة الإنحراف وضلالة العبد قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أُتْخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾^(١).

والقلب هنا عنوان ومحل العقيدة والمبدأ والولاء ولم يأت الختم الا بعد إعراضهم عن الآيات وإصرارهم على الجحود وان كان باب التوبة

(١) سورة الجاثية ٢٣.

٢٠٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

مفتوحاً للناس جميعاً، وإعراضهم عن الآيات لا يمنعها من مداهمتهم وسعيها لجذبهم للإيمان، تطلع عليهم الشمس لتذكرهم بعظمة الجبار، ويصاب القمر بالخسوف ليتدبروا في مسألة ضعف ونقص المخلوقات وحاجتها الى الباري عز وجل.

قوله تعالى ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾

الجمع بين الختم بغشاوة على القلوب والسمع آية إعجازية مع ان الختم على القلوب يؤثر سلباً على حاسة السمع وكيفية الإستماع، وتبين الآية في مفهومها الوظيفة العقائدية للسمع ، وموضوعية توظيفه في الإرتقاء في المعارف الإلهية، ولم يرد الختم الا بعد ان صموا آذانهم عن سماع الآيات والدعوة الى الله على لسان نبيه والمؤمنين والآية عامة لا تنحصر بزمان النبوة، فهي شاملة لكل الأزمنة والأمكنة في تحذير من الكافرين وذم لهم.

ترى لماذا ورد ﴿سَمْعِهِمْ﴾ في الآية الكريمة بصيغة المفرد خلافاً للقلوب

والابصار التي وردت بصيغة الجمع، ان معنى سمعهم هو أسمعهم ورد مصدرأ وباسم الجنس لان تلقي الإنذار يتعلق بحاسة السمع، والكفار يلتقون في عدم سماع الإنذار فيكون بمثابة الطبيعي المنطقي العارض للماهية، ويمكن القول بانهم جميعاً إشتروا بسمع أمر واحد وهو دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإسلام، فرمما إختلفت ابصارهم من حيث النظر الى الآيات والمعجزات والبراهين، ولكنهم جميعاً سمعوا القرآن فإختاروا تعطيل أشرف الحواس وهي في الأصل لم تخلق في الإنسان الا لسماع الحق وتلقي أوامر التكليف وأنها من الكلي العقلي المركب من نفس الماهية ومن الكلية العارضة لها، ولتكون من المفاهيم الجزئية لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) ، وان

(١) سورة الذاريات ٥٦.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٢٠٣

الحواس أيضاً وجدت للعبادة فمتى ما أعرض الإنسان عن العبادة فكأنه إختار تعطيلها لأنه لم يسع في إستكمال وجوه المعارف الإلهية. وقال الطبرسي ان المراد بالختم على القلوب ان الله تعالى شهد عليها وحكم بانها لا تقبل الحق كما يقال أراك تختم على كل ما يقول فلان أي تشهد به وتصدقه^(١).

واقترن الختم في الآية بمفهوم الغشاوة على الأبصار التي لا يمكن إعتبارها حجاباً كثيفاً مانعاً إتماماً للحجة وإستدامتها ولعدم الجبر بل منزلة بين المنزلتين فلا جبر ولا تفويض، وهو مناسبة للتدارك والتوبة والإنابة، ولعله من إفاضات الروح التي نفخها الله عز وجل في آدم أبي البشر والعقل الذي أكرم الله عز وجل به الإنسان متداخلين او على نحو الاستقلال والانفراد لكل من الروح والعقل ليحولا دون الإستيلاء التام للغشاوة والحاجب على البصيرة.

وحكي عن الاصم وأبي مسلم الخراساني في الآية انه تعالى ذمهم بان قلوبهم كالمختوم عليها وانه لا يدخلها الإيمان ولا يخرج عنها الكفر، والمعنى ان الكفر تمكن من قلوبهم فصارت كالمختوم عليها وصار بمنزلة من لا يفهم ولا يبصر ولا يسمع^(٢).

ولكن يمكن ان ينظر للختم بلحاظ عمومات التوبة وبقاء باب الإنابة مفتوحاً، والغشاوة يمكن ان تُخرق بفضله تعالى ولعل أثرها ووظيفتها تنحصر في حجب الآيات باختيارهم وان كان في ظاهره أمراً قهرياً لأن الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار، وتلك نواميس المعرفة الإلهية والنتيجة الحتمية للجحود والعناد.

ولعل تلك الغشاوة حاجة للمؤمنين بل وفيها حيلولة دون المزيد من

(١) مجمع البيان ١ / ٤٤.

(٢) مجمع البيان ١ / ٤٤.

٢٠٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

الكفر والجحود من الكفار أنفسهم وهي لا تمنع من تأثير صيغ ووسائل الجهاد وأساليب الدعوة لأن الختم على قلوب الكفار وأسماعهم وأبصارهم لا يحول دون أداء المسلمين لوظائفهم الجهادية فقد نهوا عن اليأس وعن القنوط.

ولقد قال الفلاسفة: (من فقد حساً فقد فقد علماً)، ولكن هؤلاء الكفار لم يفقد أي منهم بعض حواسه، والغشاوة ليست تعطيلاً تاماً للحواس. نعم ان تلك الحواس قاصرة عن إدراك الايمان وحقيقة التوحيد ووجوب التسليم برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الأمر الذي يدل على ما يحتاجه الإيمان من عمق الإدراك والبصيرة والنظر الثاقب، والآية الكريمة في مفهومها مدح للمؤمنين وبيان لما رزقهم الله من البصيرة وأسباب الهداية ومعرفة سبل النجاة.

وعن الإمام علي عليه السلام: "سبق في علمه تعالى انهم لا يؤمنون فختم على قلوبهم وسمعهم ليوافق قضاؤه عليهم علمه فيهم ألا تسمع قوله تعالى ﴿لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾"، وهذا الحديث رد متقدم على الجبرية.

مقارنة بين السمع والبصر

جعل شطر من المتكلمين تقديم السمع على البصر اشارة على التفضيل، وقد تقدم السمع على البصر في خمس عشرة آية من القرآن، وقدم البصر ايضاً في نحو آيتين، ولكن التقديم يأتي احياناً بحسب مناسبة الحكم والموضوع ولا يدل على الترتيب بالضرورة، كما في قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾^(١)، لأن البصر أكثر موضوعية وإعتباراً في التيقن من العذاب وشدته، والتقديم أعم من ان يدل على التفضيل.

(١) سورة السجدة ١٢.

وأستدل على شرف السمع بان الله لم يبعث نبياً أصمماً، وقد كان أحد الأنبياء أعمى وهو شعيب، وأحتج به من أشكل على شرط البصر في القاضي وليس بتام، لأن الله عز وجل يجعل النبوة حيث يشاء، ومن كان عنده نقص في أحد الحواس فإن الله عز وجل يجعل كفاية التبليغ والإنذار بالحواس الأخرى، والوحي مانع من أثر فقد الحاسة.

وأستدل على تفضيل السمع بأنه يقود الى المعارف المختلفة، ووظيفة البصر منحصرة بالمحسوسات، ولكن البصر أيضاً يؤدي الى المعارف بواسطة سلاح العقل والتدبير.

وأستدل على أفضلية السمع بالتصرف في الجهات الست بخلاف البصر، ولكن هذا الدليل يصدق على الحال بالدقة العقلية، اما في الإستدامة فتصرف البصر في الجهات الست أكثر وأفضل من السمع، لأن البصر يدرك مسافات وأماكن في الجهات المختلفة والعلو والسفل ما لا يدركه السمع وقد يكون سبباً في النجاة من الهلكة مما يتخلف عنه السمع، فلو داهم الإنسان خطر كحجر كبير له صوت، فيمكن ان يتنحى عنه الإنسان حين رؤيته من بعيد، وقد لا يستطيع النجاة لو سمعه من مسافة قريبة، فالبصر أبعد مدى ولم يذكر في باب المقارنة والتفضيل وان الإنسان يستطيع الرؤية بالإستعانة بحركة الرأس والإلتفات.

ويمكن الإستدلال بافضلية البصر بانه يقود الى الخير إبتداءً، فالسمع يتلقى والبصر يقود ويسعى، والسمع ينقسم الى سمع من غير قصد وإستماع مع القصد، والبصر واحد.

ومنهم من إعتبر البصر أشرف من السمع بلحاظ آلة البصر ومتعلقها وهو النور وان متعلق السمع هو الريح.

وبحسب القاعدة الأصولية العقلية (تقديم الأهم على المهم) فإن الأهم هنا هو بديع صنعه تعالى وتحير العقول والأوهام بالأشرف من السمع والبصر مما يدل على شرف كل منهما، وتتفرع على المبحث دراسات

٢٠٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

عديدة وتتعلق ايضاً بالارتقاء العلمي الحديث، فيمكن ان يستدل على افضلية البصر بأن السمع له علاج ويمكن تدارك أكثر حالاته بالطب الحديث، في حين ان علاج فقد البصر أشد تعقيداً وأبطأ في مراتب النجاح. وبينهما كنعمة من نعم الله عموم وخصوص من وجه، فهناك وجوه للالتقاء بينهما، وأخرى للإفتراق، وقد يكونا من عموم إذا إجتمعا تفرقا، وإذا إفترقا إجتمعا، فمع وجودهما عند الانسان فكل من السمع والبصر يقوم بوظائفه الخاصة، ومع فقد أحدى الحاستين ، فإن الآلة الأخرى تتيب عنها في اكثر اعمالها فضلاً من الله تعالى.

ولو سألت شخصين أحدهما أعمى والآخر أصم، فإن الأعمى يتمنى لو كان مبصراً وإن تعطلت عنده حاسة السمع ، ولكن الأصم يرضى بالصمم دون العمى، ويغبط نفسه بالمقارنة مع الأعمى ويشكر الله على النجاة مما إبتلاه الله به من العمى، وكانت حاجة الأصم الى الأعمى أقل من حاجة الأعمى الى الأصم، وهذه شواهد وجدانية على رجحان وأفضلية حاسة البصر ، ومن فضل الله تعالى على الناس أن الإبتلاء بفقد البصر أو السمع إبتداءً ومن حين الولادة أمر نادر، الى جانب النقص في الإبتلاء به بعد الولادة وعند الكبر نتيجة الإرتقاء والتحسن في علم وخدمات طب الأبدان ، وفي قراءة القرآن في المصحف جلاء للبصر .

وذكرت الآية السمع بصيغة المفرد، والقلوب والأبصار بصيغة الجمع، وقال سيبويه: ان ورود ما قبل السمع وما بعده بلفظ الجمع يعني إرادة الجمع منه ايضاً.

وقيل ان السمع مصدر في أصله، والمصادر لا تجمع، ولأن لكل واحد سمعاً واحداً، وهذا الإستدلال غير كاف، ولكن السمع يكون اسماً والجمع أسمع.

وقال ابن السكيت: السمعُ سمعُ الإنسان وغيره، يكون واحداً وجمعاً، وفي الآية إشارة الى إستكبار وإعراض الكفار عن سماع الآيات ورفضهم

الإستماع الى آيات القرآن، وتوجهوا بسمعهم الى جهة واحدة وهي مضامين العناد والجحود والضلالة، اما القلوب والأبصار فإن وظائفها وأعمالها متعددة قهراً، فبالقلب يتدبر ويتأمل ويعتبر ويستحضر الإنسان ولو على مراتب متفاوتة، وبالقوة الباصرة يرى الإنسان طوعاً او كرهاً الآيات البيّنات في الآفاق وفي النفوس.

وقيل التقديم في الذكر يدل على التقديم في الدرجة ويدل عليه ان تقديم الأدنى على الأشرف في الذكر قبيح عرفاً. قال الرازي: فوجب ان يكون قبيحاً شرعاً.

ولكنه قياس مع الفارق، فليس تقديم البصر او السمع من الأدون والأشرف لأنهما وردا بمنزلة واحدة بلحاظ أنهما نعمة من عند الله ، وآلة للهداية والإيمان.

واستدل بقبحه عرفاً قول الشاعر:

عميرة ودع ان تجهزت غاديا

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

قال الخليفة عمر بن الخطاب: لو قدمت الإسلام لأجزتك. وهو يدل على أهمية الإسلام وتشريفه كمسألة عقائدية وتقدمه رتبة على أحكام الشعر وضرورته.

والحجة في تقديم السمع ليست تامة لأنها مبنية على إفادة الواو الترتيب وهو ضعيف، ومشهور النحويين أنها لا تفيد الترتيب بل لمطلق الجمع، وقال بافادتها الترتيب قطرب والرعي والفراء وتغلب وهشام والشافعي، وقد قلنا في الواو انها لا تدل في الأصل على الترتيب، ولكنه يعرف بلحاظ القرائن.

واستدل على عدم دلالة التقديم على التفضيل بتقديم سورة تبت على سورة قل هو الله احد، وهو أجنبي عن الموضوع لأن التشريف منبسط

٢٠٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

على كل سورة من سور القرآن وباطلاق وعمو السور جاء التحدي في القرآن ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

والنقاش في البصر والسمع كأمرين وجودين وليس في حال انعدامهما، وكأن الإنعدام يدل في مفهومه على الأهمية والأثر والمنزلة. قوله تعالى ﴿غِشَاوَةٌ﴾

جاءت هذه الغشاوة نتيجة للإصرار على الكفر والإقامة على الجحود، وفيه بيان للأضرار العاجلة للكفر وظهورها على نحو سلبي على الجوارح والأعضاء. وفيه مسائل:

١- ضعف رؤية الآيات والبراهين بمعنى ان الغشاوة لا تمنع من رؤية الآيات الباهرات والبراهين منعاً تاماً لأهلية الآيات بالوصول الى القلوب والعقول، ولكن الغشاوة حاجب ذاتي يتعلق بالبصر دون البصيرة، وهذا من آيات الله في خلق الإنسان، قال تعالى ﴿سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

فالله عز وجل الذي تفضل على الإنسان ونفخ فيه من روحه يأبى ان يجعل غشاوة تؤثر على بصيرة الإنسان ومداركه لتبقى الحجة قائمة على الكافر وتتجدد الدعوة الكونية كل يوم للإسلام والعبودية المحضة لله عز وجل.

٢- يعرف الإنسان بما رزقه الله عز وجل من العقل وجود هذه

(١) سورة البقرة ٢٣.

(٢) سورة فصلت ٥٣.

الغشاوة ولو على نحو الموجبة الجزئية، وفي بعض الأحيان ، قال تعالى ﴿بَلِ
الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^(١).

٣- هل الغشاوة أمر ثابت لمصاحب للكافر ولا يزول وان إنتقل
للإيمان، الجواب لا، بل انها مقرونة بالكفر فاذا تاب الكافر فانها تزول
لتبدل الحكم بتغيير الموضوع.

٤- الغشاوة واقية من شرور الكافر، لأنه لا يلتفت الى الآيات في نصر
الإسلام وثبوت أحكامه في الأرض.

٥- الآية بشارة للمسلمين وبيان للمائز بين القائل بالتوحيد ، وبين
الذي إختار الكفر والشرك.

علم المناسبة

هل الواو في (وعلى) تفيد العطف، ام الإستئناف بمعنى هل ضرب
الغشاوة مطلق فيشمل القلوب والسمع والأبصار، ام انه خاص بالأبصار ،
وعلم مناسبة الآيات بين لنا ان الواو للإستئناف فقد ورد لفظ غشاوة
مرتين في القرآن، فجاء في سورة الجاثية ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ
عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾^(٢).

فهؤلاء إختاروا الكفر والجحود فختم الله على قلوبهم ليكون هذا
الختم مرثياً من قبل الملائكة، وورد الختم على القلوب سترأ لهم أمام
الناس، ولبقاء باب التوبة مفتوحاً للناس جميعاً فضلاً منه تعالى بينما ورد
في مدح المسلمين في القرآن ﴿سَيَمَاهُمْ فِي جُوهِهِمْ﴾^(٣)، ولم يرد ذكر

(١) سورة القيامة ١٤.

(٢) سورة الجاثية ٢٣.

(٣) سورة الفتح ٢٩.

٢١٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

سيماء المجرمين الا في الآخرة ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِيحِ
وَالْأَقْدَامِ﴾^(١)، والغشاوة جاءت بعد اختيار الكفر واتباع الهوى والإنقياد الى
حاجات النفس الشهوية والغضبية، مما أدى الى ارتسام غشاوة على
أبصارهم.

وبلحاظ ما ورد في سورة الجاثية ونسبة جعل الغشاوة الى الله تعالى
يمكن القول بالقراءة بالنصب (غشاوة) ولكن القراءة المرسومة في
المصاحف في الآية محل البحث بالرفع وهي الأصل والاصح ، ويفيد هنا
تعدد المعنى واستقلال كل من الختم، ومن الغشاوة كعقوبة عاجلة وأمر
مترتب على الكفر والصدود عن الآيات.

قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

إخبار عما ينتظر الكفار من صنوف العقاب الشديد في الآخرة وربما
تعلق جانب من هذا العذاب بأيامهم في الحياة الدنيا وما أصابهم بسبب
الكفر وعدم الإستماع الى الإنذارات الرسالية بانواع شتى من المصائب
ووجوه البلاء.

وفي الآية نكتة عقائدية فمع التباين والتباين بين عالم الدنيا والآخرة
فهما معاً محل ومناسبة لعذاب الكافر مثلما هما نعمة ورحمة وموطن
سعادة وغبطة المؤمن.

والآية قاعدة كلامية كلية، ووصف يتضمن الفضح والخزي للكفار،
وهي دعوة لتأسيس مدرسة جهادية لسانية تحقيقية، موضوعها إستقصاء
مصاديق ما يلاقيه الكفار في النشاطين من الأذى الذاتي والعرضي البدني
والنفسى بسبب إختيار سبل الضلالة والجحود، والآية في مفهومها دعوة

(١) سورة الرحمن ٤١.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٢١١
للناس للسعادة في الدارين بإختيار الإيمان والتقيد بأحكام الشريعة.



قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية ٨.

الإعراب واللغة

الواو: استثنائية، من الناس: جار ومجرور، من: اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر.

يقول: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر تقديره هو، والجملة الفعلية لا محل لها من الإعراب لأنها صلة (مَن) آمنّا: فعل ماض وفاعل، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، بالله: جار ومجرور متعلقان بآمنّا، باليوم عطف على اسم الجلالة، الآخر، صفة ليوم.

وما: الواو حالية، ما: نافية حجازية تعمل عمل ليس، هم: ضمير منفصل في محل رفع اسم (ما).

بمؤمنين: الباء حرف جر زائد للتوكيد، والجملة الإسمية في محل نصب على الحال.

(مَن) تكون اسماً، وتكون جحداً وتكون إستفهاماً، وتكون شرطاً، وتكون نكرة، وتكون معرفة، وجاءت في الآية الكريمة إسماً موصولاً أي بمعنى (الذي)، وتأتي للإنس والملائكة والجن، ويخبر بها عن الواحد والإثنين والجماعة، ويعرف من القرائن ومناسبة المقام ولما قال تعالى ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ عرفنا ان المراد الجماعة.

والناس جماعة البشر، والمفرد الإنسان وقيل هو اسم جمع لا واحد له من لفظه، والخلاف بلحاظ الأصل والمادة والاصل أنه مفرد، واختلف في اشتقاقه على وجوه منها:

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٢١٣

الأول: مأخوذ من النوس وهو الحركة وتصغيره نويس يقال ناس ينوس نوساً، ومنه نوس القرط في الأذن، وسمي ابو نؤاس بهذا الاسم لان ذؤابتين كانتا تنوسان عند أذنيه ، وقال ابن منظور وقيل لبعض ملوك حمير : ذو نواس لضفيرتين كانتا تنوسان على عاتقيه^(١) .

الثاني: مأخوذ من النسيان لقوله تعالى ﴿ فَنَسِيَ وَكَمْ نَجِدُ لَهُ عَزْمًا ﴾^(٢) .

الثالث: أصله أناس من الإنس.

واليوم الآخر هو يوم القيامة لتأخره عن أيام الدنيا ولعدم وجود يوم بعده، فيمكن ان يراد به الوقت المحصور بين البعث الى نهاية الحساب، ودخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار (وقيل يجوز ان يراد به الوقت الذي لاحد له، وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع لتأخره عن الأوقات المقضية)^(٣) والمعروف في اللغة ان النهار يسمى يوماً اذا تقدمه ليل فاذا لم يتقدمه ليل ولا ينظر له بهذا اللحاظ لا يسمى يوماً ، وينفرد اليوم الآخر بأن تتقدمه الحياة الدنيا.

في سياق الآيات

بعد ان ذكرت الآية السابقة صفة وحال الكافرين وتخلفهم عن الإنتفاع من مضامين الرسالة والآيات التي جاء بها الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاءت هذه الآية لبيان صفة المنافقين. وتظهر الدراسة المقارنة بين الآيتين وجوه الإلتقاء والإفتراق بين الكفار والمنافقين لأن النسبة بينهما العموم والخصوص من وجه وجاءت الآيات

(١) لسان العرب ٦/ ٢٤٥.

(٢) سورة طه ١١٥.

(٣) تفسير الكشاف ١ / ١٧٠.

٢١٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

التالية بذكر صفات المنافقين مما يدل على ضررهم وقبح فعلهم ولزوم الإحتراز منهم .

ويتجلى في نظم الآيات الإعجاز العقائدي والتأريخي في القرآن، فجاءت الآيات الأربعة الأولى من سورة البقرة في مدح المؤمنين ووصفهم بالمتقين الذين يخشون الله في الغيب لتأتي بعدها آيتان في ذم الكفار وبيان ما هم عليه من الغفلة والجهالة، ثم تنتقل الآيات الى ذكر فريق آخر وهم المنافقون الذين يلتقون مع الكفار، في الغفلة والجهالة والعداوة للإسلام، الا انهم يختلفون عنهم بإدعاء الإيمان ظاهراً، فجاءت هذه الآية لتخبر عن حقيقتهم وكذبهم وزيف إدعائهم.

إعجاز الآية

ظهور لغة التبويض وذكر فئة تتصف بالنفاق وكيف انها تعلن خلاف الذي تضمنر، ليفاجئنا القرآن بإخبار غيبي حاضر، ويهاجم في إعجازه أخطر صيغ المؤامرة والخذاع.

ويدعو القرآن المسلمين لليقظة والحذر، وعدم الإكتفاء بظاهر القول في منح الثقة المطلقة بالناس، مع كفاية النطق بالشهادتين للتلبس بصفة الإسلام وحقن الدم وحلية المناكح .

ومع ان الدعوة الى الإسلام كانت في بدايتها ، ويحتاج المسلمون اي تأييد ونصرة للإسلام لجذب الآخرين وكفاية شرور وأذى الناس، فقد جاءت هذه الآية بفضح الذين يدعون الإيمان وهم مصرون على الكفر، وفيه شاهد على صدق نزول القرآن من عند الله، وان القوة لله جميعاً، وانه سبحانه لا يخشى على الإسلام والمسلمين من إنقضاض وتعدي المنافقين، والآية مدرسة عقائدية في بيان معالم الإيمان وانه لا ينحصر بالإدعاء والقول بل يشمل التصديق بالقلب والجوانح والتسليم بالعبودية

لله تعالى، والإقرار بنبوته محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

ويمكن تسمية الآية بآية (يقول آمنا) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن الا في هذه الآية والآية

العاشرة من سورة العنكبوت

الآية سلاح

لقد أعانت الآية الكريمة المؤمنين في كشف أخطر اعداء الإسلام بسبر أغوار نفوسهم والنفاذ الى ما تضره قلوبهم من عدم الإيمان ولم يعد تسترهم بعد الآن ينفعهم، ولا أحد يعلم مدى النفع الذي قدمته مثل هذه الآيات للمسلمين في جهادهم .

وتدعو الآية الناس من غير المسلمين الى الحذر من الذين يدعون الإيمان وهم يواصلون بث سمومهم، وإثارة الشكوك والريب في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من عند الله تعالى، وهذا من إعجاز القرآن وعظيم النفع الذي يترشح من آياته، فتأتي الآية خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيتخذها المسلمون قانوناً ومبدأ في العمل، وينصت لها غير المسلمين فيتعظون منها، ويتلقون مضامينها بالتدبر والاعتبار.

ومن منافع هذه الآية لغير المسلمين انها تدعوهم للإيمان الصادق والإلتحاق بالمتقين، وتحذرهم من النفاق وأهله ليصبح المسلمون في إزدياد مطرد، والكفار في نقص دائم، والمنافقون على حالهم وضعفهم مع حصول النقص في عددهم، ولا ينتقل أحد من منازل الكفر الى النفاق، ولا من الإيمان الى النفاق أو الكفر، وتلك آية تبين الأثر العظيم لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونفعها للناس جميعاً، وإتساع رقعة الإسلام

٢١٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

وزيادة عدد المسلمين وصلاتهم، وهو من خصائص ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

أسباب النزول

ذكر ان الآية نزلت في قوم من المنافقين من الأوس والخزرج، وهم عبد الله ابن أبي سلول وجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهم وأكثرهم من اليهود، وهو المروي عن ابن عباس، وأورد صاحب التبيان الخبر ولكنه لم يذكر الاسماء قائلًا: لا فائدة في ذكرها^(٢).

وموضوع الآية أعم من أسباب النزول، وأحكامها باقية الى يوم القيامة وفيها تحذير للمسلمين وإرتقاء في العلوم العقائدية، ومعرفة كسبية إضافية من عالم الغيب بأحوال الناس .

والآية في موضوعها أعم من أن تنحصر بالمنافقين بالمعنى الإصطلاحي، إذ انها تشمل الذين يدعون التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عندما يلتقون بالمسلمين، ويذكرون لهم آيات التنزيل والمعجزات التي جاء بها صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿وَإِذْ أَلْقَوْا الذِّنْنَ أَمْنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾^(٣)، لذا جاء أول الآية بالتبويض الإجمالي من عموم أهل الأرض بقوله تعالى ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ لإفادة المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر، وأهل الكتاب والكفار الوثنيين، وفيه بيان لجهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل الله، وما لاقاه والصحابة وأهل البيت في الدعوة الى الله وتحمل الأذى وأسباب المكر والكيد، وكيف ان هذا الكيد ذهب

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ١ / ٦٨.

(٣) سورة البقرة ١٤.

أدراج الرياح، وخرج الإسلام منتصراً من المعركة منذ السنين الأولى لنزول القرآن، وتبقى هذه الآية تلاحق أهل النفاق والشك في خلجات نفوسهم بفضح ما في صدورهم وكشف زيف إدعائهم أمام المسلمين والناس جميعاً.

الآية لطف

الإيمان إرتباط إختياري بين العبد والمعبود، ونور يملأ الجوانح ويظهر على اللسان والجوارح، ولقد أنعم الله عز وجل على الناس ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتجلى معاني الإيمان والتقوى على المسلمين، ويحملون لواء الحمد والجهاد في سبيل الله، وتأتي هذه الآية لتؤكد قوة المسلمين وثبات مبادئ التوحيد وان الكافرين التجأوا الى صيغة التدليس والمكر.

فكشفت هذه الآية الكريمة كذبهم وزيف إدعائهم، وفي هذا الكشف لطف من وجوه:

الأول: إعانة المسلمين على معرفة الناس، وحثهم على أخذ الحذر والحائطة من أهل الكفر والنفاق.

الثاني: بيان إعجاز القرآن بكشفه لأحوال الناس.

الثالث: بعث الخوف والفرح في قلوب الكفار والمنافقين.

الرابع: دعوة الناس للتدبر بالآيات، وإدراك الأنسان بان القرآن يكشف سريره ويفضح ما في نفسه مما يخالف ما يظهره حجة عليه ودعوة له للإيمان، خصوصاً وان الكفر أمر عرضي، وليس من صلة وثيقة ودائمة بين الإنسان والكفر، فالناس فيه على أقسام:

الأول: الذين منزهون من التلبس بمفاهيم الكفر.

الثاني: الذين يوجد الكفر في نفوسهم على نحول متزلزل وغير مستقر .

الثالث: الذين يصرون على الكفر والضلالة فتأتي الآيات القرآنية

٢١٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

لتثبيت ابتعاد أهل الإيمان عن الكفر، وطرد الكفر المتزلزل من نفوس الآخرين وتدعو الناس جميعاً الى التخلص من برائن الكفر. فهذه الآية تزيد أهل الإيمان ايماناً، وتجعلهم يجتهدون في معرفة الناس، وهي انذار ينفذ الى قلوب الكفار ويملاً صدورهم بالحرج والأسف، ويدعوهم لمراجعة الذات، ومحاولة التخلص من الكفر والنفاق ولا أقل الإمتناع عن مخادعة المسلمين.

مفهوم الآية

في الآية تقسيم للناس بلحاظ الإيمان، فبالإضافة الى هذا القسم الذي ذكرته الآية وهم الذين يدعون الإيمان بافواههم ويضمرون الكفر، فلا بد ان هناك قسماً آخر او أكثر، فهناك المتقون الذين يطابق قولهم صدق سرائرهم وثباتهم على الإيمان، وهناك الذي يجهر بالكفر. وتظهر الآية في مفهومها لزوم إقرار المسلمين باليوم الآخر وانه فرع التوحيد، وتؤكد على موضوعيته، لذا يعتبر المعاد أصلاً من أصول الدين. كما انها تحذر المسلمين من صنف آخر غير الكافرين، وهم المنافقون والمخادعون، وفي الآية دعوة للمسلمين لأخذ الحائطة واليقظة والإلتفات الى الذي يخفي عداوته، والعمل بصيغ جهادية مناسبة للإحتراز منه وإقامة الحججة عليه.

وفي الآية مسائل:

الأولى: بيان لحال شطر من الناس من غير المسلمين.

الثانية: إطلاع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين على أحوال أهل الملل والنحل، بنزول هذه الآية وهو بيان للإرتقاء في المعارف الإلهية، وإختيار السبل المناسبة للتعامل معهم.

الثالثة: جاءت الآية بلفظ (الناس) وهو لفظ واسم جنس استغراقي مطلق ومجمل من غير تعيين لملة القائلين، لتبقى قانوناً ثابتاً، يكشف زيف

إدعاء الإيمان كذباً ، ويدل هذا العموم على عدم إنحصار القول بأهل ملة مخصوصة .

الرابعة: تبين الآية إعجاز القرآن بكشف حال الكفار والمنافقين وأهل الريب والشك، إذ انها تأتي على كشف ما في قلوبهم وما يخفون في صدورهم مما هو خلاف ما يدعون من الإيمان ظاهراً.

الخامسة: إلتفات الكفار الى ضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكن العناد والإستكبار والنفس الشهوية تغلب عليهم فيخسرون الدنيا والآخرة، ومن أسباب الخسارة أنهم لم يقابلوا نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتصديق مع انها من عند الله عزوجل.

إفادات الآية

في الآية بيان لإتحاد ماهية الإيمان وضرورة الإقرار بالربوبية والكتب المنزلة والنبوة والمعاد، ولزوم الإتحاد بين ظاهر الإنسان وباطنه فما يعلنه من الإيمان هو ذاته الذي يسره في نفسه، وتنمي الآية ملكة الحذر والفتنة عند المسلمين لمعرفة معادن الناس والتمييز بين الناس على أساس صدق الإيمان .

لقد جعل الله عز وجل المسلمين قادة وأئمة للناس، وسادة يعلمون بأحوال عدوهم، وخفايا نفسه وذكرت الآية الإيمان باليوم الآخر وجعلته لاحقاً وتابعاً للإيمان بالله لبيان موضوعيته في الإيمان، وعظم الذنب الذين يرتكبه المنافقون بإدعاء الإيمان، فمن كان يصدق بالبعث واليوم الآخر لا بد ان يصلح سريره ، لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(١)، فلا يستطيع الإنسان يوم القيامة إخفاء ما في قلبه ثم ان الإيمان بالله واليوم الآخر لا ينحصر بالقول ، بل لابد من إبراز المصداق الخارجي له بالعبادة والتقوى والصلاح، لذا جاءت الآيات السابقة بمدح ووصف المتقين بقوله تعالى

(١) سورة الطارق ٩.

٢٢٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١)، وفيه بيان لموضوعية الصلاة وغلبتها على النفس الشهوية، وطردها لأفراد النفاق من النفوس.

الصلاة بين أول وآخر الآية

لقد ذكرت الآية حال شطر من الناس يدعون الإيمان، ويتظاهرون بالتصديق بيوم القيامة وكافيه من الحساب والجزاء، والقول حجة على صاحبه، ويعرف الناس من خلاله حقيقة الإنسان وميله **وإعتقاده**، ولكن خاتمة الآية بينت التناقض والتضاد عند هؤلاء إذ ان ما **يكنون في نفوسهم مباين** لما يعلنون من الإيمان، لتكون الآية ومصاديقها **إعجازاً** في التنزيل، **وشاهداً** على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وورد عن الإمام علي عليه السلام "المرء مخبوء تحت في لسانه"^(٢) فجاءت الآية لتخترق **شغاف القلوب**، وتخبر عن **إضمار** هؤلاء الكفر والجحود، ويعلنون الإيمان لوجوه:

الأول: طلب السلامة والنجاة من القتل.

الثاني: محاولة التقرب الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

الثالث: السعي للحصول على المنافع والفوز بالغنائم.

الرابع: الحفاظ على الأموال الخاصة.

الخامس: المكر بالمسلمين عن قرب، بجعل المسلمين يطمثون لهم، فيثوا سموهم.

السادس: إقامة الحجة عليهم ورؤيتهم الآيات، وعجزهم عن الرد والتكذيب العلني، فيظهرون الإيمان زوراً، قال تعالى ﴿وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) سورة البقرة ٣.

(٢) نهج البلاغة ٣٨/٤.

معالم الإيمان / الجزء الثاني

قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴿٢٢١﴾. وجاءت الآية بصيغة الجملة الخبرية، وتحتل وجهين:

الأول: معرفة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على نحو الخصوص بهؤلاء بفضل من عند الله.

الثاني: معرفة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لهم، **وإمتلاك** القدرة على تمييزهم.

والصحيح هو **الثاني**، إذ جاءت هذه الآية والآيات التالية **كشفيهم**، قال تعالى ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ ومن الإعجاز في الآية انها لم تذكر إيمانهم برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ولكنهم **أعلنوا** إيمانهم بالله واليوم الآخر، ومن يؤمن بالله، والحساب **والجزء الآخروي** يجب ان يؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم **لأنه** فرع الإيمان بالله، فالله عزوجل هو الذي **بعثه** نبياً ورسولاً وأمر بتصديقه واتباعه ونصرته، ويكون الحساب يوم القيامة على التصديق بنبوته، **وجاءت** خاتمة الآية بنفي **الإيمان عن الكفار**، **لأن** الإيمان لا يقبل التجزئة والتبعض، ومن شرائطه التصديق بنبوة محمد، وبذا فان الآية رحمة بالمسلمين، **وإعانة** لهم لمعرفة المنافقين، وفيها **منع** من اللبس والترديد والوهم، وتنفي وجود برزخ بين الإيمان والكفر، فمن كان مؤمناً فلا بد ان يصدق بالنبوة والتنزيل.

التفسير الذاتي

إبتدأت الآية بأمرين:

الأول: لغة **التبعض** التي يدل عليها حرف الجر (من).

الثاني: إرادة عموم الناس، وفيه إشارة إلى خروج المسلمين من الذم الوارد في الآية إذ ترد الخطابات الخاصة بالمسلمين في القرآن

٢٢٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

بالنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أن الإيمان أمر حاصل عندهم على نحو القطع واليقين.

لذا ورد في أسباب النزول أنه وردت في جماعة من المنافقين وموضوعها أعم، ويبين ما كان يلاقيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الناس.

وفي الآية ترغيب بالمسلمين بدعوة الناس جميعاً للإسلام، وعدم النكوص أو الفتور بالدعوة بسبب قول بعضهم، كما تساهم الآية في فضح الكفار والمنافقين في الدنيا.

وتدعو الآية الناس جميعاً إلى دخول الإسلام، وحسن الإيمان وإجتنب النفاق والتضاد بين الظاهر والباطن، ويحتمل إدعائهم الإيمان وجوهاً:

الأول: الإطلاق الزمني وإقامتهم على النفاق، فهم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا﴾ في كل الأوقات والأحوال.

الثاني: إنحصار قولهم آمنا بحضرة المؤمنين وعند لقائهم.

الثالث: يقولون آمنا إذا خلو فيما بينهم وفي متدياتهم.

والصحيح هو الثاني لأن الآيات وردت بتقييد الإطلاق، قال تعالى ﴿وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ (١). وهل يمكن القول بالتعدد في مضامين الآيات، وإن الآية أعلاه خاصة بالمنافقين بلحاظ أسباب النزول، أما الآية محل البحث فتتعلق بفريق من الناس، الجواب إن مضامين الآيتين واحدة **وتخبر عن الكذب والزور** في إدعاء الإيمان مع تعدد الأغراض والمقاصد الخبيثة، وهذا لا يمنع من كثرة الصيغ والأسباب التي يدعي معها **نفر من** الناس الإيمان كذباً وزوراً.

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٢٢٣

ومنهم من **يظهرون** الإيمان كذبا فإذا **أصابه** ضرر وأذى هجروا منازل الإيمان أما إذا نصر الله المؤمنين وأظهرهم على عدوهم وأصابوا الغنائم جاءوا لهم وقالوا إنا كنا معكم ثابتون على دينكم كما في **قوله** تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ (١).

ومن **إعجاز الآية** أنها ذكرت إظهارهم التسليم باليوم الآخر، والمعاد يوم القيامة وهو أمر يترشح عنه أداء الفرائض وعمل الصالحات وهجران النفاق والضلالة وفيه دليل على بلوغ دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الناس وتتضمن الدعوة العبودية لله عز وجل والإقرار بيوم القيامة ومواطن الحساب فيه.

ومن **إعجاز الآية** إختتامها بالإخبار عن كذب إدعاء المنافقين وتخلفهم عن عمد عن منازل الإيمان .

وجات خاتمة الآية بنفي إيمان هؤلاء **المنافقين**، وأخبرت عن كذبهم وزيف إدعائهم بقوله **تعالى** ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

لقد تضمن القرآن البشارات والإنذارات البشارة بالنعيم الدائم للمؤمنين، والإنذار من العذاب **الأليم** من نار جهنم.

وجاءت هذا الآية بوجه آخر من وجوه الإنذار وعلى نحو من مركب من وجوه:

الأول: إنذار المنافقين والكفار من إدعاء الإيمان كذبا وزورا، وأخبارهم بأن الله يعلم ما تخفي صدورهم من الكفر والجحود.

الثاني: إنذار الناس جميعاً من النفاق وإدعاء الإيمان كذبا.

الثالث: إنذار المسلمين من المنافقين والكفار .

وتتضمن الآية حث المسلمين على عدم الركون للمنافقين، **أو التصديق**

٢٢٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

بما يدعون، وتدعو إلى لزوم الحذر والحيلة منهم، لذا جاءت الآية التالية ببيان سوء مقاصد المنافقين من هذا الإدعاء بقوله تعالى ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١).

من غايات الآية

تبين الآية علماً من علوم الغيب، وسراً من أسرار القرآن وهو فضح السرائر وكشف ما تخفي صدور المنافقين والكفار، ففي الوقت الذي تمدح فيه آيات القرآن المؤمنين لإخلاصهم في أداء الفرائض والعبادات والإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجوانح والجوارح، جاءت هذه الآية لفضح الكفار بما يخزيهم في الدنيا والآخرة .

وتبين الآية حاجة الناس الى القرآن من وجوه:

الأول: إخبار المسلمين بحقيقة وهي ليس كل من يقول آمنت فهو مؤمن، مما يدل على لزوم البيان وإثبات صدق الإيمان الذي يتجلى بصدق السريرة وإخلاص العبادة لله.

الثاني: إشعار الكفار والمنافقين بان الله عز وجل عالم بكل شيء ويعلم ما تخفيه صدورهم، وتؤكد هذه الآية صدق نزول القرآن من عند الله تعالى.

الثالث: بيان قبح النفاق الظاهر والخفي، وتحذير الناس منه والإخبار السماوي عن إضراره بصاحبه في الدنيا والآخرة.

الرابع: إدراك الكفار لموضوعية الإيمان باليوم الآخر.

الخامس: الكشف عن حقيقة وهي جهاد المسلمين في تثبيت معاني الآخرة في الوجود الذهني والواقع اليومي للناس بحيث ان المنافقين اضطروا للتظاهر بالإيمان به.

(١) سورة البقرة ٩ .

التفسير

قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

الآية الكريمة إخبار عن حال المنافقين وما يعيشونه من ازدواج في الرأي والتناقض بين ما يقولون وحقيقتهم الذاتية، فهم يدعون الإيمان ويزعمون انهم من اهل التوحيد ويأتون بالشهادتين ولكن قلوبهم فارغة من الإيمان، عازفة عن الهداية.

وفي الآية تحذير للمؤمنين وتنبيه لهم من الذين يظهرون الإيمان بألستهم ولكنهم في واقعهم وحقيقتهم بعيدون عن الإيمان ويهددون كيانه واركانه. والتنبيه في المقام ذو شعبتين:

الأولى: ألا يرجو المؤمنون من الذين يدعون الإيمان كذباً عملاً جهادياً او إعانة في هذا الباب،

والثانية: ان يحذروهم ، ولا يصابوا بالخذلان عندما يصدر من المنافقين عمل عدواني او تواطؤ مع عدو.

وقوله تعالى (من الناس) إظهار لمعنى وهو ان الآية لا تتعلق بالمؤمنين، وان الذين يقولون مثل هذا القول لا يصدق عليهم انهم مسلمون، وإن تلبسوا به في الظاهر.

لقد كانت دعوة الإقرار بالتوحيد والمعاد جزء من عقائد كل ملة سماوية فجاءت هذه الآية حجة إبتدائية عليهم قبل إقامة الحجة مرة أخرى بالدعوة للإيمان برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه الآية تختلف في المعنى والدلالة والمضمون عن قوله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١) التي جعلت الإيمان أعلى مرتبة من الإسلام.

(١) سورة الحجرات ١٤.

٢٢٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

والإسلام إقرار وتسليم وتلفظ بالشهادتين، فهذه الآية الكريمة تثبت كذبهم باللسان والقول يخبرون عما ليس في قلوبهم متعمدين الكذب بل يقصدون به العدوان وتثييط الهمم وبث اليأس في النفوس، لذا تصدى لهم القرآن وعلى هذا التقريب يبدو المقصود في الآية الكريمة من النفاق بالمعنى الأعم والشامل لمن يدعي التصديق بالنبوة كما تخبر عنه الآية التالية، فكان تصدي القرآن لهم حاجة إيمانية وسلاح يفتقر له المؤمنون. لقد علموا بان من أوليات الإيمان وضرورياته الإقرار بالتوحيد واليوم الآخر وهو طريق حتمي للإيمان برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعثته، واذ لا يمكن التفكيك بينهما فانهم أعلنوا كذباً الإقرار بالتوحيد والمعاد وليس من مقر بالمعاد لا يؤمن بما أنزل الله عز وجل. والتبعيض المبهم بالحرف (من) الذي يصلح للمفرد والمثنى والجمع، دل على مضمونه ذيل الآية بارادة المعنى منه وان المقصود منه الجمع مما يعني الإحتراز منهم والتدبر في أمرهم والإستعداد المناسب لهم ومحاربتهم، فالآية تنفي عنهم أدنى مراتب الإيمان إذا أسقطنا إدعاءهم عن الإعتبار.

قوله تعالى ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

نفي للإيمان مطلقاً عنهم على نحو الاطلاق الشمولي والبدلي والعموم المجموعي والإستغراقي والبدلي، وفضح سماوي لحقيقتهم وتعديهم، فالمقام ليس من مراتب التستر، بل هو باب من أبواب الجهاد في مرحلة البناء العقائدي لصرح الإسلام وقد تضره الشكوك ونفاذ النفوس الشيطانية والميول لأغراض الدنيا، فجاء المدد والعون الإلهي بكشف أصحاب الكدورات الظلمانية المائلين عن طرق الهداية.

ومن الإعجاز وصدق سماوية الدعوة الإسلامية أنها لم تتعرض لأهل الكتاب والمثلل السماوية بسبب تستر وتخفي بعض المنافقين بمبادئ الشرائع

السموية وما يسببه هذا التخفي من الأذى والإرباك والخذلان، فجاءت هذه الآية للتخفيف عن المؤمنين، وللإنذار والوعيد والتوبيخ للكافرين والمنافقين.

والتدبر في الآية يبين أن المقصود فيها ليس المنافقين بالمعنى الإصطلاحي المتعارف بل يصح أيضاً أن نطلق عليهم "المخادعين" كما هو ظاهر الآية التالية.



قوله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الآية ٩.

القراءة والإعراب واللغة

قرأ ابن كثير ونافع و ابو عمرو (وما يخادعون) بضم الياء وبالف مطابقة لقوله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ﴾ في الآية وان جاء رسمه بلا ألف أيضاً، والباقون بفتح الياء بلا الف^(١) في قوله (وما يخدعون). ومن قرأها بالألف يعني أنهم يخفون ما يخطر ببالهم ويضمرون في نفوسهم حقيقة الكفر زيفاً وتورية وكذباً ، فكأن الفعل يتم بين الإثنين وبلغه المفاعلة.

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا: يخادعون: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، الواو: فاعل، إسم الجلالة: مفعول به، والذين: عطف على إسم الجلالة، آمنوا: فعل ماض والواو فاعل، والجملة لامحل لها من الإعراب لانها صلة الموصول.

وما: الواو حالية، ما: نافية، إلا: أداة حصر، أنفسهم: مفعول به، الهاء: ضمير في محل جر مضاف اليه.

(إلا) بالكسر والتشديد حرف إستثناء، قال الجوهري: (يستثنى بها على خمسة أوجه بعد الإيجاب، وبعد النفي والمفرغ والمقدم والمنقطع) وجاءت هنا بعد نفي فهو إيجاب ونفي للنفي.

وذكر ان معنى الخدع في لغة العرب الفساد، أنهم يفسدون ما يظهرون من الإيمان على ألسنتهم بما يخفون في قلوبهم من الكفر والجحود، ولكن

(١) انظر مجمع البيان في تفسير القرآن ١ / ٤٦.

الإفساد وجه من وجوه الخدع ويتفرع عنه، وقيل أصل الخدع الإخفاء والإبهام بخلاف الإظهار والحق، يقال خدعت الرجل أخدعه خدعاً بالكسر.

والأنفس: جمع نفس بمعنى الذات مأخوذة من نفاسة لأنها أئمن وأجل ما في الإنسان، وهو جمع قلة، مما يعني قلتهم وعدم تأثيرهم وإضرارهم بالمسلمين.

يشعرون: يعلمون ويحسون ويدركون، وفيه من معاني اللطف والإستعارة، ومأخوذ من الشعار وهو ثوب يلي الجسد، ومنه يسمى الشاعر شاعراً لفطنته وإحساسه بالمواضيع وإدراكه للأمور.

في سياق الآيات

تبين الآية سوء فعل وعاقبة الكذب والنفاق والزيف، وكيف انه يضر أصحابه ويرجع عليهم بالأذى والخسارة، فهذه الآيات تبين نصيب كل فريق، ووقفت عند المنافقين لفضح ماهية عملهم وما له من الأضرار مما يدل على خطورته ولزوم التنبيه القرآني عليه .

وهذه الآية بيان لأحوال الذين ذكرتهم الآية السابقة، فقد يظن السامع انهم يدعون الإيمان مع عدم بلوغهم درجته إنما عن جهل وغفلة أو حسن نية منهم أو انهم يتفاءلون ببلوغ الإيمان، ومن غبطتهم به وسعيهم وشوقهم إليه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فجاءت هذه الآية للإخبار عن إرادتهم الفساد وإخفاء الكفر، وأنهم أناس منافقون أضمرُوا الكفر والجحود، وإدعوا الإيمان كذباً وزوراً بقصد الإساءة.

وجاءت الآيات التالية لتبين حسدهم وبغضهم للمسلمين وإصرارهم على الإفساد والإضرار بالحرث والنسل مع إدعاء الباطل ومحاولة إلباسه لباس الحق.

٢٣٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

لقد بينت الآية السابقة ما جاء على لسان الكفار والمنافقين من القول،
أما هذه الآية فأخبرت عما في نفوسهم من الحسد والبغض.

إعجاز الآية

في الآية تفصيل في جهات الصراع، وتفضله سبحانه ونصرة المؤمنين من
الذات المقدسة في مواجهة المنافقين والمخادعين.

لقد كشفت الآية عن خفايا نفوس المنافقين وما يضمرون من البغض
والحسد ولا بد لهذا الخداع من مقاصد خبيثة خفية وظاهرة، وفي الآية
إخبار عن درجة من اليقظة والبصيرة عند المسلمين ينكشف معها
الخداع.

لقد جاءت الآية بمسألة الخداع، ولم تأت مادة "خدع" في القرآن الا
خمس مرات تتعلق بالمنافقين ومحاولتهم خداع المؤمنين وفضح الله عز
وجل لهم وإرجاع كيدهم وخداعهم الى أنفسهم ليكون عبثاً ووزراً ثقيلاً
عليهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ
خَادِعُهُمْ﴾^(١).

وهذه الآية لطف إلهي بالناس، أما بالنسبة للمسلمين فانها مدرسة
عقائدية تحذرهم من المنافقين، وتبين المدد الإلهي في الوقاية منهم ودفع
كيدهم عن الإسلام وأجيال المسلمين، وأما المنافقون فالآية دعوة
لإصلاحهم وزجرهم عن محاولات الكذب والغش والخداع، فمتى ما
علموا ان الله عز وجل يعلم خفايا نفوسهم، وفضحهم في القرآن حتى
أصبح المسلمون يعلمون بمكرهم وخداعهم فان شطراً منهم يتوبون الى
الله، ومن لم يتب منهم فانه يدرك ان ضرره وأصحابه على المسلمين

(١) سورة النساء ١٤٢.

أصبح ضئيلاً وقليلًا ، لفضح هذه الآية له ، وهو من مصاديق قوله تعالى
﴿لَنْ يَصُرُوكُمْ إِلَّا أَذَى﴾^(١).

وتلك آية إعجازية بأن يكون نقص وقلة الضرر الآتي من الكفار
والمنافيقين بفضل ومدد من الله تعالى ، ومنه هذه الآية التي تتضمن في المقام
اموراً:

الأول: محاولة المنافقين خداع الله والمسلمين.

الثاني: فضح هذه المخادعة وإبطالها.

الثالث: رجوع كيد المنافقين الى أنفسهم.

الرابع: لا يعلم المنافقون بهذا القانون الثابت وهو رجوع كيدهم
وخداعهم الى أنفسهم وقد يقال إذا كان كيد وخداع المنافقين لأنفسهم
فكيف يأتي الأذى منهم للمسلمين ، والجواب من وجوه:

الأول: ان ضرر المنافقين أعم من الخداع.

الثاني: لا تدل الآية على رجوع خداع المنافقين الى أنفسهم في الحال ،
فقد يكون بعد حين ، أو يكون فيه تفصيل فمنه في الحال ومنه بعد حين .

الثالث: الآية إنذار ووعيد من العذاب الأليم الذي ينتظر المنافقين يوم
القيامة.

الرابع: ان محاولة خداع الإنسان لله لا بد وان ترجع الى نفسه .

ويمكن تسمية الآية بآية (وما يفتدون) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية .

الآية سلاح

الآية بشارة وسكينة وإخبار عن عدم إضرار المنافقين بالدين
وبالمؤمنين ، وهي علاج وتأديب وتنقيح للأخلاق ونبذ ذميمة الأفعال ،
وفيها تحذير من أهل المكر والخداع .

٢٣٢ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

ويحتمل خداع المنافقين أمرين:

الأول: إنحصاره بإدعائهم الإيمان كذباً وزوراً.

الثاني: المعنى الأعم من هذا القول.

والصحيح هو الثاني، إذ إن المخادعة منهج وسنة يتبعها المنافقون فجاءت هذه الآية لإنذارهم من سوء فعلهم مطلقاً، وعدم إنحصاره بإدعاء الإيمان كذباً وزوراً فقط، لتكون هذه الآية سلاحاً وقائياً دائماً من المنافقين وخداعهم، خصوصاً وإن بعض الخداع يتم خلسة وخفية، فتكون هذه الآية إنذاراً للمنافقين والكفار في منتدياتهم، تتضمن إخبارهم عن حتمية فضح كيدهم ومكرهم، وتدعوهم لنبذ الفساد والإفساد.

الآية لطف

من اللطف الإلهي كشف القرآن لما تخفيه نفوس الكفار مع مجيئه بالستر عن الناس في باب الفقه الجنائي وأدلة الجناية كما في أدلة ثبوت الزنا ولزوم شهادة أربعة عدول برؤية حصول التلبس بالزنا فعلاً ومع نقص العدد يجلد الذين شهدوا.

وكشف خفايا النفوس لطف إلهي على الناس جميعاً مع إنحصاره بشطر من الكفار، فمن الكفار، من يتجاهر بالكفر ويكون معروفاً عند المسلمين بكفره، فيحذرون منه ويعرضون عنه، وقسم منهم يخفي كفره ويعلن كذباً إيمانه فجاء القرآن، مدداً وعوناً للمسلمين في كشفهم، والإخبار عنهم وبيان سوء فعلهم وخبث سريرتهم.

ومن اللطف الإلهي ما تبعته هذه الآية من السكينة في قلوب المسلمين

من وجهين:

الأول: الوقاية والسلامة من خداع هؤلاء الكفار.

الثاني: الرضا والغبطة برجوع كيد وخداع الكفار الى أنفسهم، وتتضمن هذه الآية الإنذار الى الكفار وتحذيرهم من كذب الإدعاء، وإن لم

معالم الإيمان / الجزء الثاني _____ ٢٣٣

يعتبروا بهذا الإنذار كما جاء في الآيات السابقة فان المسلمين يتعظون منه ويتخذونه سلاحاً في الحجة والاحتجاج ودعوة للناس للتخلص من الكفر ومن الصدود عن الآيات والمعجزات، فذم الكفار لا يمنع من إنتقال العبد من الكفر الى منازل الإيمان.

مفهوم الآية

تدعو الآية الى الأخلاق الحميدة وتنهاى عن الفساد وسوء السرائر، وللإعجاز القرآني بفضح المنافقين وقراءة ما يضمرون في قلوبهم من العداوة لأهل الايمان مفاهيم متعددة تشمل ميادين القتال، والواقع اليومي العقائدي، ولزوم إحتراز المسلمين منهم.

وفي الآية مسائل:

الأولى: تجرأ الكفار والمنافقين بإخفاء الكفر وإظهار الإيمان زوراً وكذباً.

الثانية: بيان قبح الكفر وسوء صنيع الكفار.

الثالثة: إكرام المسلمين بإخبارهم بسوء سريرة، الكفار وما يقصدون من المخادعة.

الرابعة: إضرار الكفار بأنفسهم، اذ جاءت هذه الآية لتفضح مخادعتهم، وتمنع من ترتب الأثر الضار عليها.

الخامسة: رمي الكفار والمنافقين بالجهل والسفاهة، لأنهم يسعون في الإضرار بأنفسهم.

إفادات الآية

تبين الآية الأضرار الذاتية المترتبة على الكفر والجحود، الذي يؤدي الى وجود غشاوة ظلمانية على الأبصار، فتجعل الإنسان يميل الى الحيلة والخداع، ولكنه يكون مفضوحاً.

وفي الآية إخبار عن واقية سماوية للمؤمنين وعدم الإضرار بهم بسبب

٢٣٤ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

النفاق والخداع، ودلالة على بلوغ الإسلام لمراتب من التكامل العقائدي وتسليح المسلمين بالوعي والهدى .

والآية عون للمسلمين، ووسيلة لإرتقائهم في سلم المعارف الإلهية، وإرشاد لهم في المعاملة مع الناس ودعوتهم للإسلام، ودفع أذاهم.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت هذه الآية ببيان علة **إدعائهم** الإيمان بانهم كانوا مخادعين، يجتهدون في اللبس على المسلمين **وإيهامهم**، والإخبار عن سوء نية المنافقين وسيلة لفضحهم وكشفهم، وفيه ذم **لهم** وتقبيح لفعالهم.

وتبين الآية حال **الإستكبار** والعناد عندهم، فلم تنحصر مخادعتهم بالمسلمين بل انهم يريدون مخادعة الله تعالى، وهو القوي العزيز الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، ان مخادعتهم لله تعالى باب لنزول البلاء والعقاب بهم، وجاءت الآية بثلاثة مواضع.

الأول: مخادعة المنافقين لله والمسلمين.

الثاني: حصر خداعهم **بانفسهم**.

الثالث: عدم شعورهم بخداعهم لأنفسهم، وقيل المراد **بمخادعتهم** لله، هي مخادعتهم للرسول **لأن** طاعته طاعة لله تعالى، ولكن الكلام العربي يحمل على **ظاهره** الا مع القرينة الصارفة الى غيره.

لقد أمرهم الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وغفلوا عن حقيقة **علمه** تعالى بما **بيطنون** من الكفر للختم والطبع على قلوبهم.

ومن الإعجاز في الآية انها لم تقل (يخدعون الله) لان الله تعالى لا يمكن **خداعه** وبذا فان الآية مدح للمسلمين، وليبيان **ما** عندهم من العلوم والمعارف التي تؤهلهم **لكشف زيف** الإدعاء الباطل، وتحصنهم من مخادعة المنافقين لهم، فاذا جاءوا الى المسلمين وقالوا أمنا وانا معكم، فان المسلمين **لا يغترون** بهم، ولا يركنون الى **قولهم**.

وجاءت خاتمة الآية بالإخبار عن انحصار حصول الخداع بالمنافقين أنفسهم، ومن اعجاز الآية التباين في معنى "يخادعون" و"يخدعون" فالكفار والمنافقون يحاولون المخادعة، ولكن تنجز الخداع لم يقع **إلا** لأنفسهم، ومن **يأتهم** من غيرهم بل من **أنفسهم**، وفيه تنزيه للمسلمين، فانهم لا يخادعون، ولا يسعون لجذب الناس للإسلام بصيغ المخادعة والمكر والدهاء، بل يدعون الناس الى الإسلام بالحجة والبرهان، مما يدل على قبح الخداع والمكر.

ان **إنحصار** الخداع بذات المنافقين **أنفسهم** دلالة على سفاهة عقولهم، وتفويت المصلحة عليهم، وتضييعهم للمنافع، ومن **الآيات** انهم لا يشعرون بالانحصار **الضرر** بهم بالذات، فتبدأ الآية بالإخبار عن سعي ومكر المنافقين **والضلال** لمحاولة إغواء المسلمين **وإثارة** روح الشك والريب عندهم، ولكن النتيجة هي كثرة **آثامهم**، وتعرض **أنفسهم** للبطش الإلهي.

التفسير الذاتي

لقد جاءت الآية السابقة بنفي ما يدعيه المنافقون من الإيمان، فهم يتظاهرون بتصديق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في رسالته، وجاءت الآية السابقة للإخبار عن كذبهم فيما يدعون بقوله تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وجاءت هذه الآية لبيان المقاصد الخبيثة في إدعاء الإيمان وأنه لغرض خداع المؤمنين، وإيذائهم، وقد جاء لفظ (يخادعون) في القرآن مرتين، إذ ورد في ذم المنافقين قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة ٨.

(٢) سورة النساء ١٤٢.

٢٣٦ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

ولكن لا يعني بالضرورة أن الآية محل البحث خاصة بالمنافقين، وأن كل الذين يقولون **آمنهم** من المنافقين إلا على إرادة المعنى الأعم للنفاق وإنه إظهار الإنسان للإيمان وهو يخفي الكفر والضلالة، لأن المنافقين طائفة، أظهروا الإسلام ونطقوا بالشهادتين ولكن قلوبهم لم **تتنزه** من الكفر والضلالة.

ومنهم الذين خرجوا مع المسلمين إلى أحد، وإنخزلوا وسط الطريق، وكان عددهم ثلاثمائة وإتتمروا بقول رأس النفاق عبدالله بن أبي سلول، **وإنخزلهم** هذا من مصاديق هذه الآية **وما فيها من** الإخبار عن مخادعتهم الله ورسوله والمؤمنين.

ومضامين الآية تشملهم، وتشمل غيرهم من الكفار الذين يدعون الإيمان بحضرة المسلمين، من أجل الخداع والمكر.

فجاءت الآية نصرة للمسلمين، وفضحاً لعدوهم الخفي الذي **لا يعرفونه** من ظاهره بسبب **إدعائه** الإيمان، وفي الآية لطف بالناس جميعاً، ودعوة لهم للإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما **فيها من** الآيات والبراهين الدالة على صدق نبوته ومنها هذه الآية، وبعد أن أخبرت الآية عن تلبسهم بالمكر والخداع.

وجاءت خاتمة الآية بأمرين:

الأول: إن المنافقين والكفار لا يضررون بهذا الخداع إلا أنفسهم، ويسبب بعضهم بإفساد بعضهم الآخر.

الثاني: لا يشعر المنافقون بما يجلبونه على أنفسهم من الضرر والفساد. وما ينتظرهم من العذاب الأليم يوم القيامة، بسبب هذا الخداع، وإدعائهم الإيمان زوراً وقد ورد في ذم المنافقين قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١).

من غايات الآية

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين العزة في الدنيا والآخرة ، قال سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، ومن وجوه العزة الإخبار عن سوء حال عدوهم في الدنيا والآخرة، وإرجاع كيده الى نحره، وتبين الآية قبح فعل الكفار المنافقين بإتخاذهم الخداع والحيلة والمكر وسيلة للبقاء على الكفر والجحود ومحاولة بعث اليأس وأسباب الشك في قلوب المسلمين، فجاءت هذه الآية بشارة سماوية بدرء ضررهم، ودفع أذاهم، وإرجاع كيدهم الى نحورهم.

وفي الآية دعوة للناس جميعاً لدخول الإسلام ونبد النفاق والكفر من وجوه:

الأول: ان الله عز وجل يعلم بما يقوم به نفر من الكفار والمنافقين ومقاصدهم ونواياهم الشريرة، فقد يأتي الفعل ويحتمل وجوهاً في القصد والغرض بلحاظ النية وعواقب الأمور مما يمنع من الكشف وإستبانة الأمور الا بعد حين.

فجاءت هذه الآية لإستباق المنافقين فيما يفعلون ويعزمون عليه من المكر والكيد، وتصاحب هذه الآية إدعاءهم الإيمان قبل نزولها وبعده لإطلاق أحكامها، وهي سلاح بيد المسلمين يذكرهم بحقيقة نوايا المنافقين، ويمنع من الإغترار بهم ويقولهم وما فيه من الأضرار اللاحقة. ومن غايات الآية انها دعوة للناس جميعاً للحذر من المنافقين وعدم إتباعهم في خداعهم، ولزوم الفصل والتمييز بين المؤمنين، وبين الذين يدعون الإيمان كذباً، وهي مناسبة للتوبة وإصلاح الذات فقد لا يشعر المنافق بقبح فعله، وما تترتب عليه من الأضرار التي تلحق به في الدنيا

(١) سورة المنافقون ٨.

٢٣٨ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

والآخرة، فجاءت هذه الآية لكشف هذه الحقيقة وبيان قانون ثابت وهو ان خداع أهل الضلالة والنفاق لا يضر الا أنفسهم، فالقوة لله جميعاً. ولا يجني الذي يحارب الله ورسوله والمؤمنين إلا الخسارة وسوء العاقبة، وجاءت هذه الآية توبيخاً وتذكيراً بهذه العاقبة لينتفع منها شطر من الناس بالإقلاع عن النفاق والأخلاق المذمومة، وإجتنب أهل النفاق وبغضهم والنفرة من فعلهم، فلذا ترى المنافق يبقى على عناده وخداعه، وتأتي أفواج من الناس لتدخل الإسلام فتنتقل من منازل الكفر والمعصية الى الإيمان مباشرة ومن غير وسائط، ليتلوا هذه الآية وتتخذها حرزاً من المنافقين والذين أصروا على التخلف في الضلالة.

التفسير

بعد ان تناولت الآية السابقة حال المنافقين وأهل الضلالة وما يعيشونه من تناقض بين القول والإعتقاد، جاءت هذه الآية الكريمة لبيان الأثر المترتب على فعلهم هذا فهم يصبون الى النجاة بأساليب الخديعة والمكر ويسعون لحقن دمائهم وحفظ أموالهم بما يظهرون بألسنتهم من وجوه الايمان، ولا يترددون في القبول الظاهري لدعوة الحق ليكرموا إكرام وإجلال أهل التوحيد، ويأتون ببعض أفعال الموحدين ليأنس بهم المؤمنون ويركنوا اليهم بأسرارهم فيذيعونها وينقلونها الى اعداء الدين والمتربصين بالمجاهدين.

يأتي المنافقون @@ @C:\WINDOWS\hinhem.sr بهذا الفعل وهم يظنون ان الله عز وجل يتقبل منهم قولهم الخالي من سمات الصدق وغير المقترن بالإعتقاد القلبي الجازم، ويحاولون إيهاام المؤمنين بأنهم معهم او قرييون منهم في الإعتقاد، ويحسبون أن إعلانهم الايمان بالقول فقط كاف لنجاتهم وإختلاطهم بالمؤمنين، ولكن أولئك المنافقين لن يضرؤا إلا أنفسهم فان الله عز وجل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كما جعل الله المؤمنين

معالم الإيمان / الجزء الثاني

٢٣٩

بالقرآن والنبوة على بصيرة من أمرهم.

وفي الآية إعجاز بالإخبار عن كشف المؤمنين لهؤلاء المنافقين وعدم اغترارهم بهم، فحصر الخداع بانفسهم يعني عدم الخداع المؤمنين بهم، والسيرة شاهدة على ذلك، فان الغزوات الاسلامية المتواصلة والجهاد اليومي الدؤوب ووجوه العبادة أظهرت حقائق الإيمان ودرجاته عند المسلمين، وكان بعض الصحابة يعرف المنافقين كما في حذيفة بن اليمان^(١) الذي كان يسأله عمر بن الخطاب عن المنافقين وينظر عند موت من مات منهم هل يشهد جنازته حذيفة^(٢).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام "سئل فيما النجاة غداً؟ فقال انما النجاة في ان لا تخادعوا الله فيخدعكم فانه من يخادع الله يخدعه ويخلع منه الإيمان ونفسه يخدع ولا يشعر، فقليل له كيف يخدع الله؟ فقال عليه السلام يعمل بما أمر الله عز وجل ثم يريد به غيره فاتقوا الله واجتنبوا الرياء فانه شرك بالله عز وجل ان المرائي يدعي يوم القيامة باربعة أسماء: يا كافر يا فاجر، يا غادر، يا خاسر حبط عملك وبطل أجرك ولا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له".

وكما تدم الآية مساوي الإخلاق فانها دعوة لنبذها وتنقيح للسيرة والسلوك فمتى ما عرف الإنسان ان فعله القبيح أصبح مفضوحاً وليس من

(١) أبو عبد الله حذيفة بن هسيل بن جرادة بن الحرث بن عبد الله العبسي، واللقب لوالده وأختلف فيه وكان جده جرادة أصاب دماً في قومه فهرب الى المدينة وحالف بني عبد الاشهل، وفي أسد الغابة: كان حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنافقين، وهو الذي سنن الكوفة وشهد معركة نهاوند، ولما قتل النعمان بن مقرن أمير جيش المسلمين، أخذ حذيفة الراية وفتح همدان والدينور والري وهي قريبة من مدينة طهران. ومات بالمدائن بعد بيعة الإمام علي عليه السلام بأربعين يوماً.

(٢) انظر الاصابة في تمييز الصحابة ١/٢٧٨.

٢٤٠ _____ معالم الايمان / الجزء الثاني

سبيل الى ستره فانه يعتمد في الغالب الى التخلص منه لانه يعيش في صراع بينه وبين نفسه ، وحرصه على شأنه وسمعته وما يشتهر به ، ومن يصر على ما هو عليه أيضاً يكون على مراتب متفاوتة فمنهم من ينحسر تعديه الى أدنى حال وان كان الغرض الأول من الآية ليس إصلاح نفوسهم بل تحذير المسلمين منهم وأخذ الحائطة لدينهم ، وهو لا يمنع من الغايات الأخرى ، والمنافع المتعددة والمتشعبة للآية القرآنية ، وهو من اسرار القرآن واعجازه . وجاءت الآية بصيغة المضارع (يخادعون) وفيه إعجاز إضافي بإستدامة وإستمرار المخادعة ، وهو في مفهومه تنبيه وتحذير للمسلمين ، ولم تذكر الآية النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالذات أي ان الآية لم تقل يخادعون الله والنبي والذين آمنوا ، وفيه وجوه:

- ١- ان النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم زعيم المؤمنين ويمتاز بشرف النبوة وعلو المرتبة فيدخل مع عموم لفظ الذين آمنوا.
- ٢- انهم لم يخدعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه يعرفهم ويفضحهم وان الله عز وجل يحفظه ويصونه من خداعهم قال تعالى ﴿أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ﴾^(١) ، ولكن الآية تذكر انهم يخادعون الله ، فمن باب الأولوية انهم يخادعون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.
- ٣- اضافة طاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى الذات المقدسة كما في قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾^(٢).
- ٤- ان الله ذكر نفسه ويريد رسوله الكريم .
والصحيح هو الأول والثالث ، ومحاوله المنافقين الخداع عامة الا ان عدم ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المقام له دلالات عقائدية منها:

(١) سورة الأنفال ٦٢ .

(٢) سورة آل عمران ٣٢ .

- ١- عدم وجود سلطان للمنافقين على الوحي.
- ٢- ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يميل الى أقوال المنافقين.
- ٣- لقد يأس المنافقون من الخداع والكذب مع الله ورسوله، اذ انهم يعلمون ان الله عز وجل يعلم ما يضمرون في نفوسهم.
- ٤- الآية شاهد على العصمة الغيرية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بان يجعله الله عز وجل في مأمن من خداع الكفار.

قوله تعالى ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾

الأنفس جمع قلة لنفس كقولهم عندي ثلاثة أنفس ليعبر بالأنفس عن الإنسان جميعه، وذكر جمع قلة عنوان لضعفهم وعدم صدور الضرر الجسيم منهم.

والنفس لها عدة معان منها ذات الشيء، ومنها الجوهر المتعلق بالأجسام تعلق التدبير والتصرف، وهو الشيء الذي يشير اليه كل انسان بقوله انا وهو الباقي بعد الموت فلا غرابة ان تكون مخادعتهم لأنفسهم في حياتهم الدنيا وبعد الممات لما يلاقونه من الخسران المبين، والمخادعة مع الله ممتنعة.

والأصل حمل الكلام على الحقيقة الا مع القرينة الصارفة، والظاهر ان المراد من مخادعة المؤمنين في المقام هو المعنى المجازي، وسوء ظنهم، والمخادعة هنا ليست نوع مفاعلة بل هي فعل من طرف واحد ومحاولة قاصرة مردودة لأن الله عز وجل يكشف سرائرهم وما تخفيه نفوسهم، وهي تخبر بان مخادعة الغير لم تحصل واقعاً ولم تبلغ الطرف الآخر بل ظلت فيهم وعندهم، ولم تقل الآية انهم خدعوا المؤمنين بل يبقى مكرهم في طور الإنشاء والمحاولة.

بحث بلاغي

من أساليب البلاغة (القلب) وقد أنكر جماعة وجوده في القرآن تقديساً إكراماً له، ولأن القلب يصدر من العرب للعبث أو التهكم أو الإضطرار والله عز وجل منزّه عن القبيح، ولكن إستعمال القلب أعم وقد يكون من الفصاحة والبلاغة ويدل على بعد المراد، اما في القرآن فبحسب المصاديق التي يدعون فيها القلب، وهو على انواع منها قلب الإسناد أي ان يظهر في الكلام الإسناد الى شيء والمراد غيره وأستدل عليه بآيات منها هذه الآية وان الأصل وما تحذعهم الا أنفسهم، لأن الأنفس هي المخادعة. ولكن حمل الكلام على الوجه الواقع والظاهر في القرآن هو الأنسب لما فيه من الحجة عليهم وانهم بارادتهم سعوا في مخادعة أنفسهم، وان فعل الإنسان اعم من ان يكون راجعاً الى النفس وحدها فقد رزقه الله العقل وجعله عنده رسولاً باطناً ولكنه وظفه للشر وللإنقلاب على النفس في محاولة لمخادعتها للتخلص من ممانعتها وبقائها متقادة للنفس اللوامة وهي القوة المتوسطة التي تميل تارة وتنجذب الى المطمئنة وتلوم الذات والنفس، وفي صيغة جمع القلة في أنفسهم إخبار سماوي عن قلة عددهم وتناقصهم وعدم ترتب الضرر النوعي منهم ازاء الإسلام والمسلمين.

قوله تعالى ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

ما يقدمون عليه من الإضرار بأنفسهم وخسارتهم للدارين فان الإسلام يقوى وينتشر وترسخ مبادئه وينكشف حال المنافقين ليلحقهم الخزي والهوان ويوؤا بالعذاب الأليم يوم القيامة. والشعور بدايات العلم بالمدرک ، وأول مراتب وصول النفس الى المعنى فهم لا يشعرون بإنقلاب أضرار المخادعة عليهم قبل نزول هذه الآية فجاءت للإخبار عنه وكشف حقيقته، ولكن بعد نزول الآية هل ظلوا على ما هم عليه من عدم الشعور بالإضرار بالنفس؟ الجواب: ان أثر الآية من

معالم الإيمان / الجزء الثاني

الأمر الكلية المشككة أي التي تتفاوت أفرادها، وهم على مراتب في تلقي الإنذار والتوبيخ:

١- من إستمع للآية وإعتبر وإتعظ، وكف عن الخداع وهو فزع خائف.

٢- الذين التفتوا لوجوه الإعجاز في هذه الآية وسبرها لأغوار أنفسهم، فكانت الآية مناسبة لإسلامهم بما أقامته من الحجة عليهم.

٣- جماعة أصرروا على المغالطة والوهم لتبقى هذه الآية تلاحقهم وتضيق عليهم طريق الخديعة، وتمنع من إضرارهم بالإسلام.



المحتويات

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
من غايات الآية	٥٢	المقدمة	٣
التفسير	٥٣	سورة البقرة	٥
الآية ٣	٥٩	في نظم الآيات	٥
الإعراب واللغة	٥٩	إعجاز السورة	٥
قاعدة نحوية جديدة	٥٩	اسم السورة	٦
قانون الإتفاق	٦٤	فضل السورة	١٠
في سياق الآيات	٦٥	الآية ١	١٥
إعجاز الآية	٦٦	الإعراب	١٥
الآية سلاح	٦٧	في سياق الآيات	١٦
مفهوم الآية	٦٧	إعجاز الآية	١٦
الآية لطف	٦٩	الآية سلاح	١٧
إفاضات الآية	٧٠	موضوع النزول	١٧
الصلة بين آية وآخر الآية	٧١	مفهوم الآية	١٩
من غايات الآية	٧٤	إفاضات الآية	١٩
التفسير	٧٤	الآية لطف	٢٠
من فضل القرآن	٧٨	من غايات الآية	٢٢
في رحاب الصلاة	٨٩	التفسير	٢٣
تشريع الصلاة	٨٩	الآية ٢	٤٠
الصلاة العبودية	٩٢	القراءة والإعراب واللغة	٤٠
فضل الصلاة	٩٣	في سياق الآيات	٤٣
الصلاة والأخلاق	٩٤	إعجاز الآية	٤٤
الصلاة سلام وأمن	٩٥	الآية سلاح	٤٥
الصلاة والنفس	٩٦	مفهوم الآية	٤٦

الصلاة والإيمان	٩٨	إفاضات الآية	٤٨
الصلاة والصحة	٩٩	الآية لطف	٤٩
بحث بلاغي	١١٠	الصلة بين آية وآخر الآية	٥٠

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
اسباب النزول	١٥١	الآية ٤	١١٢
مفهوم الآية	١٥٢	الإعراب واللغة	١١٢
إفاضات الآية	١٥	في سياق الآيات	١١٣
	٣		
الآية لطف	١٥٤	إعجاز الآية	١١٤
الصلة بين أول وآخر الآية	١٥٤	الآية سلاح	١١٥
من غايات الآية	١٥٦	مفهوم الآية	١١٦
التفسير	١٥	إفاضات الآية	١١٨
	٧		
الآية ٧	١٦	الآية لطف	١٢٠
	٦		
الإعراب واللغة	١٦	الصلة بين أول وآخر الآية	١٢٠
	٦		
في سياق الآيات	١٦	من غايات الآية	١٢٦
	٧		
إعجاز الآية	١٦	التفسير	١٢٦
	٨		
الآية سلاح	١٦	بحث كلامي	١٣١
	٨		
مفهوم الآية	١٦	بحث بلاغي	١٣٢

معالم الايمان / الجزء الثاني ٢٤٦

	٩		
الآية لطف	١٦	الآية ٥	١٣٣
	٩		
الصلة بين أول وآخر الآية	١٧٠	الإعراب واللغة	١٣٣
من غايات الآية	١٧٢	في سياق الآيات	١٣٤
إفاضات الآية	١٧٢	إعجاز الآية	١٣٥
التفسير	١٧٣	الآية سلاح	١٣٥
مقارنة بين السمع والبصر	١٧٨	مفهوم الآية	١٣٧
علم المناسبة	١٨٣	إفاضات الآية	١٣٨
الآية ٨	١٨٥	الآية لطف	١٣٩
الإعراب واللغة	١٨٥	الصلة بين أول وآخر الآية	١٣٩
في سياق الآيات	١٨٦	من غايات الآية	١٤٠
إعجاز الآية	١٨٧	التفسير	١٤١
الآية سلاح	١٨٨	الآية ٦	١٤٦
أسباب النزول	١٨٨	الإعراب واللغة	١٤٦
مفهوم الآية	١٨٩	في سياق الآيات	١٤٨
الآية لطف	١٩١	إعجاز الآية	١٥٠
الصلة بين أول وآخر الآية	١٩٢	الآية سلاح	١٥٠

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
من غايات الآية	٢٢١	من غايات الآية	١٩٣

التفسير	٢٢١	إفاضات الآية	١٩٤
الآية ١١	٢٢٨	التفسير	١٩٥
القراءة والإعراب واللغة	٢٢٨	الآية ٩	١٩٨
في سياق الآيات	٢٢٨	القراءة والإعراب واللغة	١٩٨
إعجاز الآية	٢٢٩	في سياق الآيات	١٩٩
الآية سلاح	٢٣٠	إعجاز الآية	٢٠٠
مفهوم الآية	٢٣١	الآية سلاح	٢٠١
الآية لطف	٢٣٣	مفهوم الآية	٢٠٢
إفاضات الآية	٢٣٦	الآية لطف	٢٠٣
الصلة بين أول وآخر الآية	٢٣٦	إفاضات الآية	٢٠٣
من غايات الآية	٢٣٨	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٠٤
التفسير	٢٣٩	من غايات الآية	٢٠٥
الآية ١٢	٢٤٤	التفسير	٢٠٦
القراءة والإعراب واللغة	٢٤٤	بحث بلاغي	٢١٠
في سياق الآيات	٢٤٤	الآية ١٠	٢١٢
إعجاز الآية	٢٤٦	الإعراب واللغة	٢١٢
الآية سلاح	٢٤٦	في سياق الآيات	٢١٣
مفهوم الآية	٢٤٧	إعجاز الآية	٢١٣
الآية لطف	٢٤٩	الآية سلاح	٢١٤
إفاضات الآية	٢٥١	مفهوم الآية	٢١٥
الصلة بين أول وآخر	٢٥١	الآية لطف	٢١٨

معالم الايمان / الجزء الثاني ٢٤٨

الآية			
من غايات الآية	٢٥٣	إفاضات الآية	٢١٨
التفسير	٢٥٤	الصلة بين أول وأخر الآية	٢٢٠